





دخائر العرب

١٨

مذكرات الأمير عبد الله

آخرو ملك بني زيري بغرناطة

(٤٦٩ - ٤٨٣)

المسمّاه بكتاب "التبيان"

نشر وتحقيق

عن النسخة الوحيدة المحفوظة

بجامع القرويين بفاس

إ. ليثي بروفسال

أستاذ الحضارة العربية بالمربون

ومدير معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس

والأستاذ الزائر بالجامعات المصرية

دار المعارف بمصر

مقدمة

إنَّ المصنّف الذى سيوجه الجزء الأكبر من نصّه هنا — وهو كلُّ ما عُثر عليه لحدِّ الآن — سبق أن عُرِف لدى كلِّ من درس تأريخ الأندلس بعض الشيء ، وعلى الأخصّ العهد المسمّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التأريخ ، والموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ولقد نشرتُ منه ، فى فترتين ، أولاً ثلاث قطع ، ومن ثمّ قطعتين واسعتي كلاً ما اكتُشف شيء منها ، وذلك فى مجلّة « الأندلس » الصادرة فى مدريد فى عام ١٩٣٥ — ٣٩ وفى عام ١٩٤١ . وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية ، بعد فترة وجيزة ، بتوقيعى وتوقيع زميلى وصديق الأستاذ إ . غرسية غومس ، للمجموع الذى أُلّف بين أجزائه اليوم ، ما عدا الصفحة الأولى وفراغاً طويلاً يؤسف له فى وسط الكتاب . وستصحّب هذه الترجمة بمقدّمة مفصّلة وبمجموعة من الملاحظات التاريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذى يرغب أن يتّلعّ بتفصيل على المؤلّف الذى أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتاريخية .

سأقتصر هنا إذاً على بعض الإشارات الأساسيّة . فليس من المألوف أن نجد فى تأريخ العالم العربى ملوكاً أو شخصيّات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم ، فكتبوا مذكراتهم لقائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة . إنَّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامى أكثر منها على الشرق ؛ فإذا

وُجِدَ في الغرب الإسلامي بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب في القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) ، فلا يعرف من هذا الصنف التاريخي إلا مصنف واحدٌ يذكر ، وهو كتاب التبيذق صاحب المهدي ابن تومرت مؤسس الموحّدية ، وقد وقّعتُ منذ أكثر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال في إسبانيا ظلّ مجهولاً إلى ذلك الحين . وإنّهُ لتوفيق آخر ليس أقلّ سعادة من الأول ، أن أحصل ، بعد سنين طويلة ، وجزءاً بعد جزء ، على مصنف لترجمة شخصية لا يقلُّ أهميّة عن الأول ، وهو مصنف الأمير عبد الله ، الذي كانت كراريسه مبعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهمة منذ ستة قرون على الأقلّ في جناح تابع لمسجد القرويين بفاس .

وقد كنّا نعرف ، بفضل إشارة واردة في كتاب « الحلال الموشية » المجهول المؤلف ، أنّ الأمير عبد الله كان قد دوّن تأريخاً عن الدولة التي أسّستها أسرته في إسبانيا والتي كان هو آخر ممثليها . وعندما أصدرتُ في ١٩٣٤ أوّل طبعة للقسم المتعلّق بالأندلس من كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، جلبت انتباهي الفقرة الآتية (ص ٢٩٩) : « وقّعتُ على ديوان بخطّ عبد الله بن بُلقين ألّه بعد خلمه بمدينة آغمات وقرّر فيه أحواله والحادثة عليه ممّا يستظرف من مثله ، أنحفني به خطيبُ المسجد بآغمات رحمه الله . » وبفضل إشارة أخرى وردت في نفس الكتاب ، نعرف أنّ ابن الخطيب قد زار آغمات وزار بها قبر المعتمد بن عباد في سنة ٧٩١ (١٣٩٠) ؛ فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذي استعملناه ، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة ، فهو على الأقلّ نسخة ثانية كُتبت

عن الأصل وقُبلت معه ، كما تثبت ذلك الإشارة المترددة : « صح » ،
أصله » .

وأخيراً ، اكتشفت لي صدفة من صدف المطالعة العنوان التام
لمذكّرات عبد الله : ففي قهرة من كتاب « المراقبة العليا » (ص ٩٧) ،
وهو مصنف في مراتب القضاء بالأندلس لمؤلفه المشهور ابن الحسن النباهي
(وقد نشرته في القاهرة سنة ١٩٤٨) ، يتبيّن أنّ كتاب عبد الله
كان موسوماً بـ « التّبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري
في غرناطة » .

إنّ هذا العنوان يعلن أحسن إعلان عما يُقصد منه : فالملوّف الذي
عُزل ونُفي قصد إلى سرد تاريخ دولته وظروف عزله .

• • •

من كان الأمير عبد الله هذا ، وأيّة قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه ؟
فلأكتفِ هنا بتلخيص ما نشرته عنه أخيراً في الطبعة الجديدة لدائرة
المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية ، ج ١ ، ص ٤٥) :

كان عبد الله بن مُبلّقين بن باديس بن حبّوس بن زيري الملك
الثالث والأخير لمملكة غرناطة التي أسسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بني
زيري البربرية الصّهاجية ، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة .
وُلِدَ في سنة ٤٤٧ (١٠٥٦) ؛ وعيّن عند وفاة أبيّة مُبلّقين سيف الدولة
في عام ٤٥٦ (١٠٦٤) كوليّ عهد الأمير باديس بن حبّوس ؛
ثمّ اعتلى بعده عرش غرناطة في سنة ٤٦٩ (١٠٧٧) ، بينما أصبح أخوه

تتميم المَعِزِّ أميرًا مستقلًّا في مالقة . ولم تكن دولة الأمير عبد الله إلا سلسلة طويلة من الاضطرابات في داخل مملكته ، والمشادات المسلحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين ، والمواطنات مع ملك قشتالة ألفونس السادس . وساهم عبد الله في وقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لَيْبُط عند تدخُّل المرابطين في إسبانيا . لكن اتِّفَاقاته مع الملك النصراني أدَّت به إلى ضياع عرشه ؛ فقد جاء الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين لمحاصرته في غرناطة عام ٤٨٣ (١٠٩٠) ؛ فاضطرَّ إلى أن يسلم نفسه إليه ؛ فعزل عن ملكه وأرسل إلى المنفى بمدينة آغمات ، في جنوب المغرب الأقصى ، حيث انتهت حياته .

أما كتابة عبد الله لمذكراته ، فقد كانت أثناء إقامته الإجبارية في آغمات . وإنَّ هذه الترجمة الشخصية تكونُ أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويراً ، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة . وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التي يحاول فيها المؤلف أن يبرز موقفه السياسي أمام الأخطار التي كانت تهدِّم مملكته ، فإنَّ كتاب « التبيان » يقدِّم لنا سرِّدًا مفصَّلًا جدًا لجميع الحوادث التي أدَّت إلى استيلاء ألفونس السادس على مدينة طَلِيْطْلَة عام ٤٧٨ (١٠٨٥) وإلى تدخُّل المرابطين في شبه جزيرة إيريا في السنة التالية .

كما أنَّ مذكرات عبد الله هي وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول ، يساعد بصورة أفضل من كُتُب التاريخ التي ألِّفت من بعد ، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعي والسياسي في الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها ، وعلى التقدُّم الذي حقَّقه في هذا الوقت أنصار استرجاع

إسبانيا المسلمة إلى النصرانية . ومن جهة أخرى ، إنَّ قصَّة الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضاً أمرٌ جديدٌ وهامٌ جداً . ويجب إذاً أن نعتبر مذكرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض ، وذلك ابتداء من العصر الذي تنتهى فيه مؤلفات ابن حيان . وإنَّ هذه الفترة التي سأصِفُها بحول الله في الجزء الرابع من كتابي « تأريخ إسبانيا الإسلامية » ستوضَّح بصورة أوسع وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنيَّة لا يرتاب فيها .

* * *

إنَّ مخطوط مذكرات عبد الله يحتوى في مجموعه على ٨٠ ورقة من القرطاس السحيك ومن القطع الكبير (٢٣ × ٣١ سنتمتر) . وهو مسجَّل في مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦ . خطُّه من الخطِّ المبسوط الأندلسي . والنسخة على العموم في حالة جيِّدة عدا ورقتين ممزقتين جداً .

وقد أرفقنا مع النصِّ ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي ، ومن كتاب « الإحاطة في تأريخ غرناطة » لابن الخطيب ، يتعلَّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيتين هامتين في دولته . وسيجد القارئ خريطة تساعد على الوقوف على أهمِّ المناطق الجنوبية في إسبانيا مما جرى ذكرها في النصِّ .

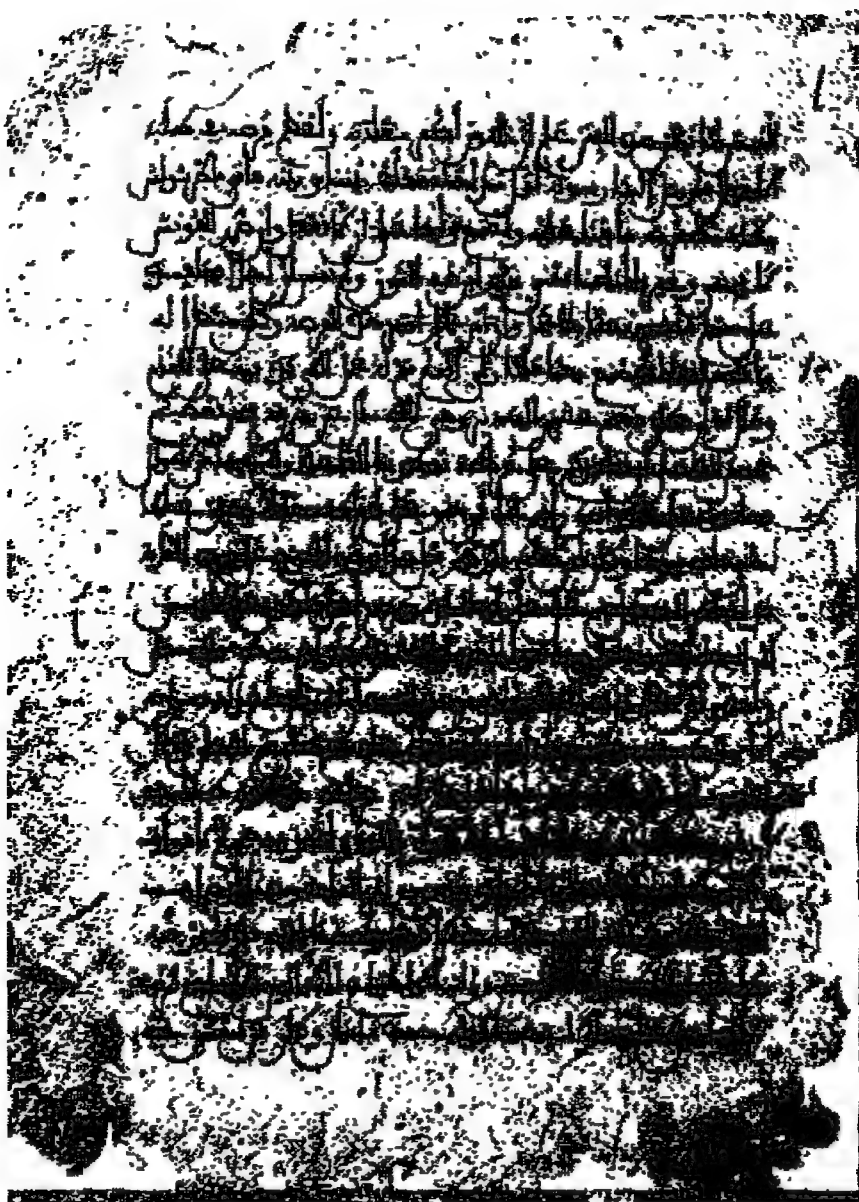
أودُّ في الختام أن أُنَبِّهَ قراءى الذين سيستغربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات في تأليف الأمير عبد الله إلى أن لفته ، مع أنها صحيحة ، قد تأثرت إلى حدٍّ ما باللغة العامية الأندلسية ، وأتة يلزم الرجوع بصورة

خاصّة إلى « ملحق القواميس العربيّة » لغوزى لفهم بعض الألفاظ التي تبدو خاطئة .

وليس من الضروري أن أثبته القراء من جهة أخرى إلى أن العناية التي أضيفت داخل النصّ للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن مر في النصّ الأصلي .

ا . ل . ب

باريس ٢٦ يونيو ١٩٥٥



« مذكرات » الأمير عبد الله : صفحة من الأصل المخطوط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

نظرات عامة للمؤلف

١ — القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها

.....^(١) واستنباط الغريب الذي لا يعقله كثير من الناس ؛ فإن ذلك ١ (١)
يولد خشونة اللفظ ، الذي تمنجه الأسماع .

والكلام ، إذا خرج من القلب ، وقع في القلب . ولا خير في رام
ه رَعِشَ ، ولا متكلم هائب ؛ فإنَّ الهَيْبَةَ فرعٌ [من] الخافة ، والخافة فرعٌ
[من] الحذر ؛ وَمَنْ حذر ، فقد عَقَلَه ، وَمَنْ خاف ، تكدَّرَ عَيْشُهُ ، ولا
تصحُّ مع هذا قريحةٌ ينطق عنها اللسان ، ويذكر بها الجنان ؛ فالنفسُ ،
إذا منعت ما تشتهي ، تُرْمَى مخططة ، وتصير كأنَّها بطوارقِ الخجل مخططة .
ولا يجب على الناطق والكاتب أن يتَّبِعَ هواه في أمره كله ؛ فكلُّ
١٠ مفتون ملقنٌ حُجَّتَه ، ولا عليه أن يرفض ذلك ؛ فيكون بانياً على غير أصل
وعاملاً لغير نهاية . وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره ويُفسد حال نفسه ،
وهو لا يشعر ، بل يصرف نفسه على فرقتين : يسعى في بلوغ أمله وإدراك

(١) هنا يثنى نص المخطوط ، إذ تلفت منه الورقة الأولى .

مراده دون أن يكون ذلك مُخِلًّا بذكره ولا غرضاً لمدوّه . وكلّ بيان ما لم يكن صواباً ، فهدّر .

وليس يُحمّد لوضوح كتاب أو ناظم خبر أكثر من جودة التأليف فقط ، لأنّه إنّما وضع ما قد سبقه إليه غيره ؛ وكلّ أحد ينفق ممّا عنده . وإنّ الأوّل لم يدع للآخر شيئاً . فلو كان نطقُ الناس إحالةً بعضهم على بعض ، ما سُمِعَ أحدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُكْرٍ ، ولا يتبرّع في [شيء] . ولكنّ الأولى أن يؤخذ بما نصّ الله عليه في قوله ^(١) : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ .

ولست الفائدة فيما قصّدتنا إليه ذِكْرُ خبرٍ يوصف ويأتى عليه نادرة مستطرفة ، أو حكاية مستغربة ، أو معنى يؤدّي إلى تأدّب وانتفاع . فلعلّك — أيّها التأمّل كتابتنا — أن يكون عندك أو طراً إليك خبرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تجده منصوصاً هنا ، فتُحْزِرُ واضِعَه : فليس إلّا كما قدّمناه . اللهمّ إلّا أن يكون حديثاً يؤدّي إلى القيام بحُجّة صاحبه* والاعتذار عنه من أمرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة ، فنطق هذراً ، وساعدَ عليه أقواماً لم يخسروا في عرض غيرهم شيئاً ، وطعنوا على غائبٍ أو ميّتٍ لم يُحرّ الجواب عن نفسه ، أو دليلاً لم ينتصر لعرضه .

أو أبان المؤلّف عن نفسه حدّفاً ومعرفةً تُذكر عنه وتُنشر بعده : فإنّ ذلك من آكد ما يجب له السعْيُ فيه وإعمالُ ذهنه وحواسّه في تلخيصه ، إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بجميل الثناء ، وأنفةٌ لسوء المقال ، ونشاطٌ على

ترفع الذكر ، مع فتو الهمة وصبوة التريجة . وإلا ، فالأمر ناقص منه ،
واللسان عبي عنه .

ولا نبيل إلى اجتماع أمرين مختلفين في الإنسان معاً ، ولا في غيره من
جميع المخلوقات . فإنه ، متى ارتفع أمر ، نزل ضده : كالحياة ، إذا ارتفعت ،
وجب الموت ؛ وإذا ارتفعت الصحة ، وجب السقم ؛ وإذا ارتفع الكرب ،
وجب الفرج .

هكذا نسق كل أمر : كالعامل للآخرة محضاً ، لا بُدَّ له من قصان
دنياه .

ألا ترى أن مؤلف الكتاب ، إن كان غرضه نظم الكلام وسجع
اللفظ ، كان ذلك ضاراً بالمعنى ؛ وإن أتى به ، فإنما يسوقه بعد تحليق عليه ،
وربما وضعه من غير شكله . وإذا تمَّ المعنى ، قص بعض اللفظ ؛ كما قيل :
« إذا تمَّ العقل ، نقص الكلام » .

وأرى أن مساق الحديث في التأليف بعضه لبعض أحسن خطأ وأفضل
نظماً من تقطيعه . ولهذا نريد إيراد كالحديث « [فالحديث] ذو
شجون » ، ونضرب المثل لبعضه ببعض : فيتقق إرادته دفعة واحدة ،
ونصه على أكمل ما يمكن .

٢ - حقيقة الإسلام والرُّدُّ على من لا يؤمن به

ومن كان لا يعرف دنياه التي نشأ فيها ، وأدركها يبصره وجميع حواسه ،
فهو لآخرته أجهل ، [آخرته] التي لا تُعرف إلا بالتفكير والاعتبار ، بعد

ما حضّ عليه الكتاب وأتى به الرسول — عليه السلام — . وقال تعالى ^(١) :
 ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ . وما * يصلح لنفسه لا يصلح لغيره . وأصل ^(٢) ()
 العلم كله معرفة الإنسان بدينه ، و [يقينه] بمعاده ، وأنه لم يخلق عبثاً . فإذا
 صحّت معرفته بذلك ، كان أخرى أن ينفع به لندياه التي يشاهدّها معاينةً .
 والرجال ثلاثة : رجلٌ عَمِلَ قَمِيلٌ : فذاك الذي يُدعى في الملوكوت ؛
 ورجلٌ عَمِلَ ولم يَعْمَلْ : فذاك الذي يُضَاعَفُ له العذاب ؛ ورجلٌ لم يَعْمَلْ
 ولا عَمِلَ : فذاك ، إن مات ، يموت ميتةً جاهليّةً ، ولا تصحُّ له معرفة
 دينه إلا بأن لا يقدر فيه قول كافرٍ ولا مُعْطَلٍ . فإذا حَسُنَ تمييزُهُ عن
 الصنف المُلْحَدِ ، عرف فَضْلَ ما هو عليه ، فَاتَّبَعَ على يقينٍ وجودةَ نَظَرٍ ،
 لا باستهزاء ولا تقليدٍ ، فيعجز ويشك . ١٠

وأما من كان من الأصناف المُلْحَدَةِ ، غير أهل الكِتَابَيْنِ ^(٣) من المُشْرِكِينَ
 ومن سِوَاهُمْ ، فالضلالُ منهم بَيِّنٌ ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش . وأما
 ما يزعم أهل الكتاب من أنَّهم على الحقِّ ، ولهم الدين القويم ^(٤) ، وأنَّ قولهم
 أَخْلُ [بنيره] ، فالرّدُّ عليهم في ذلك أن يُقال لهم : « إن كنتم تزعمون
 أنه ليس بعد نبيِّكم نبيٌّ ولا سُنَّةٌ ، فلا يكون هذا القياس إلاَّ بأن
 تكفروا بمن كان قبل نبيِّكم من الأنبياء ! ألم تكن قبل موسى شرائعُ
 وكتبٌ مُنْزَلَةٌ وأنبياءٌ عدَّةٌ ؟ فلو كان على مذهبكم ، لا ينسخ دينٌ ديناً ،
 لم يجب لكم أنتم شيء ! » ١٥

وإنَّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مُهْمَلِينَ ، وهو قوله تعالى ^(٥) :

(١) سورة الرعد : ١٨ . (٢) كذا في الأصل . (٣) أصل : « القديم » .

(٤) سورة فاطر : ٢٢ .

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، وقد كانت الضلالة بيّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبّدهم بعضهم لبعض ، ما لم يكن في حكمة الله ومشيتته أن يترك الردّ ودينه ، ولا يمهّل من يعبد سواه حتى يمت محمدًا — صلى الله عليه وسلم — بالحقّ بشيرًا ونذيرًا ؛ فصدع بالقرآن ، وجاهد في الرحمن ، وسنّ السنن ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . وكان في ذلك الزمان ٥

قد ضلّ أهل الكتاب ، واختلفوا ، وردّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصبح لفرقة منهم شريعة مع الأخرى ؛ وكانوا كم * ^(١) ٢ (ب)

الله تعالى ؛ فحتم الله الرسالة بنبيّنا — عليه السلام — ليبيّن له ما فرضه عليهم ، ويظهره على الدين كلّّه ! إن يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير ! » ١٠

وقال الله تعالى ^(٢) : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، فالْحِجَّة عليهم ظاهرة على ما بيّناه فيما يعطى العقل والقياس . وأمّا تبيين نبوته — عليه السلام — في الآيات التي جرت على يده ، فأكثر من أن توصف .

وإذا قتلت أحدهم ببعض هذه الحجج ؛ فمن ينتحل منهم قهها في علمه وسدادها ، يرجع إلى أن يقول : « إنّما كان رسولًا إلى العرب ! » فتأمل ١٥

تناقضه ، وكيف أثبت له الرسالة ؛ ومتى وجب إثبات الرسالة ، فقد أوجب على نفسه التصديق في كلّ مقالة وما أتى به . ثمّ الله يقول ^(٣) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . وقال — عليه السلام — : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ وَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ » ؛ فهم لا يصحّ لهم الإنكار جلة ولا الإيمان بأمرٍ دون أمرٍ .

(١) خرم نحو سطر في الأصل .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة صبا : ٢٨ .

٣ - قصور القياس دون عون من الوحى

- وقد كانت معرفة البارئ تعالى بالعقل اضطراراً لقوله ^(١) : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ . ولو ترك الناس فى ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم ، لكان خوضهم فى هذا المعنى قليلاً ، مستضعفين ، لا يطيقون نصر ما عهد إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولغلب جهالهم وعامتهم الظلم ، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه . فكانت النعمة مما أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرسل ، ليكون ما أتوا به دواء لما فى الصدور وهُدًى ورحمة ؛ فن عرف الله قبل العقل ، أتم عليه نعمته ؛ فقد عرفه نفسه باليقين ، وبشره بالثواب ، وأنذره العقاب ، ليرفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامة الناس طوعاً أو كرهاً .
- ١٠ ألا ترى أن لا شيء من أمور الدنيا يصبح بالظن دون اليقين ؟ فكيف الآخرة التى لا يوقن ^(٢) * الذين أبانوا عنها ؛ والظن كذب الحديث والشرع ، ومن تقلده بطل [رأيه] . وليس حكم البارئ تعالى مما يجرى على قياس : كيف ؟ وهو خالق القياس ، وهو واهب العقل الذى به أدركنا جميع الأشياء . ألا ترى أن النفس لم يقف أحد منها على حقيقة ما هى إلا اختلاف بين العلماء الشرعيين وأهل الطبيعة والذهريّة . والحق إنما يكون فى طرف واحد ؛ فهم يخبطون خبط عشواء وإذا قست على الحق ، فإنما تمجده عند أهل السنة لما بأيديهم من القرآن

(١) سورة الزمر : ٨٧ .

(٢) خرم نحو نصف سطر فى الأصل .

وحديث ارسول — عليه السلام — ، فهم يتكلمون على أصل ، وغيرهم على قياس : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾^(١) .

وترى من الملحدين كثيراً [مَنْ] لا يؤمن بالغيب ويقول : « إِنَّمَا أَعْلَمُ^(٢) ما تُدْرِكُه حواسِّي من حارٍّ وبارِدٍ ورطبٍ ويابسٍ ، وما أدركته بعقليِّ مما كان ؛ ولا أَعْلَمُ ما يكون ، وإِنَّمَا أَنَا أَنُ الْآنُ » . فالرَّدُّ عليه أن يقال له : « أَتُدْرِي بِمَ عَرَفْتَ هذا كله ؟ » سيقول : « بالنفس . وعلمتُ النفس بالعقل الذي هو أرفع الدرجات » . فتقول له : « إِذَا عَرَفْتَ بالعقل ما أنتَ فيه ، لم يكن لك شيءٌ متقدِّمٌ تعرف به العقل ، ولا استطعتُ لنفسك ، ولا علمتها قبل ؛ فتركب فيها عقلاً وتديراً . وواهبُ العقل الذي خلقتك ودبرك كيف شاء ، قادرٌ على أن يميزك ولا يحملك هملاً ، ولم يخلقك عبثاً ؛ ولو أنك تعلم — أيُّها الشقيُّ — أن العقل ، إِذَا جِئْتَ به آيات ربِّك ، كلُّ عليك وحملٌ يوم القيامة ؛ وهو قوله تعالى^(٣) : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ . وقال^(٤) : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ .

وقد أنت الرُّسل بالآيات التي هي خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك في العالم أشدَّ استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثرُ البشر . وقد أمر الله تعالى بالإيمان بما قد غاب عن العقل والقياس ؛ ولا يعجز الله في قدرته على ما يشاء* جاحِدٌ كافرٌ.

٣ (ب)

كقول أهل الطبيعة : إِنِّهَا هِيَ تُدَبِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَإِنِّهَا أَعْلَمُ [مَنْ] كُلِّ

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .

(٢) أصل : « نعلم » .

(٣) سورة الأحقاف : ٢٦ .

(٤) سورة يس : ٧٨ .

علم وأحكم [من] كلٌّ حكيم ؛ فنَجَّع من فعلها في الأبدان ما لا تُدرِكه
 الأطباءُ بِاجتهادها . وقال غيرُهم : « الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شيء لا يُدرى
 ما هو . » فَالْحُجَّةُ عليهم : أهيَ طبيعةٌ واحدةٌ ، أم طبائعٌ كثيرةٌ ؟ بل ،
 سيقولون : « لكلِّ شيءٍ طبيعةٌ ، فأرى أضداداً لا تصحُّ لأحدها إلهيةٌ ،
 ٥ وَغَيْرُهَا مُناقِضٌ لها . وهي كانت حُجَّةُ إبراهيم على قومه ورَدَّه على من قال
 إنَّ الشمس هي حياة العالم دون غيرها ؛ فقال — عليه السلام — : « أرى
 الظِّلَّ يفعل ضدَّ ما تفعله الشمس ؛ والخالقُ لا يُضادُّ ! » فَأثبت الوحدايةَ
 بالحُجَّةِ القاطمة الواضحة .

وقد ذَكَر عن سُقراط ، وكان في زمن جاهليَّة ، أَنَّهُ قال ، بما أوتي من
 ١٠ الحكمة ، مخاطباً البارئ عزَّ وجلَّ : « يا أزل الأزل ! ويا أولَّ الأوائل !
 ويا قديماً ! لم يَزَلْ مِنِّي نَارُكَ لِعَلِّي أن هذه المخلوقات من آثارك ؟ »
 ولم تكن معه فِتْنَةٌ يَتَّبِعُونَهُ على قوله ، ولا يَمُتُّون ما قال ، حتى أمروا
 بقتله .

ولهذا يرجع ما قدَّمنا ذِكْرَهُ أنَّ شرعاً لا يتمُّ بقياس العلماء وخواصِّ الناس
 ١٥ دون الرسالة ، على أَنَّهُ لا يشكُّ ذو عقل أن المخلوقات قد جعلها الله عِللاً بَعْضُها
 لِبَعْضٍ ، ولم يخلقها عَبَثاً ؛ ولكلِّ عِلَّةٍ عِلَّةٌ إلى أن ينتهي ذلك إلى البارئ عزَّ
 وجلَّ ؛ فهو الذي لا فوقه شيء . وهو قول إِفْلَاطُون لموسى — عليه السلام —
 إذ قال له : « يا أخى ؟ رَسولٌ مِنْ أُنْتِ ؟ » أراد استخباره ؛ فقال له موسى :
 « أنا رسولُ العِلَّةِ » . فقال له إِفْلَاطُون : « ما العِلَّةُ ؟ » قال : « لا أدري !
 ٢٠ ولو كنتُ أدري ، لكنتُ أنا العِلَّةُ ! إِنَّمَا أنا مُتَّبِعٌ ! » فقال له إِفْلَاطُون :
 « اذهب وبنِّعْ ما شئتَ ! فالآن صحَّ عندي أَنَّكَ رسولٌ حقٌّ ! »

- وكذلك الجزء لا يُحيط بالكل ، والكل مُحيطٌ بجميع الأشياء ؛ وهو قوله تعالى ^(١) : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۖ ۝ ﴾ .
- وكذلك * أهل الهندسة والعرفة بالنجوم قد علموا أنها مخلوقةٌ مصرفةٌ ؛ (١)
- لما . . . العباد ؛ والعامل منهم يقرُّ بذلك ، غير أنه نُهي عن النظر فيها والاجتهاد فيما نُهي عنه ، إذ ليست عقول أكثر الناس تهتدى إلى الحقيقة ؛
- والتفاسدُ أسرعُ من البنيان ، وأقربُ إلى عقول الناس من الاهتداء . « وَدَعُ مَا يُرِيكَ إِلَى مَا لَا يُرِيكَ » .
- وَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ فِيهَا سَعُودًا وَمَحُوسًا ، إِنَّمَا فِي الْفَلَكَ سَعْدَانٌ وَنَحْسَانٌ ،
- يعنون بها المشتري والزهرة وزُحَل والعريخ ، وتيران ، وهما الشمس والقمر ؛ ولا يصحُّ لعالمٍ أن يتكلمَ عليها إلَّا بمزجٍ بَقِضِهَا بِنَقْصٍ ، فكيف
- يكون لها الحكم ؛ وهي أضدادٌ ، والحَاكِمُ لا يَضَادُّ ، وخالقُ الخير والشرِّ إليه يرجع الأمر كله ؟ وهو مصرفُ الدهور بما يشاء ! لا إله إلَّا هو ،
- العزیز الحكيم !
- وليس في العالم أمرٌ يثبت ؛ وعلى هذا بُنيت الدنيا ، وكذلك الدُّوَل
- والمَلَال : كلُّ يَأْتِي فِي أَوَانِهِ ، وَلَا يَتَعَدَّى وَقْتَهُ ؛ والدِّينُ صلاحُ العالم ،
- ولا عدلٌ إلَّا به ، والمَلِكُ يعضده ويحميه ، وهو قوامُ العالم على ما رتبَ البارئ عزَّ وجلَّ .

٤ - ضرورة التعليم والتجربة

- وأَعْلَمُ أَنَّ الْعَقْلَ مُحْتَاجٌ إِلَى التَّعَلُّمِ ، وَلَا يَسْتَحْكُمُ تَعَلُّمٌ إِلَّا بِتَجَرِبَةٍ ،
 وَلَا تَتَحَكَّمُ تَجَرِبَةٌ إِلَّا مَا كَانَ فِيهَا بَعْضُ التَّكْدِ وَالْإِشْغَافِ ؛ فَالْإِنْسَانُ عَلَى
 مَا ضَرَى عَلَيْهِ وَعَلَى أَنَّ السَّعِيدَ مَنْ أَعْطَى بغيره ؛ لَكِنْ مِنْ شَأْنِ الْإِنْسَانِ
 ٥ التَّسْوِيفُ وَ « لَعَلَّ » وَ « عَسَى » ؛ فَإِذَا أُحْتِيجَ فِي ذَاتِهِ ، أَعْقَبَهُ ذَلِكَ
 بِفِظَةٍ وَحِكْمَةٍ . وَكَذَلِكَ مِنْ أُحْوَجَ إِلَى نَفْسِهِ كَأَنَّمَا لَا يَتَّكِلُ عَلَى غَيْرِهِ .
 فَيَنْبَغِي الْعَاقِلُ أَنْ يَعْمَلَ نَفْسَهُ فِي رِيَاضَةٍ ذَلِكَ ، وَالتَّمَرُّنُ فِيهِ ، إِنْ لَمْ يَحْجُوجْ
 الدَّهْرَ ؛ وَإِلَّا : فَلْيَتَمَبَّ ذَهَنَهُ ، وَيَشْغُلْ بَالَهُ بِالْفِكْرَةِ فِيهِ ، خَوْفًا أَنْ يُضْطَرَّ
 إِلَيْهِ ، وَإِنَّ اللَّعْمَةَ غَيْرَ دَائِمَةٍ . فَإِنْ أَحْتَاجَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَجَدَهَا ؛ وَإِنْ اسْتَعْنَى
 ١٠ عَنْهَا ، عَرَفَ فَضْلَ مَا هُوَ فِيهِ ، وَكَانَتْ لَدَيْتُهُ بِهِ أَشَدَّ تَمَكُّنًا : فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ ؛
 قَدَرَ الْخَيْرِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ . وَإِعْمَالُ الْفِكْرَةِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي كَالْتَجَرُّبِ
 بِهَا : فَإِنَّ الْإِهْتِمَامَ بِمَا لَمْ يَكُنْ بِلَاةٍ فِي النَّفْسِ كَأَنَّ ، وَذَلِكَ الْبِلَاةُ مُؤَدِّبٌ ،
 وَاعِظٌ ، نَافِعٌ ، مُصَحِّلٌ ، خَيْرٌ مِنْ بِلَاةٍ مُوجِعٍ حَالٍ .
 وَقِيلَ : لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ ؛ إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَضَعُهُ اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ .
 ١٥ وَلَا عَذْرَ لِلْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَجْهَلَ عِلْمًا يَلِيقُ بِهِ ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (١) : ﴿ فَسْتَلُوا أَهْلَ
 الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وَمِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الزَّوْءِ تَرْكُهُ مَا لَا
 يَنْبَغِيهِ . وَلَيْسَ كُلُّ مَا حَضَرَ عَلَيْهِ وَنَمَى عَنْهُ عَلَى الْعُمُومِ ، بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ
 حُكْمٌ يَحْسِنُهُ الْعَاقِلُ ؛ وَالْجَاهِلُ لَا يَحْسِنُهُ ، وَإِنْ جَهِدَ جَهْدَهُ .

٥ - التكوين السياسى للمؤلف

وقد كنّا — مَعَشَرَ أَهْلِ بَيْتِ الْمَلَكَةِ — نَرَى مِنْ آكَدِ مَا تَأْدُبُ بِهِ إِعْمَالَ السِّيَاسَةِ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ ، وَالسَّعْيِ لَهَا بِكُلِّ الْوُجُوهِ ، وَإِحْضَارِ الْأُذْهَانِ ، مَا لَوْ أَنَّ الْمُفْرِطَ فِي بَعْضِ ذَلِكَ مِنَّا يَكُونُ أَهْلَهُ النَّاسُ فِي سَائِرِهَا مِنَ الْعُلُومِ ، لَكَانَ عِنْدَنَا نَاقِصًا ، لَا يَصْلُحُ لِهَذَا الشَّأْنِ ، حَتَّى وَقَعَ التَّنَاقُصُ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَتَلْنَاهَا نَحْنُ عِلْمًا لِرِيَاسَةِ أَنْفُسِنَا لَهَا ، وَمَا أَجْرَانَا^(١) عَلَيْهِ آهَاؤُنَا ، وَبَصُرُونَا فِيهِ مِنْ أَوَّلِ نَشَاتِنَا .

١٠ وتلك صناعةٌ وجب تعلّمها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التي منها معاش الناس ، ولا بدّ لهم من إتيانها . ولعمري إنّ الوالى أكثر عِلْمًا وأحسن عَقْلًا : فَإِنَّ جَمِيعَ حَقُولِ النَّاسِ تَعْرِضُ لَدَيْهِ ، وَيَجْرُبُ فِي مَوْضِعِهِ مَا لَا يَجْرُبُ غَيْرُهُ فِي تَقْلُبِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَإِلَيْهِ تَهْدَى الْأَخْبَارُ ، وَيَتَخَاصَمُ النَّاسُ ، وَعِنْدَهُ يَقَعُ الطَّلِبُ ، وَتَرْفَعُ الْحَاجَاتُ ، وَتَقَعُ الْعِنَايَاتُ ؛ فَيَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ يَوْمٍ جَدِيدًا لَمْ يَرَهُ أَمْسًا . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْعَزِيزِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — : « لَسْتُ كَخَبِيرٍ ، وَلَا النَّخْبُ يُخَدَعْنِي ! » وَقِيلَ : « فَلَانٌ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ » . ١٥

قال : « ذَلِكَ أَجْدَرُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ! »

* ولما كان الْمُظَفَّرُ جَدُّنَا — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قَدْ أُوتِيَ مِنَ الدِّهَاءِ وَالتَّمْيِيزِ ٥ (١)

لأحوال الزمان ما لا خفاء به ، وأنه من آكَدِ مَا يَجِبُ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ تَرْشِيحُ

(١) أصل : « أجرونا » .

أَحَدُ بَنِيهِ لِلْوَلَايَةِ بَعْدَهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَمَرِينِهِ وَإِعْمَالِهِ فِي جَمِيعِ خِدْمَتِهِ ، كَيْ يَتَدَرَّبَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيهِ نَفْسُهُ ، كُنْتُ مَعَهُ وَقَدْ أَهَلَّ اللَّهُ لِبِرِّهِ وَالْإِنْصِياعِ لَوْصِيَّتِهِ . فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِي مِنَ الْمَكْتَبِ إِلَى التَّصَرُّفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لِي — نَصَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ — : « مَعَكَ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيكَ ! وَهَذَا أَوَّلَى مَا تَعَلَّمُ ! فَعَلَيْكَ بِإِحْضَارِ ذَهْنِكَ لِجَمِيعِ مَا يَكُونُ مِنِّي وَمَا يَنْتَقِضِي فِي دَوْلَتِي أَيَّامَ هَذِهِ الْفَتَنِ ؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ أَشْرُّ ، وَالْأَيَّامُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تُدْرِكَ تَعَلَّمَ كُلِّ شَيْءٍ يَعْنِي بِهِ الْمُلُوكُ لِأَبْنَائِهِمْ ! »

فَامْتَثَلْتُ حَذَّه . وَأَخَذْتُ نَفْسِي أَوَّلًا بِالتَّوَضُّعِ لَهُ وَابْتِغَاءِ كُلِّ شَيْءٍ يَقَعُ مِنْهُ فِي نَفْسِهِ أَنِّي أَشْرُهُ بِهِ إِلَى تَعْجِيلِ الْوَلَايَةِ أَوْ الْحِرْصِ عَلَى الرِّيَاسَةِ ؛ بَلْ كُنْتُ أَتَأَنَّى لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَخْكُمُ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِ وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ السَّنِّ وَالْعَمَلِ مِنْ وَزَرَاتِهِ ، وَأَنْزِلُ نَفْسِي لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْإِبْنِ ، حَتَّى وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَوْقِعًا ارْتَضَوْنِي بِهِ لِلْخَلَاةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَاتَّفَقَ فِي ذَلِكَ رَأْيُهُمْ مَعَ رَأْيِ الْجَدِّ — رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا نَهَارٌ إِلَّا وَأُسْتَفِيدُ فِيهِ فَائِدَةً مِنْ تَجَرُّبَةِ وَحُكْمَةِ .
وَمَا كُنْتُ أَجْهَلُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، أَجِدُّ لَهُ أَعْوَانًا مِنَ الْوُزَرَاءِ ، يَعْلَمُونَني بِالصُّوَابِ فِيهِ لِقَلَّةِ خِلَافِي عَلَيْهِمْ وَبِرِّي بِهِمْ .

كُلُّ ذَلِكَ [مِنْ] الْأَسْبَابِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ مِنْ أَجْلِهَا وَلَاقِي مِنْ بَعْدِهِ .
وَقَدْ كَانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلُوكَةِ مَنْ يَصْلَحُ لَهَا قَتْلِي ، وَمَعِيَ مِنْ أَخْرَجِيهِمْ وَعَمَّ وَقَرَابَةٍ أَتَوَقَّعُ اسْتِهَاذِهِمْ إِلَيَّ وَتَغْلِبَهُمْ عَلَيَّ ، مَا لَوْ أَنْفَقْتُ مِلْءَ الْأَرْضِ عَلَى كِفَايَةِ شَرِّهِ ، مَا اسْتَطَعْتُ لَهُ . فَكَفَانِي اللَّهُ تَعَالَى مَا كُنْتُ * ه (ب)

أَتَوْعَمُ ، وأراني الخيرة في عاقبة كلِّ أمرٍ كنتُ فيه أكرهه . فنحنُ
جُدْرَاءُ بتعدادِ رِعمِ الله والإنصافِ في شكره ، كما حضَّ الله عليه في
قوله^(١) لنبيِّه — عليه السلام — : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .
وقد كان أبونا سَيْفُ الدولة — رحمه الله — مُرَشَّحًا لِلْمَلِكَةِ ، كثيرًا
حبُّ أبيه له ، وجمعه الأموال من أجله ، وتدريبه عليه بكلِّ وجوه .
وكان — رضى الله عنه — من العقل والكرم وحُسن الخلق والحلم مَشْهُورَ به
في البلاد ، واجتمع عليه محبة العباد . ولم يكن للمظفر جدًّا غيره ؛ فتوفِّي
— رحمه الله — ابنَ خمسةٍ وعشرين عامًا . وسنذكر من أحواله مع سائر
أُمور الدولة ما يَرِدُ بعد هذا إن شاء الله .

٦ — صعوبة الإنصاف التاريخي

وأوَّلُ ما ينبغي تقديمه ذِكْرُ دُخُولِنا الْأَنْدَلُسَ ، وكيفية ولايتنا إِيَّاهَا ،
إلى هَلُمَّ جَرًّا .

فإنه ، متى أَتَيْنَا على خبر يطيب ذِكْرُهُ في هذا التأليف ، للمُعْتَرِضِ
أن يقول : « هذا أَحْسَنُ لو كان على أَصْلِ مُحَمَّدٍ ، وعن ولايةٍ تُرْتَفَضُ ! »
فينطق هَذَرًا دون اختبار ولا إنصاف ، على أن الثناء الحسن لا يقع على الدولة
إِلَّا في مُدَّتِهَا وأَيَّامِ سَعَادَتِهَا ، ولو كانت ظالمةً ؛ فلا يقع فيها الذمُّ إِلَّا بعد
تَوَلَّيْهَا ، ولو كانت عادلةً . والناسُ مع من سبق إِلَّا مَنْ نَظَرَ بعين العدل ،
لا بعين الهوى ؛ وقليلٌ ما هُمُ !

(١) سورة الضحى : ١١ .

ولتَرَى أن لاشيء في العالم يسعد وينحس إلا وكان أحد الأمرين لا يشوبه غيره . ولا يتعلّق بالسعادة إلا كلُّ مستحسن من غير تكدير ، كما أنه لا تشوب المنحسة ما فيه أدنى مرور . وليس مع الإقبال إقبالٌ إلا تمام المدة .

- ٥ ولا يتفق الناسُ أجمع على مدح أحدي ولا على ذمه : فإن رضى العامة أمرٌ لا يدرك ، ولا بدّ للوالى أن يقضى عند حكمه لأحد الخصمين على الآخر ضرورة ؛ فالتقضى عليه انقلب سخطاً ، والتقضى له انقلب راضياً ، وكلاهما يتكلم على شهوة نفسه . فكيف يتفق إجماع العامة على خير واحد ؟
٦ أو مدحه ؟ وإن الله تعالى كان قادراً على أن يسوّى بين [أمور خلقه ، وجديراً ، وإن] كيّفت ، أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات .

٧ - المصادفة وأثرها في التاريخ

مثل المنصور

- وإذا اعتبرت أحوال هذا العالم على شيء من أمر الدنيا ، فإنما تجد كائناً بأرق سبب : فمن بين جاهل مسعود أو حاذق مُسَخَّر . وإذا بَعَثْتَ على ما هو فيه أعين استحقاق تصبر إليه ، لم تختبر من فضله ومقاله شيئاً يشذ عن العالم ، ولا يشف على رأى من تزدريه عينك ، ولأنَّ الجهل في العامة أغلب ، والباطل إلى عقولها أسرع : استعظمت ما هو عند اللبيب حقير ، وتكلمت على ما ظهر إليها ، ولم تنس عليه بعقولها ؛ والله

ما بطن ، وللتناس ما ظهر . ولهذا ترى صاحب التاموس أرفع ذكراً وأطيب نساء ، وإن كان يُرأى .

وقد كان المنصورُ بن أبي عامر ، على دقة شأنه قبلُ ، ولأنه لم يكن من أهل بيت الملكة ، فيستحقها عن الآباء ، ولا كانت به قدرة على الدنيا ، قد حصل على عظام بدهائه ومخترته على العامة ، مع ما هيأت السعادة له (وكان أقوى الأسباب في سلطانه) . وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس كان أعظم الأسباب في سلطانه أو عقاره .

ولولا قيامه بدعوة الخليفة ، وإظهاره الانخضاع له [في جميع ما يأتي ويذّر إلى طاعته وإقامة أودم ، وتوليته الحجابة والوزارة ، وإخاله لأهل الدولة الحكيمة ^(١) ، وتقصيهم بالقتل ، متأولاً في ذلك أن دولته تصفو ^(٢) به ويقوى سلطانه ، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وإيثار الفتن وهلاك المسلمين ، حتى أسق له ما أمل ، وبلغ من ذلك كله الغاية القصوى — ولو أن أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعلق بسبب أو إظهار طاعة ، [لكان قتل] من ساعته ، ولو كان من أهل بيت الخلافة — إلى أن ورث الأمر ابنه من [بعده ، فسار المنصور * بأحسن سيرة وأحمد طريقة ؛ وكانت له في بلاد (ب) العدو فتكات ، نال الإسلام في أيامه عزاً ما كان بالأندلس [مثله] ، وأذل ما كان النصراني عليه .

(١) في الأصل : « الحاكية » .

(٢) أصل : « أن به تصفو دولته » .

الفصل الثاني

الأحداث الممهدة لقيام دولة بني زيري
وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن زيري
وحبوس بن ماكسن

٨ — الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور .

قدوم بني زيري إلى الأندلس وقيام دول الطوائف

وتوقع [المنصور] من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذ كانوا صنفًا واحدًا ، وتألَّبهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ؛ فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسوَّل له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتًا متفرقة : إن همَّ أحدُ الطوائف بخروج عن الطاعة ، غابها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلُّل بلاد العدو وتدوينها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحماة وأبجاده من بلغه فروسيته وشدته . وتسامع الناس بالجهاد ؛ فبادر إليه من شرق المدوة من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصاري ١٠ ما لا خفاء به . وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو ؛ وهم كانوا

العِدَّة في الجيش وللوثوق بهم عند اللقاء ومعتزك الرغاء . وكان من أذهام رأيًا وأبندهم همة زَاوَى بن زِيرَى عُمَا ، وبعده حَبُوسُ بن مَاكْسَن ابنُ أخيه — رضى الله عنهما — ؛ فإلهما كان الرأى وللشورة في الأمر ، والحكم على من دونهم من الأجناد .

فرتب ابنُ أبى عامر الرُّتَب ، وأظهر هيئة الخلافة ، وقمع الشُّرك ، وحضَّ المسلمين عامَّة على الغزو ؛ فعبز عن ذلك رعيَّة الأندلس ، وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة وشغلهم بالغرَوات عن عمارة أرضهم ؛ ولم يكن القومُ أهلَ حَرْبٍ . فقاطعتهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويعطوا من أموالهم كلَّ عام ما يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم . فضرب عليهم الأقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها * عليهم^(١) [وفرض] بينهم مالاً [يرتزق] منه الجيش . فبقيت تلك ٧ (١) الأقطاع عليهم إلى [أن عمت الأندلس] عدَّة الثَّوَار و[اتبعوا] هم على تلك الآثار . [ودأبوا] في ذلك إنما كان على ما وصَّناه .

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم في الناض والطعام واللواشي ، يقسمون ذلك على المساكين بكلِّ بلدة ؛ ولم يكن الوالى يقرب من ذلك إلَّا ما يقيم به الجيش والدولة التى هى قيام العالم ؛ ولولا حماية السلاطين للرعيَّة ، وعزُّ دُولهم ، وذُبُّهم عنهم ، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزٌّ بهم قرارٌ . فكان ذلك كله عن سداد وصلاح وتأوُّل الخير . ولم تزل الأندلسُ قديمًا وحديثًا [عامرة] بالعلماء والفقهاء وأهل الدين ، وإليهم كانت الأمور مصروفة ، إلَّا ما يلزم الملك من خاصَّته وعبيده وأجناده من الأخذ من واحدٍ

(١) وقع هنا وفيما يلى خرم وبعض محو فى الأصل . وأكثناه بما يتفق والمعنى .

وَدَفَعَهُ لآخر ، لينخل بذلك عسكره ويتخير أفضله فيه للمسلمين
كفاية وعدة ، إذ كانت الأموال التي يعطونها من غير أصولهم ، ولا اكتسابهم ؛
إنما كان ذلك من وجه النظر للمسلمين . وأما ما كان بينهم من مظلمة
أو قضية وكل حُكم يرجع للسنة ، فإنما كان لقاضى البلدة .

٥ فلما تمت الدولة العائرية ، وبقي الناس لا إمام لهم ، ثار كل قائد
بمدينته ، وتحصن في حصنه بعد تقديمه النظر لنفسه ، واتخاذ المسافر ،
واذخاره الأموال ؛ فتناقصوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الآخر .
وكذلك لا يصح أمر بين نفسين ؛ فكيف سلاطين كثيرة وأهواء
مختلفة ؟ إلا الله من كان ظالماً منهم يتعدى . . .
١٠ للقدر* الذى شاء ربنا لا شريك له .

٧

٩ — استقرار بنى زيري في البيرة بناء على طلب أهلها

فلما رأى سلاطين صنهاجة وبنو زيري اقتطاع كل أمير في بلد نفسه ،
وذهاب ما كانوا عليه من عز وأثر ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز
إلى العدو ، ليرجعوا إلى مستقرهم . فانمقدوا على ذلك بعد أمور يطول
١٥ ذكرها ، وظهور فساد كثير أضربنا عن إirاده كله ، إذ كان مقصدنا
وصف دولتنا خاصة . ولا بد من ذكر لمع من غيرها عند الاحتياج إليه .
وكان أهل البيرة في بساط من الأرض ، وكان بهم من الفس بضعهم
لبعض ما إن الرجل منهم ليتخذ بإزاء داره مسجداً وحماماً فراراً من جاره ،
ولا يرجون إلى طاعة ولا حكم وال . وكانوا مع هذا من أجبن الناس

وأخوفهم على مدينتهم ، لا يستطيعون على قتال أحد ، ولو كان الذئباب ،
إلا بمن يحميهم ويذب عنهم . فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس ،
وأنها أضمرت ناراً ، وتوقعوا أن يتخططهم الناس ، وجَّهوا إلى زاوى المذكور ،
شاكين مما هم فيه ، ويقولون : « إن كنتم جاهدتم قبل اليوم ، فهذا
الجهاد آكد عليكم : أنفسكم تحيونها ، ودياركم تحمونها ، وعزة تأوون إليها
ونحن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا : لكم من الأموال والسكنى ، ولنا
منكم الحماية والذب عنا ! » .

قبل القوم قولهم . واغبطوا بمكانهم ، واستبشروا باستفتاح البلدة
لغيرها ، و . . . أنفسهم من الغدر لتشتتهم ورجوع أمرهم كله إليهم دون
فتنة [تحميمهم] ، ولا جماعة يتوقع غضبها . فأتوهم محتشدين منالّفين ،
قد انقطع إليهم كل من انتهى من البربر وتعلق بهم . ونزلوا ساحتهم ،
وحيوهم بالثحف والأموال ، وتاركوهم أحسن مشاركة ، راضين بهم
لا ساخطين . واستجابت لهم عند ذلك معاقلة كثيرة ، منها جيان وأنظارها ،
وحسن آشر* من الغرب .

(١)٨

فلما طاعت لهم البلاد ، اجتمع رأيهم على أن يتقارعوا عليها ؛ وكانت
عادة في البربر ، كنى لا يأنف أحدكم مما يصير إلى أخيه . فرجعت
إلييرة في قرعة زاوى ، وحسن آشر مع جيان في قرعة حبوس ابن أخيه
جدنا — رحمة الله عليهم — . وتعاقد جميعهم على أنه ، إن طرق العدو
جهة صاحبه ، يكون الآخر يحميها بنفسه ورجاله .

١٥

١٠ — ردّ الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري

اختطاط غرناطة

فلما بصر بفعلهم ثوار الأندلس ، جزعوا منهم ، وحذروا أن تقوى شوكتهم ، فيطرقهم ويحصلوا على بلادهم ، لما اختبروا من شدّتهم ورأيهم .
 ٥ فاجتمعوا على منازلهم وقصدتهم إليهم بأحشادهم ، كراهية توطيدهم بذلك المكان ويُفَضِّهم لأنفسهم . وقدموا على أنفسهم إنساناً سموه بالمرتضى ، زعموا أنه قرشي ، كنى يستهلوا بخلافته عامة الناس ، ويرجع أمرهم إليه . ونزل الجمع على مقربة منهم .

وكان قبل ذلك ، لما بلغهم احتشادهم وتآلبهم ، جمعوا أهل البيرة المذكورة وقالوا لهم : « نحن لم نأت لفساد دياركم ، ولا قهرناكم على استيطانها ؛ وإنما كان ذلك على اختياركم لنا . وهذه الفئات مُقْبِلَةٌ لطلبنا : فإن استوثقنا منكم ، دافعنا عنكم ؛ وإن كانت الأخرى ، فأعلمونا : نمض عنكم على أجل وجه . فلن نعلم الخير بسيوفنا ! » فأجابهم القوم : « اثبتوا في قتال عدوكم والدفاع عنا وعن أنفسكم ! فنحن رعييتكم الطائفة وأسيافكم القاطعة ! » فقال لهم زاوي بن زيري : « إذا كان هذا رأيكم ، فأرى من الصواب أن نرحل عن هذه المدينة ، ونختار لأنفسنا فيما يقرب منها مَقْلًا نأوي إليه بأهالينا وأموالنا * والحربُ ٨ (ب) سبَّال . . . (١) يصيب عندها ولا يصاب ؛ فقد يُظنُّ عجزاً ! وقد أمر

(١) غرم في الأصل .

النبي — عليه السلام — عند احتشاد المشركين على المدينة أن يُخَنِّدُوا حَوَالَيْهَا ، وَسَنَ الْحَزَمَ ، مع مَدِّ الْوَحْيِ لَهُ ؛ فَكَيْفَ نَحْنُ ؟ »

وقالوا لأهل الْبَيْرَةِ : « لَسْنَا نَكْلِفُكُمْ^(١) مِنْ الْأَمْوَالِ مَا نَسْرَعْتُمْ بِهِ ، إِلَّا أَنْ تَنْفِقُوهَا فِيمَا يَخْصُصُكُمْ مِنْ تَقْوِيَةِ مَدِينَتِكُمْ بِمَحْشُودِ رِجَالٍ مِنْكُمْ ، تَنْفِقُونَ عَلَيْهِمْ لِيَكُونُوا بَهَا لَكُمْ أَعْوَانًا : تَصْرِفُونَهُمْ حَرَسًا وَجَوَامِيسَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَنَحْمِلُونَ مِنْ تَرْفُونِ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ عَلَى الْجُنْدِيَّةِ ، أَوْ تَبْنُونَ لَأَنْفُسِكُمْ سُورًا يَتَوَقَّعُ بَتَرَكِهِ ثَلَاثَةٌ تَدْخُلُ بِهَا الدَّخَالَةُ عَلَيْكُمْ . وَأَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا يَخْصُنَا نَحْنُ ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَمْ نَأْتِ الْأَنْدَلُسَ إِلَّا وَأَجْلَبْنَا مَعَ أَنْفُسِنَا مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَا نَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى أَحَدٍ ، بَانِينَ عَلَى الْإِقَامَةِ إِنْ اضْطَرَّرْنَا إِلَيْهَا ؛ وَلَمْ نَأْتِهَا مِنْ فَاقَةٍ وَلَا مَعَايَةٍ ؛ إِنَّمَا جُئْنَاهَا رَغْبَةً فِي الْجِهَادِ ، وَأَنْ تَكُونَ كِفَايَتُنَا الَّتِي شَهَرْنَا بِهَا عَلَى الْعَدُوِّ دُونَ سَائِرِهِمْ ، وَأَنْ تَقَى بَاقِي أَعْمَارِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، إِلَى أَنْ دَفَعْنَا الْأَقْدَارَ إِلَى مَا تَرَوْنَ . وَنَحْنُ لَمْ نَطْلُبْ أَحَدًا ، وَلَا تَعْدِيْنَا عَلَى بَشَرٍ ! وَهَوْلَاءُ بِأَعْوَانٍ مَتَطَاوِلُونَ . وَمَنْ ؟ مُبْنِيَّ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ^(٢) » ؛ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ وَأَهْلِهِ ، فَهُوَ شَهِيدٌ ! »

١٥ فرضى القوم من قولهم ، وزاد ذلك فيهم رغبةً . وَاتَّفَقَ رَأْيُ الْجَمِيعِ أَنْ يَخْبِرُوا لَأَنْفُسِهِمْ جَبَلًا مُنِيفًا وَمَعْقِلًا شَاخِحًا ، يَبْنُونَ فِيهِ دِيَارَهُمْ ، وَيَرْحَلُونَ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ ، وَيَحْمِلُونَهُ الْقَاعِدَةَ ، وَيَخْرِبُونَ لَهُ الْبَيْرَةَ الْمَذْكُورَةَ
.....^(٣) فَوَقَعَتْ أَعْيُنُهُمْ عَلَى بَسِيطٍ جَمِيلٍ ، قَدْ جَمَعَ الْأَنْهَارَ وَالْأَشْجَارَ ؛ ٩ (١)

وَجَمِيعٌ مَا يَلِيهِ مِنَ الْبَلَدِ كُلِّهِ يَنْسِقُ مِنْ وَادِي^(٤) شَلِيلٍ لِلْمُنْحَدِرِ مِنْ جَبَلٍ

(١) أصل : « نَكْلِفُوكُمْ » . (٢) سورة الحج : ٦٠ . (٣) نَحْمِلُكُمْ

سَطْرَيْنِ فِي الْأَصْلِ . (٤) أصل : « وَادٍ » .

شَلْتَر . وبصروا بالجليل الذي فيه الآن مدينةُ غَرْنَاطَة مَوْسُطَة لِلْبَلَد كُلِّهِ :
 الْفَحْصَ أَمَاتَهُ ، وَجِهَتِي الزَّائِيَةَ وَالسَّطْحَ بِجَنْبَيْهِ ، وَنَظَرَ الْجَبَلَ وَرَاءَهُ .
 فَأَفْتَنَهُمُ الْمَكَانَ ، وَعَمَلُوا عَلَيْهِ كُلَّ حَسَابٍ ، وَرَأَوْا أَنَّهُ فِي وَسْطِ النَّعْمِ وَجُودِ
 الرِّعَايَا ، وَأَنَّ الْعَدُوَّ ، مَتَى نَازَلَهُ ، لَمْ يُطَقْ لَهُ إِحْصَارٌ ، وَلَا مَنَعُهُ دَاخِلًا
 ٥ وَلَا خَارِجًا الْبَتَّةَ ، فِي كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْمُرَافِقِ . فَشَرَعُوا فِي
 بُنْيَانِهِ . وَتَوَلَّى كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِقَامَةَ دَارِهِ مِنْ أُنْدَلُسٍ وَبَرْبَرٍ . وَخَرَبَتْ
 عِنْدَ ذَلِكَ الْبِيرَةَ .

١١ - خروج المرتضى لحرب بنى زيري وهزيمته

فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مَدَّةً يَسِيرَةً قَبْلَ أَنْ يَسْتَكْمَلَ الثُّبَيَّانَ ، فَإِذَا بِالطَّوَّافِ
 ١٠ الْبَاغِيَةِ قَدْ أَقْبَلَتْ طَامِعَةً مُتَأَلِّفَةً ، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ ، عِنْدَ وَصُولِهِمْ ، لَا تَرْتَفِدُ
 لَهُمْ سَاعَةً . وَقَدَّمُوا كِتَابًا إِلَى زَاوِيٍّ لِلذِّكْرِ ، يَأْمُرُونَهُمْ - بِزَعْمِهِمْ -
 بِالْخُرُوجِ أَمَاتَهُمْ عَلَى الْأَمَانِ ، وَأَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْبَقَاءِ ، وَلَا يَتْرَكُونَهُمْ بِذَلِكَ
 الْمَوْضِعَ : يُتَبَلَّوْنَ بِذَلِكَ الْعَذْرَ عِنْدَهُمْ ، إِذَا ظَفَرُوا بَعْدَ هَذَا ، أَنْ لَا يَقْبَلُوا
 لَهُمْ عَثْرَةً .

١٥ فَلَمَّا قُرِئَ عَلَى زَاوِيٍّ كِتَابُ الْمُرْتَضَى الْمَقَامَ لِهَذَا النَّامُوسِ ، جَمَعَ
 رِجَالَهُ ، وَخَاطَبَ ابْنَ أَخِيهِ حَبُوسًا ، يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ؛ فَأَتَى فِي جَمِيعِ
 عَسْكَرِهِ ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، غَيْرَ مُجَانِبٍ لَهُمْ ، وَلَا مُتَكَاِمٍ مِنْهُمْ .
 وَاجْتَمَعَ بَغَرْنَاطَةَ مِنْ صِنْهَاجَةٍ دُونَ الْأَلْفِ مِنْ خَيْرَةِ الْخَيْرَةِ ؛ وَكَانَتْ الطَّوَّافُ
 الْبَاغِيَةِ فِي نَحْوِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَلْفِ فَارِسٍ .

٢٠ فَأَمَرَ زَاوِيٍّ لِلذِّكْرِ [بِكَتَبِ الْجَوَابِ مِنْ] إِمْلَائِهِ ، وَقَالَ لِلْكَاتِبِ :

« لَا تَزِدْ شَيْئًا عَلَى مَا أَمَّلِي عَلَيْكَ ! * اَكْتُبْ : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى ٩ (ب) زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ١٠ ﴾ .

فلما ورد الجواب عليهم ، عجبوا من دهائه ، وقالوا : « إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَأْبَ الطَّاعَةَ لَنَا ، إِلَّا أَنَّهُ وَاثِقٌ بِنَجْدَتِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ ، أَوْ مُوَطَّنٌ عَلَى الْمَوْتِ ، أَوْ مُعْجَبٌ بِحَيِّئٍ ! » فَرَحُّوا إِلَيْهِ .

وهشَّ القومُ إِلَى مُلَاقَاتِهِمْ . فَأَمَرَهُمْ زَاوَى بِالثَّبُوتِ وَتَرَكَ الطَّيِّشَ ، حَتَّى يَبْدُو لَهُ مَا هُمْ فِيهِ . فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : « لَا خَيْرَ لَنَا فِي غَيْرِ مُلَاقَاتِهِمْ ، إِذْ قَدْ أَيقَنَّا بِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُنَا مَعَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا الظُّفْرُ بِهِمْ أَوْ الْمَوْتُ عَلَى أَيْدِيهِمْ . وَلَا مَهْرَبَ لَنَا فِي الْأَرْضِ دُونَ قِتَالِهِمْ ! إِنْ بَقِينَا ، لَمْ يَبَارِحُونَا ، وَأَحْصَرُونَا ١٠ مَعَ رَعَايَانَا إِنْ لَمْ يَرَوْا مِنَّا دِفَاعًا عَنْهُمْ ! فَإِنَّمَا هَلَكٌ وَإِنَّمَا مُلْكٌ ! وَإِنْ مَوْتَنَا فِي مُلَاقَاتِهِمْ ، بَعْدَ إِبْلَاءِ الْعِذْرِ ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَطْلُبِهِمْ عَلَى مَدِينَتِنَا ! »

فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ جَرِيئَةً وَعَلَى الْمَوْتِ مُوَطَّنَةً ، وَقُلُوبٌ حَنِيقَةٌ وَالْمَوْتُ طَالِبَةٌ . فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَصَفْقَةٍ بِالْكَفِّ عَلَى الْكَفِّ حَتَّى وَلَّوْهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَانْهَزَمُوا أَمَامَهُمْ مَذْعُورِينَ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِحِشَاةِ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَلْوِي مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى صَاحِبِهِ . وَاتَّبَعْتَهُمْ صِنْهَاجَةٌ ، وَانْبَسَطَتْ عَلَيْهِمْ أَيْدَى الْبَرَبِ ، ١٥ يَقْتُلُونَ مِنْهُمْ نَهْمَةً أَنْفُسَهُمْ ، وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ وَمَا تَرَكَوهُ مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ مِنْ ذَلِكَ أَيْدِيهِمْ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الْوَقْعَةُ أَوَّلَ ظَفَرِ ثَبَتُوا بِهِ فِي أَوْطَانِهِمْ . وَهَابَهُمُ النَّاسُ ، وَانْقَادَتْ لَهُمُ الرِّعَايَا . وَتَوَطَّدَ مُلْكُهُمْ بِغَرْنَاطَةِ ، وَطَاعَتْ لَهُمْ أَكْثَرُ بِلَادِ ٢٠ أَعْدَائِهِمُ الْمُزَوِّمِينَ .

١٢ — رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً

وإنَّ زاوي بن زيري ، لما بصر بهذه الحال ، ورأى تألَّبَ أهل الأندلس عليهم وبُغْضهم لهم ، عمل بذلك فِكْرته وقال : « قد علمتُ وأيقنتُ أنَّ هذا يكون * دأبهم أبداً ، وإن كُنَّا قد مُتَحْنَا الظفر في أوَّل صَفقة ، لم نَأْمَنهم على أنفسنا وديارنا كلَّ حين ! وهُم ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ ، خَلَفَهُ أَلْفٌ ، مع مِثْل جنسِيَّتهم من الرعايا إليهم ؛ فتكون الزيادة فيهم والتقصانُ مِنَّا ! ولا يموت لنا نَحْنُ أَحَدٌ ونُخْلِفُهُ أَبداً ! » فنظر من المكان بعين الحقيقة ، وزَهَدَ فيه ، مع ما عَلِمَهُ من وفاة باديس بن المنصور ، والِدِ المِعْزِ ، مَلِكِ القَيْرَوَانِ ، وأنَّ ابنه وَلِيَ طِفْلاً صغيراً ؛ فشرحت نفسه إلى تلك الولاية ، وعزم على النهوض إليها ، للقَدَرِ الذي قَدَرَهُ اللهُ من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه .

وكان لزاوي بَنُونَ ، يعدل كلُّ واحد منهم بيَدَه مائة فارس في نجدة وقوَّة بأسه ورأيه : منهم بُلْقَيْن بن زاوي . فأعاب هذا الرأي على أبيه ، وقال له « بَنَيْتَ لَمِيرِكَ ، فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير ! لا تترك حاضراً لغائب ! واثبتْ بمكانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقَّة وإشرافٍ من نفسك على الملاك ! » فقال زاوي : « نستخلف على المدينة من شيوخ تلكانَةِ الموثوق بهم في المِهْمَاتِ مَنْ يَثِقُهَا ، وينوب منابى فيها ، حتَّى أباشِرَ بنفسى حال القَيْرَوَانِ وكَيْفِيَّةَ دَوْلَتِهَا . فإنَّما أن يتهيأ غَرْضُنَا ، وإلا انصرفنا إلى مرَّكَزْنَا » .

٢٠ فتهيأ للسير على سبيل المشاركة للمِعْزِ ، وأن يكون له بالأندلس عُدَّةٌ

- وعبدًا ، وما أشبه ذلك مما يُستعمل في المَشَارَكَاتِ واتِّصال الأيدي على
المِهْمَاتِ . واستَحْلَفَ من استَحْلَفَه من الشيوخ ألا يدخلوا^(١) عليه دَاخِلَةً
ولا يُسلموا^(٢) من أحواله شيئاً لابن أخيه ولأحدٍ من خَلْقِ الله ، * يُريهم ١٠ (ب)
في مسيره^(٣) النظر لهم والسعى فيما هو خيرٌ من موطنهم ذلك .
- ثمَّ خرج عن البلدة كأنه يُقاد قوداً ؛ فلم يخرج منها بمرحلة إلا وكُتِبُ
مُسْتَحْلَفِيهِ سَائِرَةً إلى حَبُوسِ بن مَأكَسَن ، يسفّهون رأى زاوى ويقولون
له أن يُعَجَّلَ بالقدوم إلى البلد ، وأنه أَحَقُّ بولايته من غيره ، قيل أن
يطمع فيه من لا يرضونه ، أو يَشْرَهَ إليه من فَغَرَ فَأَهْ إليه بزوال زاوى
عنه . فلم يتأخَّرَ عنه إقبالُ حَبُوسِ . وتَلَقَّته^(٤) صِنْهاجة بالطاعة والافتقاد
لملكه . ١٠ وسمع بخبره زاوى ، وهو في طريقه على مقربة من غرناطة ؛
وندم على ما كان منه . ولأَمَهُ وَلَدَهُ على ذلك .
- ويُذَكَّرُ أَنَّهُ ، لما وصل إلى القَيْرُوانِ ، وأَحَسَّ بِمَذْهَبِهِ بعضُ وزراء المَعْرِزِ
تكرهه وخافوا دواخله عليهم ، وأن يكدر ما صفا . ورأوا أن ولاية المَعْرِزِ
على طفولتيته ، وعيشهم معه ، وتحكُّمهم عليه ، أَخَفُّ عليهم من تَوَلِيَةِ داهيةٍ
مثل زاوى ، لا يملكون معه من قِطْعِير . فَدُسَّ إليه مَنْ سَقَاهُ السُّمَّ . ومات
بتلك البلاد . ١٥

١٣ — إمارة حَبُوسِ بن مَأكَسَن

وصفاً الأمرُ لحَبُوسِ بن مَأكَسَن ، وسار بأجمل سيرة وأعدل طريقة .
وصرف أحكامه أجمع إلى قضاة البلاد ، وتعفّف عن كلِّ شيء ؛ وَجَعَدَتْ

(١) أصل : « يدخلون » . (٢) أصل : « يسلمون » . (٣) أصل : « مسيره » .

(٤) أصل : « وتلقوه » .

يَدُّهُ عَلَى الْحَرَامِ وَالْأَمْوَالِ . فَأَحْبَبَهُ النَّاسُ ، وَأَمِنَتْ مَعَهُ الشُّبُلُ ، وَقَلَّ
الْقِسَادُ ، وَارْتَفَعَ الْجَوْرُ .

وكان الرجلُ مُحِبًّا فِي أَقْرَبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ ، لَمْ يَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ .
وَقَسَمَ عَلَيْهِمُ الْبِلَادَ . وَأَمَرَ كُلَّ قَائِدٍ أَنْ يَنْتَخِبَ مِنَ الرِّجَالِ عِدَدًا يَلِيقُ بِهِ
وَمَا يَكُونُ عَلَى قَدْرِ مَا أُعْطَاهُ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَأَنْهَى إِلَيْهِمْ : « إِلَّا فَائِدَةً
تَفِيدُونِي بِهَا تُنْفَعُ عِنْدِي مِنْ مَالٍ أَوْ تَحْفَظُ غَيْرَ الْاسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَجْنَادِ ؛ فَمَتَى
دَعَوْتُ * أَحَدَكُمْ لِمِهْمَةٍ ، وَبَصُرْتُ عَسْكَرَهُ أَكْثَرَ عِدَدًا وَأَجُودَ خَبِيرَةً ، ١١ (١)
فَذَلِكَ الْأَثِيرُ عِنْدَنَا ، وَالْحَظِيُّ لَدَيْنَا ! » فَسَارَعَ الْأَجْنَادُ إِلَى الْإِثْقَةِ ، وَزَادَ
الْجَيْشُ فِي أَيْتَامِهِ ؛ وَقَامَتْ هِمَمُ الرِّجَالِ عَلَى سَاقٍ ، وَتَنَافَسُوا عَلَى خِصَالِ
الْحُرُوبِ وَمَقَاطِعِ الشُّجْعَانِ . ١٠

وكان بنو عَمِّهِ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ سُلْطَانًا فِي نَاحِيَّتِهِ ، قَدْ حَازَ جِهَتَهُ
وَإِنْفَرَدَ بِعَسْكَرِهِ . وَكَانَ حَبُوسٌ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لَا يَنْفَرِدُ بِرَأْيِ دُونِهِمْ ،
وَلَا يَقْطَعُ مَقْطَعًا إِلَّا بِمَشُورَتِهِمْ ، حَتَّى إِنْهُمْ لِيَجْتَمِعُونَ مَعَهُ لِلْحُكْمِ فِي مَوْضِعٍ
خَارِجٍ قَصْرَهُ دُونَ السَّيْرِ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ اسْتِحْسَانًا مِنْهُ ، كَيْ لَا يَحْصُلَ عَلَيْهِمْ
مَا يَفِيقُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْهُ ذِلَّةٌ وَلَا مَا يَنْقُمُونَ عَلَيْهِ . وَكَانَ رَفِيقًا بِهِمْ ، مُحْسِنًا
إِلَيْهِمْ ، مُؤَلِّفًا لِكَلِمَتِهِمْ . وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنْ صُنِّهَاجَةٌ عِنْدِي مِثْلُ
الْأَسْنَانِ فِي الْفَمِ : إِنْ عَدِمْتُ مِنْهُمْ وَاحِدًا ، لَا نَخْلُفُهُ أَبَدًا ! » فَكَانَتْ
لَهُ بِهِمُ الصُّوْلَةُ عَلَى النَّاسِ وَالْإِسْطَالَةُ عَلَى الْعَدُوِّ . وَمَا كَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَرَى
تَرْكَهُ غَنِيمَةً وَالسَّلَامَةَ مِنْهُ مِنْ أَعْظَمِ الْفَائِدَةِ ، فَضْلًا أَنْ يَطْمَعَ فِي شَيْءٍ
٢٠ مِنْ جِهَاتِهِ ، أَوْ تُحْدِثَهُ نَفْسُهُ بِغَزْوِ بَعْضِ بِلَادِهِ .

١٤ - المؤامرات التى دُبِّرَت لإسناد الإمارة

إلى يَدَيَّر بن حُباسة .

موت حُبوس

وكان لِحُبُوس بن مائِسن - رحمه الله - ابنٌ أُخَر يُعَرَفُ يَدَيَّر
 ٥ ابن حُباسة . وكان عنده آثَر من وَلَدِه ، لِذَئى كان يَرى من نِباهتِه ،
 وإِقْبالِه على قِراءة الكُتُب ومُجالِسة الفُقهاء ؛ وهو الذى كان يلقى به
 الرُّسُل ، ويصرفه فى المُهمَّات . وكان باراً بِحُبُوس وبجميع أهل المملكة .
 وكان من أَحَبِّ الناس فيه كاتِبُ حُبُوس للعُروف بأبى العباس ، لِإِيا يَرى
 من تواضُعِه وحُسن مُشاركته فيما عَنَّ له من سَبَب . وطار له بذلك نامُوسٌ
 ١٠ كَبيرٌ عند* صِنهاجَة حتَّى أَكثَرُوهُ على غيرِه .

١١ (ب)

وكان بِاديس بن حُبُوس جَدُّنا - رحمه الله - كَبير النفس ، عالى الهِمَّة ،
 حادِّ اللِّزاج ، لا يَستطيع أَحَدٌ [أن] يَمخُرقَ عليه فى أمرٍ من الأمور ، ولا يَنكسر
 لِأَحَدٍ من بَنى عَمِّه ، رِقَّةً منه بِسعادته ؛ وإنَّ الانخِضاعَ والتَّريضَ فى القولِ
 لا يَفيِنِه ذلك ولا يَزِيدُ فى أَيَّامِه . وكان ذلك كُلُّه منه فى حِزمٍ ورَويَةٍ ،
 ١٥ لا يَفسد جانباً حتَّى يَصلحَ آخَرَ ، ويضربُ بَعْضُهم بَعْضُ . فوجِست أنفُسُ
 البَعضِ منه ، وأُشْرِبوا هَيبَتَه وخِفافَتَه ، وتوقَّعوا ، إن صار الأمرُ إليه ، أن
 يَجربَهم على خِلافِ ما عَهدوه من أَمْرِهِ . فَأَضْمَرَ أَكثَرُهم لَهُ التَّوائِلَ ، وآثَرُوا
 عليه يَدَيَّرَ المَذكور ، وتمنَّوا بولايَتِه : كُلُّ ذلك لِشَقائِهِم وتَمامِ أَيَّامِ سعادَتِهِم !
 وَصِغَتُ المُظفَرِ بِاديس - رحمه الله - يَصِفُ بَعْضُ ذلك فى مَجلِسِه

ويقول : « كنتُ واقفاً بين يدي حَبُوس أبي — رحمه الله — حتى انتدبَ إليه من شيوخ صِنْهَاجَة من قال له : « إنَّ من آكَدِ ما تنظر فيه أن تولَّى على أمرِكَ مَنْ يَخْلُفُكَ مَنْ تُرْجَى بَرَكَتُهُ للمسلمين ولبنى عمِّكَ ! فإنَّ الموت يغدو ويروح ! » قال أبو العباس كاتبُهُ : « ليس يصلح لهذا الأمر إلا يَدَيْر ، لطهارته ، وعفافه ، ومحَبَّتَه في الناس ! » وكان في الجُمْلَة من شيوخهم صديقٌ لى اسمُهُ فِرْقَان ، قد اصطنَعْتُهُ واستمَلْتُهُ ؛ فسمعتُ رَدَّهُ على أبي العباس ، وهو يقول له : « ما ينبغي لك أن تتكلَّم بهذا ! كيف يُقَدِّم للأمر غَيْرُ ابنه ، وهو مستطلعٌ بجميع الأمور ؛ وقولُكَ أنتَ وقولُ غَيْرِكَ باطلٌ أكثَرُ ، والله ، أرى موتَ حَبُوس وولايةَ باديس من بعده ، وإنَّ يَدَيْرَ سيتحاطق على باديس ، ويظفر به ، ويقتله ! » قال باديس : « فسرَّني * كلامُهُ ، وأعطيتُهُ عليها ألف دينار . »

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقَان . ثمَّ إِنَّهُ اطَّيَّبَ من وجوه صِنْهَاجَة أقواماً ، ووعدهم بالإحسان ، وسعى بجهدِهِ على حلِّ تلك الصِّفْقَة ، إلى أن كلَّموا أباه في توليته . فرضى ذلك ، وأمر الناس بانصياعهم له . وزجر يَدَيْرَ في ملاٍّ من الناس ، وقال له : « لا تشره ما ليس لك ، يا ابن حُباسة ! » يُخاطِبُهُ بهذا اللفظ .

فوقع من ذلك في نفس يَدَيْرَ عدواةٌ مجددةٌ لباديس ؛ وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكابرتِهِ وإجماع الجماعات عليه ، وشَتَّتْ أقواماً من صِنْهَاجَة ، حتى صاروا معه . ووَالَى بُلُقَيْن شقيقَ باديس — رحمهما الله — ؛ وكان من أهل البأس والنجلة ، غير أَنَّهُ لم يكن له معرفةٌ بسياسة المُلْك . ولما رأى بعضُ أصحابه موالاتَهُ لِبُلُقَيْن وسَعْيَهُ له في ظاهر الأمر ، لامَهُ على

ذلك ، وقال له : « إن كنت لا تسعى لنفسك ، ويكون من سعيك لغيرك ما نرى^(١) ؛ فباديسُ أحقُّ بذلك ، الذى هو الأكبر والأبعد ، وله الرياسة ! » فكان جوابه لقائل ذلك : « ليس سعى لبُلُقَيْن إيثاراً منى له على نفسى ، غَيْرَ أَنَّهُ صَحِيحُ النِّيَّةِ ، غَيْرُ حَازِقٍ بِمَكَائِدِ الْمَلِكَةِ ؛ وَهُوَ شَقِيقُ الَّذِي أُطْلُبُ ، وَلَنْ أُجِدَ لَطَلْبِهِ أَقْدَرُ عَلَى ضَرِّهِ مِنْ أَخِيهِ ! فَإِنَّمَا أَنَا أَصِيدُ بِهِ ! فلو اتَّسَقَت لى الأمور ، وَتَهَيَّأَ قَتْلُ بَادِيسٍ عَلَى يَدَى أَخِيهِ ، كَانَ أَمْرُ بُلُقَيْنٍ مِنْ بَعْدِهِ هَيِّنًا ، وَخَلَعُهُ مُمَكِّنًا ! »

فكان أَبَدًا يَحْضُهُ عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ ، وَيُرِيهِ السَّعَى لَهُ . وَكَانَ الْأَخُ فِي ذَلِكَ مُتَعَبِّئًا فِي أَمْرِهِ مُشْفِقًا عَلَى أَخِيهِ ، إِلَى أَنْ تُوُفِيَ حَبُوسَ بْنِ مَآكْسَنَ - رَحِمَهُ اللَّهُ . ١٠

(١) أصل : « نروا » .

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

(١) من أوليتها إلى موت ابن نغالة

١٥ — أولية إمارة باديس بن حبوس
وتعاظم الوزير اليهودي أبي إبراهيم

وولى الأمر من بعده جدنا باديس — نصر الله وجهه — فحاول
أموراً كباراً ، وشقّى* مع كل أمة : صنهاجة يطلبون مكانه مع يدّير ، ١٢ (ب)
وسلاطين الأندلس يرمون بلاده ؛ وهو فى ذلك كله حسن السياسة ، صبور
على الأذية .

وكان أبو إبراهيم اليهودي كاتباً بين يدى أبي العباس كاتب حبوس .
ولما توفى أبو العباس المذكور ، وترك ينين ، أقام حبوس — رحمه الله —
أكبرهم عوضاً من أبيه ، واستعمله مكانه . وكان فى الابن صبوة لا يرتبط
معه إلى خدمة الرئاسة ؛ ففكر به أبو إبراهيم اليهودي ، ولزم خدمة الرئيس ،
١٠ وصار ، متى عاب ولد أبي العباس ، يحضر أبو إبراهيم ؛ فيسأل عنه حبوس ؛
فيقول ، معتذراً فى الظاهر ومطالباً له فى الخن القول : « ولد أبي العباس ،

كما ترى ، صبيٌّ يؤثِّر الراحة ؛ وأنت جديرٌ بالإغضاء عليه وإقامة عنده . وأنا عبده ، أنوبُ منابه ؛ فمرّني بما شئتُ : يَهَيِّأْ ذلك ! » فلم يزل على هذا أبداً حتّى تمكَّن ، وظهرت خدمته وسعيه في ضمِّ الأموال .

٥ وكان مع هذا قد ميّز عن باديس سعادته ودعائه ؛ فافترض السّقى له والتّخديم لإرادته ما دَامَ أمكنه ذلك ، في وقت اللّواوين له والقاعين عليه ، للذي قدّر من أيتامه معه .

فلما اتّفق أعداؤه مع يَدَّير عليه ، شاركوا في ذلك أبا إبراهيم ، واجتمعوا في منزله ، يرومون قتل باديس وإقامة يَدَّير ، وعَدَم على الاجتماع عنده . وتقدّم إلى باديس ، وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال له : « ليس الخبر كالعيان ! اسمع بأذنك وعِ بقلبك ! » وهو بموضع مرتفع على البيت الذي يرومون فيه عملهم ؛ وأبو إبراهيم في ذلك كَلَّه يقول عند محاورتهم كالخطيب للباري : « يا مَنْ يَرَى ولا يَرَى ! » وهو يعنى بذلك باديس جدّاً الذي يَرَاهم ولا يَرَوْنَه . فشكر ذلك باديس* لأبي إبراهيم ، ١٣ (١) وأيقن بثقته وأمانته . وصار له خادماً من ذلك النّهار ؛ وشاوره في أكثر رأيه مع بني عمّه .

وكان في اليهوديّ من الكيس والمُدّارة للنّاس ما طابَقَ الزّمان الذي كانوا فيه والقوم الذين يرومونهم . فاستعمله لذلك استيحاءاً من غيره ، ولمّا كان يَرَى من طَلَبِ بني عمّه له ، ولأنّ هذا يهوديّ ذِمِّيٌّ ، لا تشره نفسه إلى ولاية ، ولا هو أنْدَلُسِيٌّ ، فيتّقى منه إدخالَ داخلٍ مع غير جنسه ٢٠ من السلاطين ، ولاحتياجه إلى الأموال التي يطّيب بها بني عمّه ، ويحاول بها

أَمَرَ الْمَلِكُ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنْ مِثْلِهِ أَنْ يَجْمَعَ لَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا يُدْرِكُ
مَعَهَا الْأَمْالَ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ تَسَلُّطٌ عَلَى مُسْلِمٍ فِي حَقٍّ وَلَا بَاطِلٍ ، وَلَئِنْ
الرَّعَايَا أَكْثَرُهُمْ بِتِلْكَ الْبَلَدَةِ ، وَالْعَمَالُ إِنَّمَا كَانُوا يَهُودًا ؛ فَكَانَ يَجِبِي مِنْهُمْ
الْأَمْوَالُ وَيُعْطِيهِ ؛ فَيَلْقَى ظَالِمًا مِنْهُمْ إِلَى ظَلَمَةٍ ، يَأْخُذُ مِنْهُمْ مَا [يَمْلَأُ بِهِ]
بَيْتَ لِلَالِ ؛ وَإِقَامَةُ أَوْدِ الْمَلِكَةِ أَوْلَى بِهِ مِنْهُمْ .

١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يَدَّيرُ بْنُ حُبَّاسَةَ

ضدَّ باديس

فَلَمَّا وَلِيَ باديس ، كَثُرَ عَلَيْهِ الْخِلَافُ وَالْهَرَجُ ، وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى
مَا قَدَّمْنَا عَلَى قَتْلِهِ وَتَوَلِيَةِ يَدَّيرَ . وَأَعْطَى عَلَى ذَلِكَ أَقْوَامًا الْمُتَاقِيلَ وَالصَّكُوكَ
١٠ بِالْإِنْزَالَاتِ الْقَوِيَّةِ .

وَكَانَتْ عَادَةُ السُّلْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى مَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِالرَّمْلَةِ ، وَيُزَازِهَا مُنِيَّةً
كَانَ يَحْكُمُ بِهَا حُبُوسُ أَبِيهِ ؛ وَكَانَ لَهَا بَابَانِ ، [فَاتَّفَقُوا] عَلَى أَنْ يَقِيمُوا
الْمُلْتَمَبَ ، وَيَقْتُلُوهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ تِلْكَ الْمُنِيَّةِ ، وَهُمْ قَدْ تَسَلَّحُوا بِاللُّرُوعِ
مِنْ تَحْتِ الثِّيَابِ ، عَازِمِينَ عَلَى الشَّرِّ .

١٥ وَكَانَ مِمَّنْ ارْتَشَى عَلَى ذَلِكَ شَيْخٌ مِنْ صِنْهَاجَةٍ يُعْرَفُ بِفِرْقَانَ ،
أَعْطِيَ خَمْسَمِائَةَ مِثْقَالٍ وَصَكًّا بِقَرْيَةِ قَوْلَجَرٍ مِنْ عَمَلِ السَّطْحِ . فَقَالَ فِي
نَفْسِهِ : « لَمْ أَجِدْ فُرْصَةً نَحْطِي بِهَا عِنْدَ باديس أَمْكَنَ* مِنْ هَذِهِ ا » ٣
فَجَعَلَ أَنْ الْقَرَمَسَ زَادَ بِهِ فِي جَرِيدِهِ ، كَأَنَّهُ جَمَحَ ، حَتَّى دَخَلَ الْمُنِيَّةَ ،
وَأَلْقَى باديس عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ ؛ فَقَالَ لَهُ مُخْتَلِسًا : « انْجُ بِنَفْسِكَ
٢٠ وَأَخْرُجْ مِنَ الْبَابِ الْآخَرِ ا فَإِنَّ الْمَلَأَ يَأْتُمُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ا » وَأَرَاهُ الدَّانِيرَ

التي أعطى على ذلك . فخرج باديس من الباب الآخر ، يمدُّ في السير إلى قَصَبَتِهِ ؛ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، يَنْتَظِرُونَهُ .

فبينما هُمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِذَا بِعَلِيِّ بْنِ الْقَرَوِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ وَزَرَاءِ بَادِيس وَثِقَاتِهِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ ؛ فَقَالُوا لَهُمْ : « إِنَّ السُّلْطَانَ وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ أَنْظَارِهِ خَبَرٌ مُقْلِقٌ وَجِبَ الْإِنْصِرَافُ لَهُ ؛ فَأَعْلَنُوهُ فِي تَخْلُفِهِ عَنْكُمْ أَوْ مَعَ هَذَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ شَيْءٌ » . فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ بِذَلِكَ ، فَكُلٌّ مِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ خَبَرٌ هَرَبَ عَلَى الْمَقَامِ ، وَهَرَبَ يَذَّيْرُ بْنُ حُبَّاسَةَ ، لَا يَلْتَفِتُونَ عَلَى شَيْءٍ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِمَهْجِهِمْ .

ثُمَّ انْتَضَحَتْ الْقَضَايَا كُلُّهَا لِبَادِيسَ مِنْ بَعْدِ هُرُوبِهِ ؛ وَمَشَى إِلَيْهِ بِالنَّصَاحِ كَثِيرٌ مِنْ بَنِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ . وَطَلَعَ إِلَيْهِ أَخُوهُ بُلْقَيْنُ ، وَبَكَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَأَلَهُ الْعَفْوَ عَمَّا أَدْخَلَهُ فِيهِ الْفَاسِقُ ابْنُ عَمِّهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِهِ أَبَدًا يَوْمَ ذَلِكَ مِنْهُ لَوْلَا تَلَبُّهُ وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِ . وَإِنْ يَذَّيْرُ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدَةِ ، وَصَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَكُلُّ رَئِيسٍ قَدْ انْتَدَبَ إِلَى فِتْنَةٍ جَدُّنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ — يَنْحَازُ هُوَ إِلَيْهِ ، وَيَصِيرُ مِنْ أَعْوَانِهِ وَعَلَى أَعْنَادِهِ ، يَدُلُّ بِهِمُ الْبَلَدَ ، وَيُزِيلُهُمُ ١٠ الْمَخَادِعَ ، وَيَكْشِفُ لَهُمْ مِنْ عَوْرَاتِ الْجِهَةِ مَا خَفِيَ عَنْهُمْ ، لَا يَفْتَرُ بِالضَرْبِ عَلَيْهِ وَتَهْتِكُ بِلَادَهُ ؛ وَجَدُّنَا فِي هَذَا لَا يَأْوِي مَعَهُ إِلَى رَاحَةٍ ، وَلَا يَقْرُ بِهَ قَرَارٌ .

وَصِنْهَاجَةٌ مَعَ هَذَا يَخَاطِبُونَهُ ، حَتَّى إِذَا وَقَعَتْ يَدُ السُّلْطَانِ بَادِيسَ — رَحِمَهُ اللَّهُ — كُتِبَ كَثِيرَةٌ مِنْ عِنْدِ صِنْهَاجَةٍ إِلَى يَذَّيْرُ ، تَضَمَّنَتْ أَزِيدَ مِنْ

٢٠ مَائَتِي رَجُلٍ* مِنَ الْأَكْبَرِ . فَغَضِبَ لَذَلِكَ ، وَهُمْ يَقْتُلُهُمْ . وَشَاوَرَ أَبَا إِبْرَاهِيمَ ١٤ (١) فِي الْأَمْرِ ؛ فَقَالَ لَهُ : « أَرَى مِنْ الرَّأْيِ إِلَّا تَوَنَّبَ أَحَدًا عَلَى هَذِهِ

الكتب ، ولا تعلمهم أنها صارت إليك ، وأن تأمر الآن بنار تحرقها بها وتطفى أثرها ؛ ورأس العقل مُدارةُ الناس . فإن عاقبت ، كم عسى [أن] تُعاقب ، وهم أجنادك وأجنحتك ! فاحتل الأمر بغير هذا الوجه ! « قبل نصيحته ، واستعان ببعضهم على بعض ، وأفشى فيهم العطايا ؛ وضرب الابن بأبيه والأخ بأخيه .

فكان دأبُ يذير هكذا أبداً ، لا يقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك بلا سامة ولا فترة ، إلى أن أظفره الله به وصار في ثقافه . ودكر أنه مات مقروماً حتف أنفه . وتأتت الأمور لباديس من بعده ، وصفا له الجؤ .

١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية

وأول فتح أفاء الله عليه هزيمته لزهير الخصي والى المرية . وكان له كاتب ، يُعرف بولد عباس ، من أشد الناس حماقة واستخفافاً ، مُبيراً للشر ، مؤرّشاً بين الملوك ؛ وكان الغالب على أمر زهير ، إذ لم يكن زهير يصلح لشئ لعباوته وجهله . وكان قد جمع كل خصي بالأندلس واحتل ؛ فبالغ . وأدركه الطمع في غرناطة ، لِمَا بلغه من موت حبوس بن ماكنس . فأتى حتى نزل على مقربة منها ، بموضع يُعرف بالقونت ، محترقاً لمن ولي غرناطة ، يزعم أنهم أصاغر وأمرهم تختل بعد حبوس ، لِمَا أراد الله من هلاكه وهلاك جنسييه الخصيان .

وكان جدنا باديس - رحمه الله - قد رأى عند ذلك رؤيا أن الحورَ بغرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه ؛ فهالهُ ذلك ، وخشى أن تكون الواقعة عليه ؛ فأرسل في المُعَبَّر وقص عليه . فقال له المُعَبَّر : « أبشر بهذه

الرُّوْيَا ! إِنَّ الْحَوْرَ شَبِيهٌ بِالْخَصِيَانِ ، الَّذِي * لَا طَعْمَ لَهُ ، وَلَا أَصْلَ يَتَوَرَّكُ ١٤ (ب)
عليه ؛ وَهُمْ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ . وَلَا شَكَّ فِي سَقُوطِهِمْ وَبَوَارِهِمْ عَلَى يَدَيْكَ !
فَكَانَ ذَلِكَ .

وَقَدَّمَ عَلَى السَّاكِرِ أَخَاهُ بُلْقَيْنَ ؛ وَكَانَ مِنْ أَشْجَعِ النَّاسِ ؛ وَكَانَ ٥
بَادِيسَ ، عِنْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، قَدْ اخْتَصَّهَ بِكُلِّ مَا شَاءَ وَفَضَّلَهُ فِي الْمِيرَاثِ عَلَى
نَفْسِهِ إِلَّا النَّاصِ الَّذِي تَحْتَاجُهُ الْمَمْلُوكَةُ . فَلَقِيَ الْعَسْكَرَ الْمُرْذُولَ ؛ فَلَمْ تَكُنْ
إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ حَتَّى انْهَزَمَ وَقُتِلَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْخَصِيَانِ ،
وَنَخِيَ زُهَيْرٌ عَنِ الْعَسْكَرِ ؛ فَلَمْ يَوْجَدْ حَيًّا وَلَا مَيِّتًا . وَكَانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ
سَعَادَةِ بَادِيسَ ، كَمَا كَانَتْ هَزِيمَةُ الْمُرْتَضَى أَوَّلَ سَعَادَةِ أَبِيهِ ، ثُمَّ افْتَتَحَ ١٠
الْبِلَادَ ، وَصَارَتْ إِلَيْهِ الْأَنْظَارُ الَّتِي تَلِي الْمَرْيَةَ . وَظَفَرَ بَعْدُوهُ كَاتِبَ زُهَيْرَ ،
وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ مَتَاوَلًا لِإِثَارَتِهِ الْفِتْنَةَ ، وَنَهَمَ عَلَيْهِ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ قَبْلَ ذَلِكَ ، مِنْ
أَقَاوِيلَ خَشْنَةٍ وَمُعَامَلَاتٍ قَبِيحَةٍ عَرَفَهُ بِهَا .

وَقَرَّ مُلْكُ بَادِيسَ جَدًّا قَرَارَهُ ، وَطَارَ لَهُ الذِّكْرُ . وَكَانَتْ لَهُ مِنَ الْهَيْبَةِ
فِي النَّاسِ أَنْ لَمْ يَجْتَزِيَ عَلَيْهِ أَحَدٌ بَعْدَ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ . ١٥
ثُمَّ إِنَّ بُلْقَيْنَ أَخَاهُ لَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ تِلْكَ الْوَقِيعَةِ إِلَّا بِسِيرًا حَتَّى مَاتَ
— رَحِمَهُ اللَّهُ — . وَكَبُرَتْ سَنُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي حَالِ الْخِدَاثَةِ ، وَهُوَ أَبُوْنَا .
وَتَرَكَ عَمَّهُ بُلْقَيْنَ ابْنًا كَانَ يَنَاقُشُهُ وَيَخْشَى مِنْهُ ضَرًّا كَثِيرًا ، وَيَتَوَقَّعُ عَلَى نَفْسِهِ
مِنَ الْمَطَالِبَاتِ بِتِلْكَ الْأَخْبَارِ ؛ فَخَرَجَ عَنِ الْبَلَدِ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَتَرَكَ أَبِيهِ ،
لَمْ يَعْتَرِضْ لَهُ شَيْءٌ .

١٨ — شخصية الأمير بُلقين سيف الدولة والد المؤلف

ولم يكن للمظفر جدًّا غير بُلقين أبينا — رحمهم الله — . وكان رفيقًا به ، مشفقًا عليه ، حذرًا من أعدائه وبنى عمه أن يُبلغوه من بعده بما يُولِّغ هو به بعد وفاة أبيه ؛ فكان لا يحسُّ من أحدٍ داخله ولا نفاقًا إلا ونظر فيه بما يوافق أمره من إخالٍ أو نقيٍّ أو أخذٍ مالٍ ، لئلاَّ يبقى لابنه من يُناوئه ويذلُّه .

وكان سيف الدولة حليماً* رفيقاً ، ضدَّ أبيه في كلِّ حال ؛ فإنَّه لم يجربْ ١٥ من الأمر ، ولا ابتليَ بما ابتليَ هو به . وكان يعدُّ الناسَ بالجيل ، ويقول لهم : « أنا أنسيكم طريقة أبي ا » ومن استوجب من أبيه القتل أو أذنى ضررٍ ، كان هو الذي يعنى بأمره ، ويتشفع فيه عند الأب ، حتَّى يتخلَّصه . ١٠ فأجمع الناس على محبته خاصَّةً وعامةً للذي يرون من مكارمه ، مع تمكين أبيه له ويسطِر يده على الأموال .

١٩ — نشاط يوسف بن نغالة اليهودي ومؤامراته

وكان في زمانه للمظفر أبيه وزيран ابنا القروى : أحدهما على ، والآخر عبد الله ، ممَّن نشأ معه ؛ وكانا حَصِيرِيَّه في المكتب ؛ وكانا قائدَي المسكر ؛ ١٥ واليهما كان يرجع الرأى في أمور القن^(١) . وكان أبو إبراهيم الشيخ مؤذِنًا لهما ، مستعينًا بهما .

(١) أصل : « الفتن » .

- فلما توفي أبو إبراهيم، وترك ابنه وزيراً جدُّنا، ورث لأبيه أموالاً كثيرة، ووصاهُ بأن يسعى في طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التي منها يكون حَتَفٌ كل واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستشارهم بالجبايات. فجعل الخنزير نفسه لذلك. وكان المظفر — رحمه الله — لا يقبل منه مُطالبةٌ لمُسْلِمٍ، ولا عَرْضُهُ لذلك، غير أَنَّهُ كَانَ يَتَلَطَّفُ بِالْأَمْوَالِ، ويعطى لِنِقَاتِهِ وَعَمِيدِهِ مَا يَجْعَلُهُمْ فِي الْمُطَالَبَةِ عَلَى هَوَاهُ، وهو ساكتٌ، لا يَتَكَلَّمُ بِشَيْءٍ مِثْلَ أَنْ يَكُودَ فِي طَلَبِ أَحَدٍ عَلَى يَدَيْ مُوَقِّقِ الْخَصِيِّ صَاحِبِ الدِّينَةِ مِنْ نِقَاتِ بَادِيس؛ وَكَانَ مُتَتَبِعاً لِهَذِهِ الْمَشَايِخِ؛ فَيَأْتِي مُوَقِّقَ الذِّكْرِ بِنَصِيحَةٍ إِلَى السُّلْطَانِ مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ؛ فَيُرْسَلُ فِي الْيَهُودِيِّ وَيُقَالُ لَهُ: «بَلِّغْنِي أَمْرٌ كَذَا وَكَذَا». فَيُرِيهِ الْيَهُودِيُّ التَّبَرُّؤَ^(١) مِنْ ذَلِكَ بِأَنْ يَقُولَ لَهُ: «كُلُّ مَا قُلْتُ إِلَيْكَ كَذِبٌ» فَتَثَبَّتْ^(٢)! «فَيَقُولُ لَهُ الرَّئِيسُ: ١٥ (ب) «أَخْبَرْنِي مَنْ لَا شَكَّ عِنْدِي فِي نَصِيحَتِهِ!» فَكَانَ آخِرُ مَا يَقُولُ لَهُ: «مَا قَطَعُ الشَّرَّ إِلَّا سِيَاسَةً!» وَكَانَ لِمُبَاهَاةِهِ وَمَتَحَرِّقِهِ، يُرَى النَّاسَ أَنَّهُ يَقْدِرُ؛ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ، إِلَّا عَنْ تَحِيْلٍ وَمَكْرِ.
- فلما توفي أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنه في سنِّ الصَّبَا، كَرِهَ تَوَلِيَّتَهُ ١٥ جَدُّنا، وَقَالَ لِعَلَى الْمَذْكُورِ: «الْتَزِمْ خِدْمَةَ الْمَمْلُوكَةِ؛ فَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَا!» فَأَبَى ذَلِكَ عَلَى. وَاطْبَاهُ وَلَدُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ بِالْأَمْوَالِ الْجَسِيمَةِ، وَقَالَ: «لَيْسَ أَرْغَبُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ عَبْدَكَ وَتَرْبِيتَكَ؛ وَلَكِ الْأَمْرُ؛ وَأَنَا كَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَقُومُ بِنَفَقَتِكَ كُلِّهَا، وَلَوْ كَانَ أَهْلُكَ عَدَدَ الْخَصِيِّ!» فَطَمَعَ ٢٠ عَلَى فِي قَوْلِهِ، وَكَلَّمَ السُّلْطَانَ فِي ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ: «إِنْ أَبْقَيْتَ عَلَيَّ وَلَدَ

(١) أصل: «التبرؤ».

أبى إبراهيم ناصحك ، فأنا أرجو ذلك لو لَدَى من بعدى ؛ وأنا المُشْرِفُ عليه . « ففعل السلطان ما قال ، وقَدَّمه على العُمَال والجبايات . وكان يعطى لعلَى صدرًا من دولته إلى أن كَبُرَتْ سنُهُ .

وأظهر [وَلَدَ أبى إبراهيم] للسلطان نصائحَ كثيرةَ حِطَى بها عنده ؛ وَتَبَرَّمَكَ على علىَّ وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يَسْأَل به عن علىَّ ولا عن أحدٍ من خلق الله . وكان فيما قال له : « إنَّ الذى يأخذ علىَّ أَنْتَ أَوْلىَّ به ؛ والرجلُ كثيرُ الأولاد والضنَف ، ويذهب مالُك إن لم تَحْمِنى وتمضنى . وهو متى تَمَلَّأ ، طَمِع فى مُلكك ! وأنا رجلٌ ذِمِّىْ لا هَمَّة لى إلَّا خِدْمَتُكَ وَجَمْعُ الدِراهِم لبيت مالِك ! » فوثِقَ الرئيس بقوله ، وقاس عليه بقله ، ومنع منه عليًا وجميعَ الناس . ولما رأى علىَّ تأخُّره وتَقَدُّم اليهودى ، ندم على ما كان منه أوَّلًا ، وفاته من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان ؛ وعَظَّمَهُ ذلك وأَكْرَبَهُ .

وكانت مَدِينَةُ وادى آش* بِيَدِهِ ، قد قَدَّمَ عليها أخاه عبدَ الله ؛ وكان (١) ١٦
يأكلُها طعمَةً ، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دَرَاهِم ، وهى ١٥
تُساوِى أزيد من مائة ألف دينار ثُلُثِيَّة . فدخل عليه اليهودى بهذه المُطالَبة وقال للسلطان : « اقْبِض وادى آش من عنده ، ولك مَنى فيها أزيد من مائة ألف ! » فقال له : « لستُ أقدر على أخذها منه بهذا الوجه ؛ فتكون مفاَسدةً ، وهم متصرفون فى خِدْمَتِهَا . فوجد اليهودى السبيلَ إلى حيلة فى نزْعها باسمِ سيف الدولة أَيْنَا ، وقال : « لَأَخْذَنَّ البلدة من يد عدوِّ ، فأضْعُها فى يد سلطان يشكرنى عليها ، ويرى لى ذلك عن تَخْذُّم ونصيحة ! » ٢٠
فقال لأبى : « إنه يلزمنى طاعتُك ونصيحتُك لأكون لك كالنِى أنا لأبيك ؛

وأراك كثير الذُرِّيَّة ، تازمك نفقات وتجمل الرئاسة ؛ ومن الغبن أن يكون وزراه والدك أغنى منك ! وهذه وادي آش ، بنتُ غرناطة ، لا تجمل إلا لك ، وأنا أُمَرُّها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف ا « ففرح لقوله والدي — رحمه الله — ، وشكر له رأيه ، ووعدته بالزيادة في مرتبته إن صار الأمرُ إليه .

٥ ثم مضى إلى الولد ؛ فأخبره الخبر ، وقصَّ عليه أمرَ ابنه ؛ فقال له المظفر : « الآن وجب أخذها من أولاد القروى . » فأرسل على اللقمان في علي وقال له : « إن ابني محتاجٌ إلى المال ، وطلب مني وادي آش . ولو كنت آخذها منك ومُعطيها لقرينك ، لعزَّ عليك ! ولكن يجب لك أن تتسرع بها لابني . » فلم يكن جواب علي إلا أن قال له : « ما صلح للموتى على العبدِ حرامٌ ا » فضمها اليهوديُّ خادماً لأبي فيها ، وشرط عليه أن يعطيه رمتها في أنجم العام ؛ واتفقا على ذلك * . وصارت المودة متمكنة بين الابن ١٦ (ب) والوزير مدةً طويلةً .

٢٠ — موت الأمير بُلُقَيْن مسموماً

١٥ فلما رأى وزراء الدولة وعليُّ وأخوه تمكَّن اليهوديُّ عند السلطان وعند الابن ، أغاظهم ذلك وأقلقهم ، وبلغ منهم كلُّ مبلغ . وأجمع رأيهم على الدخول بينه وبين أينا . وكان أولاد عليَّ وعبد الله وزراء لسيِّف الدولة ونُدماء ، لا يُفارقونه . فعماوا عليه من كلِّ وجه بأنفسهم ومع بنينهم ، وقالوا لسيِّف الدولة : « إن الأموال التي ينعم اليهوديُّ ويستأثر بها ، أنت أحقُّ بها وأولى . وقد أهلك وأخمل الدولة أجمع ! ولو أنك قتلتها ، لم يقل لك أبوك في ذلك شيئاً ا وما عسى أن يصنع بابنه ؟ » أرادوا — الفسقة —

٢٠

قَتَلَ عَدُوَّهُمْ عَلَى يَدَى ابْنِ الرَّئِيسِ ، لِيُخْرِجُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْمَسْأَلَةِ : فَإِنْ عَاقَبَ ، عَاقَبَ ابْنَهُ ، إِنْ شَاءَ ، وَحَصَّلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ دُونَ مِلَامَةِ مِنَ السُّلْطَانِ . فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ أَبَدًا ، يَنْمُونُ بِالْيَهُودِيِّ ، وَيَكْذِبُونَ عَلَيْهِ ، وَيَعْضُونَ^(١) إِلَى الْيَهُودِيِّ بِالْكَذْبِ عَلَى لِسَانِهِ ، حَتَّى تَغَيَّرَ أَبُونَا عَلَيْهِ وَتَغَيَّرَتْ لَهُ نَفْسُ الْيَهُودِيِّ ، مَعَ قَلَّةِ تِجَارِبِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لِمُكَايِدِ النَّاسِ . فَعَمِلَ عَلَى قَتْلِهِ ؛ وَكَانَ يَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ ، وَيَفْشِي سِرَّهُ إِلَى الْوُزَرَاءِ الرَّافِضِينَ إِلَيْهِ ؛ فَلَا هُوَ يَزِمُ عَلَى قَتْلِهِ ، وَلَا هُوَ يَتَكَبَّرُ بِالْأَمْرِ ، إِلَى أَنْ صَحَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ ، وَاعْتَزَمَ رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَسْبِقَهُ بِالْأَمْرِ ، وَرَأَى عَيَانًا تَغْيِيرَهُ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَبُونَا ، لَمَّا هُمْ بِقَتْلِهِ ، وَأَعَدَّ لَذَلِكَ عَيْدَهُ ، فَكَّرَ فِي سَطْوَةِ أَبِيهِ ؛ فَكَفَّ .

- ١٠ وَكَانَ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ أَخٌ صَغِيرٌ اسْمُهُ مَا كَسَنَ ، عُثْمَا الشَّهِيدُ فِي وَاقِعَةِ بَطْلْيُونُسَ . فَعَمِلَ الْخَنَزِيرُ رَأْيَهُ مَعَ مَشِيخَةِ الْيَهُودِ ، * وَأَخْبَرَهُمْ بِتَغْيِيرِ سَيْفِ ١٧ الدَّوْلَةِ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ وَأَدَهَاهُمْ رَأْيًا : « لَا تَطْمَعُ فِي الْفَلَاحِ بَعْدَ الشَّيْخِ ، وَلَا فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ ! وَلَكِنْ انْظُرْ لِنَفْسِكَ فِيمَنْ يُقِيمُ إِنْ مَاتَ رَئِيسُكَ : أَوْجَدْتَهُ ؟ وَتَحْيَلْ فِي سَقَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ . وَهَذَا مَا كَسَنَ أَخُوهُ ١٥ مَخُولٌ ؛ فَإِنْ قَتَلْتَ أَنْتَ هَذَا ، وَوَلَّيْتَ هَذَا ، قَدَّمْتَ عِنْدَهُ يَدًا لَا يَنْسَاكَ عَلَيْهَا . »
- فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ سَقْيَهُ . وَكَانَ مَتَمَكِّنًا بِذَلِكَ ، لِأَنَّ أَبَانَا كَانَ كَثِيرَ الشَّرْبِ مَعَهُ وَالتَّكَرُّارِ عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ . فَشَرِبَ يَوْمًا عِنْدَهُ عَلَى عَادَتِهِ ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ حَتَّى قَذَفَ مَا كَانَ فِي جَوْفِهِ ، وَاسْتَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ الْمَشْيَ إِلَى مَنْزِلِهِ إِلَّا عَنْ مَشَقَّةٍ ؛ وَلَبِثَ يَوْمَيْنِ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، حَتَّى مَاتَ — رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ . ٢٠

(١) أصل : « ويمضوا » .

ولقد سمعتُ كبيراً من خِصيان باديس يقول : « أُرْسِلَ في سَيْفِ الدولة يوماً وقال لي : « انهضْ إلى أُمَّهَاتِي وَقُلْ لَهُنَّ^(١) إِنِّي اعْتَزَمْتُ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . » يقول الْخَصِيُّ : « قُلْتُ لَهُ : « أَنَا لَا أَمْضِي بِهَذِهِ الرِّسَالَةَ ! فَإِنَّ الْخَبَرَ لَا تَحَالَةَ عِنْدَهُ ! لَوْ أَنَّكَ تَرِيدُ قَتْلَهُ ، مَا كَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُسَمِّعَنِي ذَلِكَ وَلَا أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ! » فَعَلِمْتُ أَنَّ حَالَهُ تَوَوَّلُ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ . »

ومما أَطَانَ عَلَى الْفَسَادِ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ أَبَانَا كَانَ مَعَ أُمَّهَاتِهِ ، اللَّائِي رَبَّيْنَّ وَلَدَهُ الْمِعْرَ أَخَانَا ، عَلَى ضِدِّهِ مِنَ الْأَمْنِ ، لِإِفْرَاقِهِنَّ لِلْمَالِ عَلَى ابْنِهِ طِفْلاً صَغِيراً وَمُنْعِدٍ هُوَ مِنْهُ . فَاحْتِاجَ إِلَى الْيَهُودِيِّ عَنِ الْمَالِ . وَكَانَ أُمَّهَاتُهُ يُطَالِبْنَهُ وَيَمْنَعْنَهُ عَنْ حَبَّةِ الْيَهُودِيِّ ، حَتَّى شَعَرَا بِذَلِكَ ؛ وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمَا عَلَى مُطَالِبَةِ النِّسَاءِ عِنْدَ الرَّئِيسِ ، وَتَجَرِيحِهِنَّ بِسَرَقَةِ الْمَالِ وَإِرْسَالِهِ إِلَى الْبِلَادِ . فَلَمَّا وَقَفَ جَدُّنَا عَلَى الْمَقَالَةِ ، وَقَدْ وَقَعَتْ لِلْفَاسِدَةِ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ ابْنِهِنَّ ، صَارَ مَكْلُومًا* مِنَ الْأَبِّ وَالنِّسَاءِ . وَتَحَيَّلَ النِّسَاءُ عَلَى أَنْ يَرَّأْنَ^(٢) أَنْفُسَهُنَّ مَقَادِفِينَ^{١٧} (ب) بِهِ ؛ وَدَعَتِ الضَّرُورَةُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَنْ يَتَصَالَحَ مَعَ النِّسَاءِ لِرَجُوعِ أَبِيهِ مَعَهُنَّ ؛ وَرُدَّتِ الْقِصَّةُ فِي رَأْسِ الْيَهُودِيِّ . فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا زَادَهُ غَائِلَةً وَفُورًا ، وَجَرَى عَلَى يَدَيْهِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ بِهِ لِنِتَامِ الْمُدَّةِ .

وَكَانَ فِي أَوَّلِ الْمَفَاسِدَةِ قَدْ احْتَبَسَ لَهُ بِكَثِيرٍ مِنْ جَبَايَةِ وَادِي آش ؛ وَشَكَاهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ لِأَبِيهِ . فَتَحَيَّلَ الْخَزِيرُ عَلَى أَنْ دَعَا أَبَانَا إِلَى مَنْزِلِهِ لِشَرَابٍ ، حَتَّى سَكَرَ ؛ وَأَمَرَ بِخُرُوجِ بَنِيهِ وَعِيَالِهِ فِي ثِيَابِ الْحَزَنِ . فَهَالَ ذَلِكَ أَبَانَا لِمَا رَأَى مِنْ حَالِهِمْ وَبِكَايِهِمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ : « هَلْ مَاتَ عِنْدَكَ

(١) أصل : « لهن » . (٢) أصل : « برين » .

أَحَدُهُ ؟ » قَالَ لَهُ : « مَاتَ عِنْدِي مَالٌ كَبِيرٌ لَا يَمْتَسِكُ عِنْدَكَ إِلَّا بِمُطْلَقِ
الرَّعِيَّةِ ! وَهَذَا يَوْمٌ طَيِّبٌ : فَأَنْتَ أَهْلِي بِكُتُبِ بَرَاءَةٍ تَبْرِئُنِي بِهَا إِلَى أَنْ
يَرِدَكَ مَالُكَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ وَجَسَتْ نَفُوسُهُمْ وَفَزَعُوا . فَأَتَيْتُ إِحْسَانَكَ بِكُتُبِ
الْبَرَاءَةِ ! » فَأَفْتَرَصَهُ فِيهَا ، وَكَتَبَهَا ؛ ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ :
« إِنَّمَا يَنْفَقُ مَالُهُ عَلَى الْوُزَرَاءِ وَالشَّرَابِ الْمُدْمِينِ ! وَهَذَا إِبْرَؤُهُ لِي :
فَأَيْنَ شَكْوَاهُ ؟ » فَرَجَعَ مُلُومًا مِنَ الْأَبِ زَائِدًا ، وَصَارَ فِي خُسَارَةٍ مَعَ
الْوَزِيرِ وَالنِّسَاءِ ، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَمَامِ الْمُدَّةِ . وَاللَّهُ يَنْفَعُهُ بِجَمِيلِ نَيْتِهِ وَصَفَاءِ
مَذْهَبِهِ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ !

٢١ — مَا بَلَغَ ابْنُ نَعْرَالَةَ مِنَ الْمَكَانِ الْأَرْفَعِ

- ١٠ فلما تَوَفَّى أَبُونَا ، وَكَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الرِّزَايَا لِلنَّاسِ ، لِمَا كَانُوا يَرْجُوهُ
مِنَ الْعَدْلِ عَلَى يَدَيْهِ ، هَاجَ النَّاسُ بِأَمْرِهِ ، وَهَمُّوا بِقَتْلِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَتْ
تِلْكَ مَقْدِمَاتٌ لِهَلَاكِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مَعَاذَةَ الرَّئِيسِ . وَزَادَ فِي
طَلَبِهِ لِأَوْلَادِ الْقَرَوِيِّ ، وَصَوَّرَ عِنْدَ الْمُظَفَّرِ أَنَّ بَنِيهِ زَيَّنُوا لِابْنِهِ الْإِمَامَانَ
عَلَى الْحَرِّ حَتَّى هَلَكَ . وَأَدْرَكَتْ لِذَلِكَ أَوْلَادَ الْقَرَوِيِّ مَنَحَسَةً عَظِيمَةً مِنْ
١٥ نَفِيمِهِمْ عَنْ أَوْطَانِهِمْ ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ، وَقَتَلَ بَعْضَ الْوُزَرَاءِ* الَّذِينَ كَانُوا ١٨ (١) .
حَوَالِي أَيْنَا لِمَا أَتَاهُمُ بِهِ ؛ وَجَانِيَ الْقَضِيَّةَ لَا يُوبَهُ لَهُ . وَتَبَرَّمَكَ الْيَهُودِيُّ
بَعْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَسَعَى فِي إِقَامَةِ مَا كَسَنَ عَمَّنَا .
وَكَبُرَتْ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ جَدَّنَا ، وَأَخْلَدَ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَزَهَدَ فِي طَلَبِ
الْبِلَادِ لِكِبَرِ سَنَةِ وَمَوْتَ ابْنِهِ ، وَأَلْقَى بِمَقَالِيدِهِ إِلَى الْيَهُودِيِّ فِي الْخِدْمَةِ عَنْهُ ؛
٢٠ فَتَمَكَّنَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ .

٢٢ - استيلاء باديس على مالقة

وإِنَّمَا كَانَ طَلَبُ جَدِّنَا أَكْثَرَهُ وَسَعْيُهُ عَلَى أَخْذِ مَالِقَةَ ؛ فَإِنَّهُ ، مَتَى كَانَ يَأْخُذُ شَيْئًا مِنْ مَعَاوِلِ الْأَنْدَلُسِ ، يَبْلُغُهُ مِنَ الْمُعِزِّ بْنِ بَادِيسٍ أَنَّهُ يَقُولُ : « يَخَاطِبُنِي صَاحِبُ غِرْنَاطَةَ بِأَخْذِ الْكُورِ وَالْقُرَى ! أَمَّا أَنَّهُ لَوْ أَخَذَ مِثْلَ قُرْطُبَةَ وَمَالِقَةَ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِنَ الْقَوَاعِدِ ، كُنَّا نَبَايِعُ لَهُ فِي ذَلِكَ ! »
 ٥ فَعَلَهُ كَلَامُهُ يَجِدُّ فِي خَيْرِ مَالِقَةَ ، وَلِلَّذِي كَانَ يَرَى مِنْ انْدِبَارِ سُلَاطِينِهَا ، وَتَوَقُّعِهِ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ الْبَلَدَ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْخَاطِلَةُ مِنْهَا . فَلَمْ يَزَلْ يَمَاقِدُهَا سِنِينَ ^(١) بِلَا سَآمَةٍ وَلَا فِتْرَةٍ ، حَتَّى حَصَلَ عَلَيْهَا .

وَبَنَى قَصَبَتَهَا بِنْيَانًا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مِثْلِهِ أَحَدٌ فِي زَمَانِهِ ، وَأَعَدَّهَا عُدَّةً لِلْمُهَيَّمَاتِ ، وَجَعَلَ فِيهَا جَمِيعَ مَا وَرِثَ لَابَنُهُ ، وَزَادَ عَلَيْهِ ؛ وَكَانَ الَّذِي يَتَوَقَّعُ مِنْ كَلْبِ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَيْهِ لِنَاكِحِ أَنْ يَتَحَصَّنَ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَ ، وَإِلَّا ، فَيَجُوزُ مِنْهَا إِلَى عِدُوِّهِ بَنَى عَمَّهُ بِأَهْلِهِ وَذَخَائِرِهِ وَمُذْ أَخَذَهَا ، حُلٌّ عَنْ نَفْسِهِ .

وَنَازَعَهُ عَلَيْهَا ابْنُ عُبَّادٍ ، وَأَطَاعَهُ أَهْلُهَا دُونَ الْقَصَبَةِ ؛ فَوَجَّهَ إِلَيْهَا عَسَاكِرَهُ ، وَهَزَمَهُ عَلَيْهَا . وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْهَا . وَلَمْ يُبْلَقِ سُلْطَانٌ عَلَى مَدِينَةٍ مَالِاقِيٍّ هُوَ عَلَى مَالِقَةَ مِنْ طُولِ الْفِتَنِ وَنَفَقَةِ الْأَمْوَالِ . فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهَا الْغَايَةَ مِنْ آمَالِهِ ، حُلَّ عَلَى نَفْسِهِ ، وَتَمَتَّعَ بِمُلْكِهِ . وَمِنْ ذَلِكَ دَخَلَتْ عَلَيْهِ الدَّوَاخِلُ بِاسْتِنَامَتِهِ إِلَى الْوُزَرَاءِ وَوِلَاةِ الْبِلَادِ ، عَلَى حَسَبِ مَا تُقْصَصُهُ بَعْدَ هَذَا .

(١) أصل : « سنين » .

ولولا ما كان غَرَضُنَا وَصَفَ دولتنا خاصَّةً ، لَذَكَّرْنَا لَمَعًا مِنْ دَوْلِ بَنِي
 كُحْمُودِ فِي مَالَقَةٍ ، وَاخْتِلَالِ أَمْرِهِمْ* وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، حَتَّى تَصِيرَ الْأُمُورُ إِلَى جَدِّنَا ١٨ (ب)
 — رَحِمَهُ اللَّهُ — ؛ لَكِنْ نَقْتَصِرُ عَلَى ذِكْرِ مَا نَحْتَاجُ إِلَى إِرَادِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
 قَهْدَنْتُ الْحَالُ ، وَتَأَتَّتِ السَّعَادَاتُ ، وَامْتَلَأَتْ بُيُوتُ الْأَمْوَالِ سِينِينَ^(١)
 ٥ لَا يُسْمَعُ فِيهَا بَغِيَّةٌ ، وَلَا يُرَى مَعَهَا تَشْغِيبٌ ، إِلَى أَنْ اخْتَلَّتِ الْأَحْوَالُ
 بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا كَانَ مِنْ نِفَاقِ الْيَهُودِيِّ — لَعْنَهُ اللَّهُ — ، وَتَضْيِيرِ وَادِي آشَ
 وَجَمِيعِ أَنْظَارِهَا لِابْنِ صُمَادِحَ ، وَاسْتِنْسَادِ الرُّؤَسَاءِ عَلَى الْبِلَادِ ، حَتَّى إِنَّهُ
 لَمْ يَبْقَ لَنَا أَكْثَرُ مِنْ غِرْنَاظَةٍ وَالْمَنْكَبِ وَبَاغُهُ وَقَبْرَةٍ . وَلَمَّا شَاعَ عِنْدَ
 الرِّعَايَا خَبَرُ مَوْتِ الرَّيِّسِ الْأَجَلِّ — فَإِنَّهُ كَانَ مُحْتَجِبًا أَبَدًا — خَلَّتِ الْمَعَاقِلُ
 ١٠ مِنَ الرِّجَالِ ، وَافْتَرَصَتْهَا الرِّعَايَا بِأَسْبَابٍ تَحْنُ نَذْرُهَا^(٢) إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَعْدَ هَذَا .

٣٣ — عِلَاقَاتُ بَادِيسِ بَنِي صُمَادِحَ أَصْحَابِ الْمَرِيَّةِ

وَالْأَوَّلَى أَنْ تَقْدِّمَ وَصَفَ وَلَايَةِ ابْنِ صُمَادِحَ لِلْمَرِيَّةِ ، وَعَضَدَ جَدِّنَا —
 رَحِمَهُ اللَّهُ — لِرِيَاسَتِهِ ، وَإِثْبَاتَهُ لَهُ فِي مُلْكِهِ عِنْدَ قِيَامِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ عَلَيْهِ ،
 طَالِبًا لَهُ خِلَافَتِهِ عَلَيْهِ ، وَأَيَادِي كَرِيمَةٍ سَلَفَتْ مِنَ الْمُظْفَرِّ قَبْلَهُ ، لَمْ يَسْبِقْهُ
 ١٥ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ جَنْسِهِ ، وَلَمْ تَكُنْ مَكْفَأَتُهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ افْتَرَصَ بِلَادَهُ
 وَقَبِيلَ دَوَاخِلَ إِلَى الْإِفْرَنْجِ ، يَمْدُمُ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ . وَأَجَابَهُ مُجَاهِدٌ لِمَا
 أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ ؛ وَعَمِلَتْ الْكَلِمَةُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَلَمَّا هَمَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ بِالرَّجُوعِ
 عَنْ لُرُقَةٍ يُرِيدُ الْمَرِيَّةَ ، تَأَخَّرَ عَنْهُ مُجَاهِدٌ ، وَتَبَيَّنَ لِلنَّصُورِ قَعُودُهُ عَنْهُ
 وَخِذْلَانُهُ إِيَّاهُ ؛ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ . فَقَالَ مُجَاهِدٌ مُخَاطِبًا لَهُ وَلِأَعْلَامِ قَوَّادِهِ :

(٢) أصل : « ذَاكِرَهَا » .

(١) أصل : « سِينِينَ » .

« يا قوم ، إن كنتم لا تعرفون البرّير ، ولا جرّبتُم حُرُوبَهُمْ ، فأنا ، والله ، أعلمُ بها أفياًكم أن يكون بَوارُكم على أيديهم . وأنتم [ستمعون] أن فِئنة عشرين سنة خيرٌ من مِلافاة ساعةٍ واحدةٍ ؛ فإن فيها تتلف الدُّول ، ويتقل المُلُك ، ويستأصل الجمع . فليكنم بالتأني ! » قال له ابن أبي عامر : « جَبُنْتَ ! ارجِعْ إلى دانيّة ولا تفسد على الجيش ! » فأقلع على القيام مضطرباً من قذفه .

وجزع الناس بزوال مُجاهِدٍ عنهم ؛ وأدرك* الإفرنج الطمع ، وطلبوا ١٩ (١) منه ما لا قدرة له به . وانصرف خاسئاً .

وجمع المظفرُ رجاله وقال لهم : « كيف ترون هزيمة هذا السّكر من غير قتال ؟ » فأجابوه أن : « قد وُقِّت ! وأنتم ، ممسّرون للملك ، لم تُعطوا الولاية على الناس حتى اختاركم الله لها ، وجعل عقولكم أجلاً وأفقس من عقول الناس ؛ وبذلك فضّلتم من دونكم ! » ورجع المظفرُ غالباً منصوراً . وصار أبو الأخوص [بن صُمّاح] طاعة له ؛ لا يروم شيئاً من كلِّ ما بالتريّة إلّا وصار إليه ، ولا يأمر فيها بأمرٍ إلّا وكان مِلْكٌ يَدِيهِ . وبقي الأمرُ على ذلك سنين . ١٥

وكانت قُرطبة في ذلك الزمان بمنزلة المريّة ، إذ كان فيها ابنُ السّقاء ، لا يتمتع على المظفر من رغبته فيها شيء ؛ إلى أن توفّي أبو الأخوص ، وترك ابنه هذا التوفّي بالمريّة — رحمه الله — عند ظهور المرابطين عليها ، وهو إذ ذاك صغير السن . فأرسل إلى المظفر يرغب إليه أن يكون له في المضد والحماية بالمنزلة التي كان عليها لأبيه ، وأنه أحسن طاعة وأشدّ اهتداءً من أبيه ؛ وسأله تجديد العهد معه والاجتماع به . فأجابه المظفر إلى كلِّ

ما سأل ، ووعدَه بالقلب عنه على أتم ما كان عليه لأبيه ، واجتمع به .
وجدد معه عقدًا . وثبتت رياسته ، وقرَّ حاله قراره ، ودأبًا على ذلك
دهرًا طويلاً ، لا يُسمع فيها بفتنة ، ولا يكابد معها تشييب .

- وكان في ذلك [الوقت] خدامٌ دَوْلَتنا مُتَّفِقِينَ مع اليهوديِّ ، إذ
 ٥ كان وزيرَ السلطان وصاحبَ سرِّه : فمنهم صَنِيعَةٌ له قد استغنى معه ،
 ومنهم عدُوٌّ له ، مُؤازِرٌ في الظاهر استدفاعاً لشرِّه . فَاتَّسَقَتِ الأمور بذلك ،
 وأعان بعضهم بعضاً على خدمة السلطان ، وأنسوا إلى تَقَتِّه بهم وعَضِدِ
 بعضهم لبعض . ولما تهيأت له الأمور ، وتوطدت الدولة ، بعد كلِّ ما ذكرنا
 من تلك الفتن ^(١) وغيرها ، وحصل على مدينة مالقة بعد المكابدة واليأس * ١٩ ()
 ١٠ منها ، حلَّ عن نفسه ، ومال إلى الراحة التي يستريح إليها للوك ،
 وفوض أمرَه إلى الوزير والخَلْمَة .

٢٤ — وصول النَّايَة إلى غرناطة .

حظوته ومنافسته لليهوديِّ

- وفي أُمُكنٍ ما كانت الدولة وأبْهَجَها ، قصده النَّايَة ، عبدٌ كان للمُعْتَصِدِ
 ١٥ ابن عباد — رحمه الله — ؛ وكان من جُمْلَة من اتَّفَقَ على غلظه مع ابنه
 للشهور خَبَرُهُ ؛ فَأَتَى الْقَدْرَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ عَنْهُ مَحِيصٌ . واعتنى به جماعةٌ
 من كبار العبيد ، وطلبوا له من السلطان العَطَايا ؛ فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ تَعَمُّناً
 لسروهم ^(٢) ، كَتَبَ يَزِيدُوا فِي خِدْمَتِهِ وَنَصِيحَتِهِ ؛ وَقَالُوا لَهُ : « قَصْدُكَ هَذَا
 الْإِنْسَانُ عَنْ مَقْاسِدَةٍ لِنَيْتِكَ وَتَعْوِيلٍ عَلَيْكَ ؛ وَقَدْ أَمْلَكَ ؛ فَمَا تَصْنَعُ فِيهِ

(١) أصل : « العتير » . (٢) أصل : « لسارم » .

إِنَّمَا تُسَدِّدُهُ إِلَيْنَا . » ودخل غرناطة في أَسْعَدِ وقت له ، وَأَشْغَيْهِ عَلَى الدَّوْلَةِ .
وسار في أوَّل أمره مع الخِدْمَةِ بِأَجَل سِيرَةٍ وَتَوَاضَعُ لَهُمْ ، حَتَّى حُدُّوا
طَرِيقَتَهُ ، وَنَعَمُوا عِنْدَ السُّلْطَانِ ، إِلَى أَنْ اسْتَعْمَلَهُ فِي بَعْضِ خِدْمَتِهِ وَصَرَفَهُ فِي
وَلَايَةِ بَعْضِ عَسْكَرِهِ . وَكَانَ لَطَلَبِيهِ النَّارُ مِنْ بَنِي عَبَّادَ ، قَدْ اكْتَفَى فِي فِتْنَةِ
مَالِقَةَ وَاسْتَهْلَ أَقْوَامًا مِنَ الْجُنْدِ ؛ وَكَانَ فِيهَا مُتَصَرِّفًا بَيْنَ يَدَيِ مُقَاتِلِ بْنِ ٥
يُحْيَى قَائِدِيهَا . وَلَمْ يَزَلْ مُقَاتِلُ الْمَذْكُورُ ، مَتَى خَرَجَتْ مُغِيرَةٌ إِلَى بَلَدِ ابْنِ
عَبَّادَ ، يُعَلِّمُ الْمُظَفَّرَ بِكِفَايَةِ النَّايَةِ الْمَذْكُورِ فِيهَا ، حَتَّى كَادَ يَجْعَلُ لَهُ الْحِصْنَ
كَلَّةً ، إِلَى أَنْ وَرَدَهُ كِتَابُ السُّلْطَانِ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُمَا ، وَصَارَ قَائِدًا مَعَهُ فِي
الْبَلَدَةِ . وَزَادَ جِدُّهُ ، وَنَمَا خَبَرُهُ ، وَتَضَاعَفَ إِحْسَانُ الْمُظَفَّرِ إِلَيْهِ . وَكَانَ ،
مَتَى مَا أَتَى مَالِقَةَ ، نَزَلَ السُّلْطَانُ فِي دَارِهِ ، وَشَرِبَ مَعَهُ ، مَعَ تَتَوِيهِهِ بِهِ ١٠
وَالزَّيْدُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ الْأَيَّامِ .

وَكَانَ ، مَعَ تَقَرُّبِ السُّلْطَانِ لَهُ مَتَى انْفَرَدَ بِهِ أَوْ افْتَرَصَهُ عَلَى الْخَمْرِ ،
يَجْرُحُ عِنْدَهُ الْيَهُودِيَّ ، وَيَقُولُ لَهُ : « قَدْ أَكَلْتُ مَالَكَ ، وَتَمَلَّكَ بِأَعْظَمِ
مِنْ مَالِكَ ، وَبَنَيْتُ خَيْرًا مِنْ قَصْرِكَ ! قَالَهُ اللَّهُ فِي إِزَاحَتِهِ وَالتَّجَبُّبِ إِلَى
الْمُسْلِمِينَ بِقُدْرِهِ ! » وَالْمُظَفَّرُ فِي هَذَا كُلِّهِ يَعِدُّهُ وَيَقُولُ لَهُ : « لَا بُدَّ لِي ١٥
مِنْ ذَلِكَ ؛ وَأَوْكَلْتُكَ * عَلَى قَتْلِهِ ! » قَرَّبَ مَا لَفْظَ بِذَلِكَ بِمَسْمَعٍ مِنْ لَا يُؤْبَهُ ٢٠ (١)
لَهُ مِنْ صَبِيئِهِ وَالْمُتَصَرِّفِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَيَسْتَلُونَ ذَلِكَ عَلَى الْمَقَامِ إِلَى الْيَهُودِيِّ
لِيَصِلَهُمْ عَلَيْهَا . فَلَا تَزْدَادُ نَفْسُ الْخَنْزِيرِ إِلَّا حِمَاقَةً وَمُنَافَرَةً ، وَيَكَادُ أَنْ
يَمُوتَ هُمَا وَحَقًّا ، مَعَ حَسَدِهِ لَهُ عَلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي خُصَّ بِهَا دُونَهُ ؛ وَرَامَ
مَطَالِبَتَهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ بِكُلِّ مَرَامٍ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ . فَلَمَّا رَأَى أَنَّ مَنْزِلَتَهُ ٢٠
لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَرْفِيعًا ، وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَحْمِلَ السُّلْطَانُ عَلَى هَلَكَتِهِ ،

انقطع رجاؤه من كلِّ وجهٍ وقال : « إِنَّمَا اسْتَهِزَّأُونَا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ عِزِّ
السلطان ! وَأَمِنَّا هُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا بِحِمَايَتِهِ وَعِنَايَتِهِ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَقَدْ انْقَطَعَ
الرجاء : لَا سُلْطَانَ نَأْمُنُهُ ^(١) ، وَقَرِينَ سُوءٍ يَطْلُبُنَا عِنْدَهُ ، وَعَامَّةٌ تَرِيدُ
هَلَاكَنَا ، وَنَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ! »

٢٥ - إجلاء الأمير ماكسن بن باديس

وكان [اليهودي*] قد ألقى يده في عهدنا ماكسن ، رجاء منه أن
يسند إليه ؛ فكان من أشدَّ الناس عليه ، ولم يكن حوَالَيْهِ رجلٌ رشيدٌ
يُسَدِّدُهُ وَيَأْمُرُهُ بِالْمُدَارَاةِ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ مُوَاجَهَةً : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا
قَتَلْتَ أَخِي ؟ » فَعَمَلَتْ فِي نَفْسِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَ مَّاكْسَنُ مَعَ هَذَا كُفْلَهُ
١٠ سَيِّئِ الطَّرِيقَةِ ، قَلِيلَ الْبِرِّ ، خَشِنَ الْكَلَامِ ، يَبْغِي النَّاسَ بِالشَّرِّ ، حَتَّى
كَرِهَهُ أَهْلُ دَوْلَةِ أَبِيهِ وَأَبْغَضُوهُ . وَكَثُرَ عَلَيْهِ الطَّلَبُ عِنْدَ أَبِيهِ .
وكَانَتْ أُمُّهُ تَتْرَكَ مَعَامَلَةَ الْوَزِيرِ الَّذِي أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ ، وَتَعَمَّلُ إِلَى خَالِهِ :
يَهُودِيٌّ يُعْرَفُ بِأَبِي الرَّيِّعِ بْنِ الْمَاطُوفِ ، وَكَانَ قَابِضَ الْوَجِيهِ ؛ فَتَخَاطَبُهُ
أَبَدًا ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ مَالًا بِاسْمِ السَّلَفِ . فَغَارَ الْوَزِيرُ لَلَّذِكِ ، وَعَمِلَ عَلَى طَلْبِهِ
١٥ وَطَلْبِ أُمِّهِ وَحَاشِيَتِهِ ، وَافْتَرَى عَلَيْهِمْ عِنْدَ السُّلْطَانِ . وَشَهِدَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ
جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ، فَمَنْ نَقَمُوا عَلَى مَّاكْسَنَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا قَدَّمْنَا
ذِكْرَهُ . وَأَغْرَى بِهِمْ حَتَّى جَعَلَتْهُ الْأَثَنَةُ مِنْ مَكْرِهِ مَا نَقَلَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَ
بِقَتْلِ أُمِّهِ وَدَائِيَّتِهِ وَبَعْضٍ مِنْ ائِمَّتَيْهِ . وَقَتَلَ الْوَزِيرُ خَالَهُ غَدْرًا* فِي مَنْزِلِهِ ٢٠ (د)
عَلَى الشَّرَابِ خِلَافِهِ عَلَيْهِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ ؛ وَاتَّقَى مِنْهُ نَصِيحَةَ السُّلْطَانِ ،

(١) أصل : « نَأْمِنُوهُ » .

- وأعطاه على ذلك مالا جسيما ، لئلا يثرب عليه قتله . فقبل السلطان ذلك منه ، وودَّ أن لو قتلَ كلَّ يومٍ يهوديًا ، فيُغرمَ عليه مالا .
- ثمَّ أمر بعد ذلك بنفَرٍ ولده . وكان من آكدِ الأسباب في تنفيه أن يخرج السلطان يوما لعرَض الأجناد ، وقتَ الفتنَةِ مع ابن صُمادح ؛ فأتدب إليه من شيوخهم من قال له : « ما ينبغي لك أن تُقدِّمَ علينا العبيد وغيرهم ، وتتركَ مثل هذا الابنِ ! أرسله معنا ، وتنبِّعه في كلِّ مُدَّةٍ ! » يعني ما كُنْ . فعزَّ ذلك على أبيه ، مع سَخَطه عليه لما كان يرى منه وقيلَ إليه عنه ، وخاف أن يكون وراء هذا الكلام فعلٌ بأن يخلوه ويقدموا ابنه . وجزع اليهودى لذلك جزعا شديداً وقال : « ما حسبتُ نفسى في ذلك اليوم إلا مقتولا ! » فأعلمَ السلطان بهذه الوجوه ؛ وأمر على المقام بنفيه عن البلد ، ووجهه معه من عبيده من يُخرجه عن نظره كلَّه . ووصى اليهودى — لعنه الله — ذلك ^(١) العبد أن يصلَّ معه إلى موضع سماه بجميث يخفى أمره ، فيضرب فيه عنقه .
- وكان أخونا المعزُّ قد رباه جدُّه ، ونال معه الكرامات ، وأحبُّوه في حرمة أبيه . واتفق رأى الجميع مع اليهودى على قتل ما كُنْ وتولية المعزِّ ، حذرا على أنفسهم من ما كُنْ أن يثور عليهم ويماقبهم بمحبَّتهم في [ابن] أخيه وتربيتهم له . فكان من ذلك ما أمْلأوه .
- وخرج عمُّنا على أسوارِ حال ، مذعورا ، خائفا ، بغضهم يُشير بقتله ، وبغضهم يأتى إلا إزاحته عن النظر كلَّه ، حتَّى صار بيعض الطريق .
٢٠. وانحلَّ عن عُموه بهلاك اليهودى ، على ما نذكره بعد هذا .

(١) أصل : « للك » .

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبوس

(٢) من موت ابن نغالة إلى نهايتها

٢٦ — مؤامرة الوزير اليهودي ابن نغالة

ثورة صنهاجة عليه وقتله

وإنَّ الخنزيرَ — لعنه الله — لما رأى طغيان النساء ، وكلَّ فرقةٍ منهنَّ
تُريد ولايةَ مَنْ تُريُّ من أبناء السلطان ، ورأى تغيرَ مولاهُ* عليه وإيمانَ ١٢١
الناية في مطالبتِه والازديادِ في جاهِه ، لم يجدَ في الأرضَ مهزبًا ، ولا
وجد إلى التخلصِ سبيلا ، وشاورَ في ذلك مشيخته من ذوى الرأى ؛ فقال
بعضهم : « انجُ بنفسك ، وقدمْ جُلَّ مالكَ إلى أىِّ البلادِ أحببتَ ،
تستوطنها غنياً أمينا » فقال : « ذلك مُمكنٌ لولا أنَّ الرئيسَ الأجلَّ ، إن
أرسل فيَّ إلى صاحب تلك الجهة ، يقول : « ذهب وزيرى بأموالى : إما أن
تصرفه علىَّ ، وإما أن أفاتنك ! » أترى أنه يبيع الرئيسَ عني ؟ هذا
١٠ ما لا يجوز إلاَّ أن أُصيرَ إليه من البلادِ بحيث تقع الفتنة بينهما ، ونأمن
على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يمكنه إسلامى . وأنا قد وضعتُ في

يده بلادًا ومجدًا كبيرًا ! » فأتق رأيتهم على مخاطبة ابن صمادح ، وأنه الأولي لجيرته وقربه من كل أمر يحتاج إليه فيه .

وأخبرني رسول ابن صمادح ابن أرقم ، وكان قد تخيروه للرسالة ^(١) حينئذ ، قال : حضرت يومًا مع المظفر — رحمه الله — وقد خرج إلى بعض متزهاته والناية معه ، واليهودي وراءه ، حتى بصر الناية بحكيم كان للوزير ، يهودي ؛ فأمر ياهاته وإرجاله عن دابته بحضرة الرئيس ، وتوقع في ذلك ، وأبلغ في شتم اليهودي ؛ فاستعظم اليهودي ذلك وقال لابن أرقم : « حسبك هذه

الإهانة ، ولا صبر عليها ! فإن كنتم تستطيعون لي على شيء ، وإلا فلا بد من الترامي على غيركم ! » فقال له ابن أرقم : « أنت جدير بالتثبت في هذا الأمر ! وأنى ضرورة دفعتك إلينا وببديك الرعايا ، وإليك تُجبي الأموال ؟

والسلطان لم يغير عليك شيئًا أكثر من همزات هذا المطالب ! فاحتل بأن تُصاير الأمور إلى أن يموت الشيخ ، لاسيًا أنه قد أسن ؛ وتلقى يدك في حفيده المميز ، وتبقى حالك معه حسب ما كانت مع جدّه ؛ وهو أقرب إلى السلامة ! » فقال له اليهودي : « كنتُ أفعلُ ذلك لولا أن المميز صغير

السن * ، وله أمهات وطبقات جمّة من النساء والحاشية . فكيف نرجو معهم (ب) ١٥

الفلاح ؟ والحال إذ ذاك تكون على أشدّ لاختلاف أهوائهم . وقد صحّ عندي أن الصبي يحقد على ما قاله الناس من سقى أبيه . وقد أدّرت هذه الوجوه ؛ فلم يتجه لي منها أمثل من الترامي على المعتصم ! » فقال ابن أرقم : « دخلت على المظفر ، وألقيت إليه من الكلام رُموزًا ، وقلت له : « أيدك الله ! تيقظ ! فإنك لم تطعن في السن ، ولا بلغت فيه مبلغًا يولد عليك النفلة

عن دَوْلَتِكَ ! » رجاء مَنِّي أَنْ يَسْتَفْهِمَنِي عَنْ الْكَلَامِ وَأَقْصَ عَلَيْهِ بَعْضَهُ .
 فلما اليهودى وقال له : « انهضْ إِلَى ابْنِ أَرْقَمَ وَقُلْ لَهُ : « لَأَيُّ وَجْهِ
 قَالَ لِي الْآنَ : تَبْقَظْ ! » وَاسْتَفْهِمَهُ عَنْ ذَلِكَ ! » فجاءنى اليهودى وأخبرنى
 بِالْقِصَّةِ . فدهشتُ لها ومِتُّ ، ولم أَجِدْ جواباً . فَاتَّهَنَى الْخِزِيرُ ، وَخَاطَبَ
 ٥ بِأَمْرِی الْمُعْتَصِمَ وَأشارَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْمِدَنِي عَنْ الرِّسَالَةِ وَيُوجِّهَ فِيهَا مِنْ يَتَقَهُ ؛ فَسَفَرُ
 فِيهَا رَضِيْعَةً وَأَمَرَهُ بِنَسْجِ الْأَمْرِ مَعَهُ ، وَكَيْفَ الْحِيلَةُ فِي تَصِيرِ الدَّوْلَةِ إِلَيْهِ ،
 وَغَرْنَاظَةِ مَعْدَنِ الْجَيْشِ ، وَفِيهَا مِنْ صِنْهَاجَةٍ مِنْ لَا يَجُوزُ هَذَا الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ ؟ وَقَالَ
 لَهُ : « لَا تُدْخِلْ نَفْسَكَ وَلِلْمُعْتَصِمِ فِيمَا لَا يَتِمُّ وَتَفْتَضِحُ فِيهِ مَعَ الْمَظْفَرِ ،
 وَهُوَ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْفَتْنَةِ ! وَتَخْزَى مَعَهُ ، وَتَكُونُ سَبِيحًا إِلَى
 ١٠ هَلَاكِ نَفْسِكَ وَالْفَسَادِ عَلَيْهِ ! » فَرَأَى الْخِزِيرُ مِنْ رَأْيِهِ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ الْبِلَادِ
 كُلَّ مَنْ يَتَوَقَّعُ قِيَامَهُ .

وَتَخَيَّرَ مِنْ كِبَارِ صِنْهَاجَةٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ ، الَّذِينَ يَخْشَى مَعْرِفَتَهُمْ ،
 أَقْوَامًا ، وَأشارَ عَلَى السُّلْطَانِ بِإِرْسَالِهِمْ إِلَى الْمَعَاوِلِ الْهَيْمَةِ ، وَصَلَّكَ لَهُمْ بِهَا ،
 وَقَالَ لَهُمْ فِي سِرِّ الْأَمْرِ : « أَنْتُمْ إِخْوَتِي ، وَقَدْ أَخْلَيْتُمْ مَعِيَ ، وَرَأَيْتُمُونِي !
 ١٥ وَأَرَى مِنْ دَوْلَةِ هَذَا السُّلْطَانِ مَا يَنْبَغِي لَكُمْ لِإِنْكَارِهِ بِأَنْ يَقْدُمَ عَلَيْكُمْ مِنْ
 لَيْسَ مِنْكُمْ وَلَا شَأْنُهُ شَأْنُكُمْ ، وَتَبْقَى وَلَا يَتُّ عَارًا عَلَيْكُمْ وَشَنَارًا مَا بَقِيَ الدَّهْرُ ؛
 وَقَدْ نَصَحْتُ السُّلْطَانَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مَنِّي ، وَلَا يُقَدَّرُ عَلَى مُضَادَّتِهِ ؛ ٢٢)
 وَالْآنَ أَتَوَقَّعُ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ الشَّرِيفَةِ وَالْمَعَاوِلِ الْفَارِغَةِ أَنْ يَلِيَهَا مِنْ قَبْلِ النَّايَةِ
 مَنْ يَشْقَى بِهِ الْجَمِيعُ ، وَلَا يَقْدِرُ مَعَهُمْ عَلَى إِسْكَانِ الدَّوْلَةِ ، وَتَكُونُ لَهُمُ الصَّوْلَةُ
 ٢٠ عَلَيْنَا ، ثُمَّ لَا مَهْرَبَ إِلَّا إِلَى يَدَيْهِ ، فَإِذَا أَمْسَكْنَا مَعَاوِلَنَا وَكَانَ بَنُو عَمِّكُمْ
 بِالْحَضْرَةِ ، يَتَجَسَّرُ عَلَى تَبْدِيدِكُمْ ، وَكَانَ أَمْرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ هَيْئًا ، مَتَى أَرَادَ التَّغْيِيرَ ،

قتلناه ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحدنا وأمر بتنفيه على يديه ، لَجَأُ
إلى مَعْقِلِ صاحبه .»

فقبل القومُ قَوْلَه ، مع شَرهِهِم إلى ولاية البلاد ، وبأدروا إلى ذلك .
فأخرج يحيى بن يِفْران إلى مدينة المُنكَب ، ومُسكَن بن حَبُوس المَفْرَأُ
إلى جَبَّان ، ومَن سِوَاهُم إلى غيرها من القواعد . وزَيَّن للسلطان أن ذلك من
وجه النظر له ، وأنه لا يحى القواعد إِلَّا كبار الرجال ، وأن للمزولين قد
صَحَّ عنده غفلتهم وتضييعهم ، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله في هذه
المشابهة ، لِثِقَتِهِ بِهِ .

وكتب [اليهوديُّ] إلى ابن صُمَادِح يُخبره بخروج القومِ الفَوْغَاء من
المدينة ، وأنه لم يَبْقَ فيها إلا من لا يُوبَهُ له ، ويحصدهم سَيِّفُهُ إذا دَخَلَهَا ،
وأنه مَهَيَّأ لِفَتْحِ أبوابها متى جسر وطرقها ؛ وَضِيعَ النَّظَرَ في سائر
الحصون غير القواعد ، وأَهْمَلَ ما يَرْتَقِبُونَ به من الرجال والعُدَد على وجه
الغفلة ، حتى خَلَّتْ .

والمُظَفَّر ، في هذا كُلِّهِ ، لا خَبَرَ عنده إِلَّا الإقبال على الشرب والدَّعة .
فلما خَلَّتِ المعاقِل ، وصَحَّ عند أهلها ، يَأْهَلُهُم واحتجابِ السلطان عنهم ،
أنه قد مات لا مَحَالَةَ ، تصايحَت بعضُها لبعض ، وَخَلَّتْ بأقطارها ؛
وافترَصَها رجالُ ابن صُمَادِح ، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إِلَّا حِصْن
قَبْرِيَّة ، على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش .

وأرسل اليهوديُّ على المقام لابن صُمَادِح ، يُلحُّ* عليه في الإقبال إلى ٢٢(ب)

٢٠ المدينة ، وأن لا مانعَ يمنعه . فالتوى عن ذلك ابن صُمَادِح ، وجزع من
الجسر على مثل غرناطة ، إلى أن اتَّسع اتَّخَرَقُ وتَمَادَى التفاق ؛ وصار

اليهودي مُنْقَلَبًا من داره إلى القَصْبَةِ حِذْرًا من العامة ، حتى يَتَمَّ ما أُمِّل ؛
فأنكر ذلك الناسُ ، مع بُنْيَانِهِ لِحِصْنِ الخُمْرَاءِ على أَنَّهُ ، إذا دخل ابن
صُمَادِحِ البَلَدِ ، صار هو بأَهْلِهِ إليها ، إلى أن تتوطَّد الحالُ . فأنتفت العامةُ
والخاصَّةُ لمكر اليهود وما اشتهروا به من تغيير الأحوال ، ورأوا من الرُّتَبِ
٥ خِلَافَ ما عهدوه .

وللَّذِي أَرَادَهُ اللهُ مِنْ هَلَاكِهِمْ فِي يَوْمِ السَّبْتِ لَعِشْرَ خَلَوْنٍ مِنْ صَفَرٍ
[من سنة ٤٥٩] ، استعمل اليهوديُّ الشَّرَابَ تلكَ اللَّيْلَةَ مع أَقْوَامٍ مِنْ
عَبِيدِ الْمُظَفَّرِ ، كَانُوا قَدْ عَاقَدُوهُ وَاتَّفَقُوا مَعَهُ ، وَبَعْضُهُمْ فِي السَّرِّ يَشْنَأُهُ ؛
فَأَعْلَمَهُمْ بِأَمْرِ ابْنِ صُمَادِحِ ، وَأَنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْهِمْ وَمَسْوَغٌ لَهُمْ مِنَ الْقُرَى فَلَانَةَ
١٠ وَفَلَانَةَ مِنْ فَخْصِ غِرْنَاطَةِ ؛ فَاتَّجَبَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَكْمُنُ بِغَضِهِ ،
وَقَالَ لَهُ : « قَدْ عَلِمْنَا هَذَا ! فَأَخْبِرْنَا عَنْ تَسْوِيفِكَ هَذِهِ الْإِنْزَالَاتِ ،
أَهْوَى مَوْلَانَا حَتَّى أَوْ مَيِّتٌ ؟ » فَرَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ حَاشِيَةِ الْيَهُودِيِّ ، وَوَجَّهَهُ عَلَى
قَوْلِهِ ؛ فَأَنْفَ ذَلِكَ الْمَبْدُ وَخَرَجَ فَارًّا عَلَى وَجْهِهِ [وَهُوَ] سَكْرَانٌ ، يَصِيحُ بِالنَّاسِ
وَيَقُولُ : « يَا مَعْشَرَ مَنْ سَمِعَ بِالْمُظَفَّرِ قَدْ غَدَرَهُ الْيَهُودِيُّ ! وَهَذَا ابْنُ صُمَادِحِ
١٥ دَاخِلٌ فِي الْبَلَدَةِ ! » فَتَسَامَعَ لَذَلِكَ النَّاسُ أَجْمَعُ خَاصَّتُهُمْ وَعَامَّتُهُمْ ، وَأَتَوْا
عَازِمِينَ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . فَتَحِيلَ عَلَى الْمُظَفَّرِ حَتَّى أَخْرَجَهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ :
« هَذَا سُلْطَانُكُمْ حَتَّى ! » وَرَامَ الرَّئِيسُ تَسْكِينَهُمْ ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ ؛ وَاتَّسَعَ اتَّخَرَقُ
عَلَى الرَّاقِعِ . وَهَرَبَ الْيَهُودِيُّ بِنَفْسِهِ إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ ، وَاتَّبَعَتْهُ الْعَامَّةُ حَتَّى
ظَفَرُوا بِهِ وَقَتَلُوهُ . وَأَحَالُوا السِّيفَ عَلَى كُلِّ يَهُودِيٍّ بِالْبَلَدَةِ ، وَحَصَلُوا عَلَى
٢٠ عِظَائِهِمْ مِنْ أُمُومِهِمْ .

وَاسْتَأْصَدَتْ إِذْ ذَلِكَ صِنْتَاجَةً ، وَطَفَرُوا بِمَا صَنَعُوهُ عَلَى الرَّئِيسِ ، مَعَ الْفِتْنَةِ

المُضْطَكَّة* عليه من كل قطر . وكانوا هم الوزراء ومُدَبِّرِي^(١) الدولة ؛ ٢٣ (١)
والمُظْفَرُ من هذا كله تحت خوفٍ وذلٍّ ، قد حقد عليهم ما صنعوه
بوزيره ، من غير أن يَعْلَمَ بشيء من دواخله ، ولا صدق قولهم عليه ،
وسائر أمره معهم بالمدارة والصبر ، إلى أن تفتحت له البلاد ، ورجعت
طاعته إليه بما نَحْنُ نذكره^(٢) بعد هذا إن شاء الله . ٥

ولما مضى مُسْكِنٌ إلى جَيَّان ، على ما قدَّمنا ذِكْرَه ، أَلْقَى في طريقه
عَمْنًا ما كُنْ ، يحمله الصَّقْلَى ؛ فاستنقذه ، ومشى به إلى جَيَّان ، وقال :
« لا فائدة أكبر من هذا : ابن الرئيس يكون معي حُجَّةً على ما أريدُه
من مُلْكِ جَيَّان أو غيرها ؟ وسينقاد إليه الناس ، ونحصل على عظامي ! »
١٠ كاللئى كان . فَوَلَّى جَيَّانَ بِاسْمِهِ ، وصار حاكمها مع بنى عمه . وحصل
إذذاك من أموال اليهود فيها على ما لا يتحصَّل . وبقي ثأراً على أفضل حال .

٢٧ — الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادى آش

من أيدي ابن صُمَادِح

وإنَّ المُظْفَر ، لما رأى ما نزل به من كَلْبِ العدوِّ وطَمَعِ الناس فيه ،
وما حلَّ به من كلِّ وَجْهٍ ، جمع الناس وقال لهم : « ما تَرَوْنَ في أمرِ
١٥ وادى آش ، وتصيرها إلى ابن صُمَادِح ، واستحواذِه على أنظارنا ؟ »
فأجابه قواده وجملة رجاله أن : « لا دواء لهذا ، إلَّا أن تبذل الأموال ،
وتترك الدَّعة ، وتبشير الأمر بنفسك ! » فقال لهم : « مثلى ومثلُ ابن
صُمَادِح كمثل القُبعة التي كان يلزأها عشُّ إوزة ؛ فأعجبها بيضها ، فقالت :

(١) أصل : « مدبرين » . (٢) أصل : « ذاكره » .

« لأحضنّ هذا البيض ، يكون خيراً من متاعى ! » فلما رأت ذلك ،
عجزت وقصرت جفاحها عن التحضين ؛ فلما رجعت إلى متاعها ، وجدتها
قد فسدت . وكذلك ابن صمّاح : تمدّى على بلدى ، وسيخرج عنه
وعن كثير مما كان قديماً بيده ! « قعوبت نفوس الناس ، وأدّرع الحزم
والعزم ؛ وتأهبّ للمسير ، واجتمعت إليه الأجناد ، [وفرّق] فيهم العطايا .
ونازل وادى آش حتى حاصرها .

وكان فى أوّل الفتنة ، للذى * رأى من قيام رعيته وخشى خلاف ٢٣ (ر)
الجميع ، قد وجّه لابن ذى النون ، صاحب طليطلة ، يملّه بما دمه من
الأمر ، ويسأله صلالة يده به ، وأنه ما انصرف إليه من البلاد أعطاه
١٠ منها ما أحبّ واختار ؛ فسارع ابن ذى النون إلى ذلك ، ولحق به ،
وهو على وادى آش قد حاصرها وقرب مرامها ؛ واجتمع معه إلى أجل
هيئة وأنتم رتبة . وفى قصبة وادى آش ذلك الوقت وزراء صاحب التريّة
وأكابر رجاله . فاشتدّ عليها الحرب ، وكثر الإنفاق ، حتى إنه انتهت
النفقة عليها ، على ما رأيته مكتوباً بخط يد جدّى — رحمه الله — سنة
١٥ بيوت من لال دراهم ثلثية ، البيت منها ألف ألف دينار ثلثية .
وصار ذلك مثلاً فى الناس لصبره وكثرة إنفاقه .

فلما رأى من بالقصبة من أكابر أهل التريّة ما دهمهم ، وأنه لا ملجأ
لهم إلا الحرب أو السيف ، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، تحيّلوا وأرسلوا إلى
ابن ذى النون ، وهمّ على الملكة ، يملونه بما هم فيه وقطع رجائهم عن إمداد
٢٠ صاحبهم ، ويسألونه أن يتوسّط أمرهم مع الظفر ، ويأخذ لهم القفو ،
ويخرجون على سلامة ؛ ووعدوه على ذلك ، إن هو استغنىهم ، أن يصيروا

القرية ملكه . وكان ابن ذى النون من الطمع في غاية لم يفتحه إليها ملك ؛ فطمع في قولهم ذلك ، وتراعى على جدنا ، ورغب إليه ؛ فأسمفقه ، حتى خرجوا وأخلوا له القصة . وثقفها بحجة رجاله .

واستنجز ابن ذى النون وعده ، وقال : « إن الذى أريد من هذه البلاد بسطة . » فلم يكن بُدَّ للمظفر من إنجاز وعده ، وأمر بإخلاصها له .
وتفتحت للحاجب بلاد كثيرة أربت على التى انصرفت إليه .

وأرسل إليه ابن صمدح بعد ذلك ، يسأله القف والإغضاء على ما كان منه ، وأنه لا يتعرض من ذلك شيء لولا اليهودى ، وخوفاً ، إن * أهل (٢٤) (١) البلد ، أن يتعدى عليه من يخشى داخلته . وتراعى على جدنا وأتام بنفسه ليجتمع معه على ذلك ، ويمجد عقداً . ففعل وقبل اعتذاره . ويحكى أنه ، عند اجتماعه به ، كان أول ما خاطبه به : ﴿ يا أبانا ! استغفر لنا ذُنوبنا ! إنا كُنَّا خاطئين ﴾ (٢) فأجابه المظفر على البديه : ﴿ لا تتريب عليكم اليوم ! يغفر الله لكم ﴾ (٣) ! .

٢٨ — الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة

من يد ابن عبّاد

١٥

ولما صار إلى المظفر جميع بلاده ، وتوطدت له الدولة ، وكان قبل أخذه لوادى آش قد أخذ مالقة ، وقدمها قبل شغله كله ؛ وكان قائدُ عسكره إليها تلك السفرة يحيى بن يفران ؛ وكان الرجل من أكابر تلكاتة

(١) سورة يوسف : ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٩٢ .

وكان مُطاعاً في قومه ، قد شقى جدُّنا به طول مُدَّة الفتنة . ولما استأَسَدَ صِنْهاجَة ، على ما قدَّمنا ذكره بعد قتل اليهوديِّ ، ترأَّسَ فيهم يحيى المذكور ، ونال من الرئيس كثيراً في ماله وعرضه ؛ ففقد ذلك عليه ؛ وكان عازماً على أنه ، إذا انصرف من فتح مالقة ، أن ينظر في خلمه ، ويشور عليه مع بني عمه . وكان الخبر قد طرأ إلى جدُّنا . قضى الله تعالى أن مات يحيى المذكور في تلك السفرة مقتولاً في الواقعة . فقال عند ذلك المظفرُّ : « أتتُّنا في يوم واحد فرحتان : أولهما موتُ يحيى ، والأخرى فَتَحُ مالقة ! » ثمَّ نهض على اللقَام إلى وادي آش ؛ فعمل عليها ما وصَّفه . وكان ابن عباد قد دخل مدينة مالقة المذكورة قبل هذا الفتح ، وامتنعت له القَصبة لِمَا كان فيها من كفاة المتَّارِبَة ، وقائدها ذلك الوقت تَخْلُوفُ ابن مَلُول ، شيخٌ كبيرٌ من ثِقَاتِه ؛ وانتظروا قوَّةَ الرئيس صبراً منهم ، وكثرةً بقيّاً ، وأنفةً من كشفِ لحرمة الذين كانوا بالقَصبة المذكورة ، إلى أن ورد العسكرُ . وخرج إلى مُلاقاتهم من فيها من عسكر ابن عباد ؛ فمَنَحُوا عليهم الظفر ، ودخلوها عَنوةً .

- ١٥ وكان حصول ابن عباد عليها لِدَاخِلَةٍ* أهلها ومَنِيْلِهِم إليه ، اختياراً له (٢٤) بـ علينا ، على إحسان المظفرِّ — رحمه الله — إليهم ، وأنه وجدَّهم على أسوأِ حالَةٍ ؛ فأصلح من أحوالهم كثيراً ، وحلَّ قُتَّهاها ومُقرَّيها على المطايا ، وأنزلهم على أفضل التراتب ، ما كان مشهوراً عنه في الأقطار ، إذ كانوا قَبْلُ في حال قِلَّةٍ وعلى غير رتبة . ثمَّ كافأوه بما فعلوا . وبعد ظفَره بهم ، عفا عن ذلك كُلِّه ، وزاد في مَرَاتِبِهِم . ولقد اخْتُطِبَ لابن عباد مُدَّةً كونه فيها ؛ وحُكِيَ أَنَّهُ قِيلَ في الخطبة : « اليومَ اكْمَلْتُ
- ٢٠

لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۖ
فَلَمْ تَطِعِ السِّيَاسَةَ مُعَاقِبَةً أَحَدٍ مِنْهُمْ، إِذْ كَانُوا فِيهِ سَوَاءً، وَلَا يَصْطَحُّ إِسْكَ
بِلَدٍ إِلَّا بِأَهْلِهَا .

قَرَّرَ مُلْكُ جَدِّنَا قَرَارَهُ ، وَجَبَرَ الْأَمْوَالَ ، وَزَادَتْ الْحَبَايَاتُ .

٢٩ - الكشف عن أمر فنيانة وفتنتها

ولما انصرف من فنيانة^(١)، غزوته تلك الوادي أشيية^(٢)، دعا بقائديه [الناية
وعبد الله بن القروى^(٣)]، وكانا على المسكر مدة فتنة وادي آش؛ وامتنح
على أموالهم أين أنفقت: أكانت في واجب أم زيفت، ليما استعظم من
النفقة؛ وجمع القائد بين والكتبة، وكشف على ذلك غاية الكشف.
وكان الناية من أهل التجربة والفكرة في العاقبة، قد عمل هذا الحساب،
وأخرج منه نفسه: فمضى وردت أموال من غرناطة للعتقاء، يتحرى عنها،
ولا يقبض منها شيئا، ويقول للذي يأتي بها: «احملها إلى خياه الشيخ
عبد الله بن القروى؛ فهو أعلم بما يصنع، وهو أسن وأدرب» ۖ فاحتجج
الناية بهذا الفعل عند المظفر، وأتى على ذلك بالبزهان، وتبرأ منها.

- ١٥ وغضب الحاجب على عبد الله ساعثي، وأمر بنفيه .
وكان أكثر الجند يشنأ الناية على ما وصفناه، ويؤثر عبد الله لتر بيته^(٤)
مهم؛ فشق ذلك عليهم، وأدركهم من الأثقة أن خرجوا كلهم حرمة
في عبد الله، وأخلوا* عليه للحلة . وزال عنهم أكابر صنهاجة أجمع؛ ٢٥ (١)

(١) أصل: « فنيانه »، وهو تصحيف .

(٢) أصل: « الوادشية » .

(٣) أصل: « لترتيبه » .

فلم يصبح الحاجب فَنِيَانَةَ منهم معه أَحَدٌ ؛ وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَ يَرْغَبُ إِلَيْهِمْ ، وَيَفْزَعُونَهُ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ . فَأَتَى إِلَيْهِ النَّايَةُ يَرْعِدُ قَرَقًا ، وَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ .
 قَالَ الْمُظَفَّرُ فِي نَفْسِهِ : « لَا خَيْرَ لِي فِي رَدِّ هَؤُلَاءِ ! فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُهُمْ طَغْيَانًا ، وَتَجَرُّهُمْ الْعَادَةَ ، مَتَى أَحْبَبُوا الْخِلَافَ ، عَلَى أَنْ يَمْتَلُوا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ .
 ٥ وَلَا حَاجَةَ بِي إِلَى إِسْكَانِهِمْ ، وَفِي مُضِيِّهِمْ الْغَنِيمَةُ وَالرَّاحَةُ ! » فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَتَرَكَهُمْ عَلَى أَهْوَائِهِمْ ؛ فَصَارُوا قَرَقًا وَأَشْتَاتًا ، مِنْهُمْ مَنْ مَضَى إِلَى جَيَّانَ يَرِيدُ مُسْكِنًا ابْنَ عَمِّهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ انْقَطَعَ إِلَى شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ إِلَى غَرْنَاطَةَ عَلَى خِفَاءٍ ، يُرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَمْلَةِ .
 وَأَقْلَعَ الْمُظَفَّرُ عَنْ فَنِيَانَةَ وَأَتَى غَرْنَاطَةَ ، لَمْ يَنْقُصْهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ،
 ١٠ وَلَا عَدَمُ جُنْدًا . وَاسْتَوَزَرَ النَّايَةَ ، وَبَقِيَ عَلَى الدَّعَةِ وَالتَّمَكُّنِ دَهْرًا طَوِيلًا .

٣٠ — اسْتِيلَاءُ بَادِيسَ عَلَى مَدِينَةِ جَيَّانَ

وَلَمَّا تِمَكَّنَ مَاكْسَنُ مِنْ جَيَّانَ ، وَنَارَ مَعَهُ مُسْكِنٌ مَعَ بَنِي عَمِّهِ ، أَقْلَقَ ذَلِكَ جَدَّنًا ؛ وَخَافَ النَّايَةَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُمْ ، وَجَزَعَ مِنْ أَنْ يَتَفَقَّحَ مَنْ هُنَاكَ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ وَسَائِرِ الْبَرَبَرِ الَّذِينَ بِغَرْنَاطَةَ ، وَيَقْتُلُوهُ ، وَيَسْعُوا فِي وِلَايَةِ مَاكْسَنَ . وَلَمْ يَرَ الْمُظَفَّرُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لُفَاتِنَتَهُ وَجْهًا ، وَإِنْ مُسَايَرَتَهُ وَمُدَارَاتِهِ أَوَّلَى ، وَإِنْ فِي فِتْنَتِهِ مِنَ الْعَارِ وَسُوءِ الْقَالَةِ أَنْ يُقَالَ : « رَجَعَ الْمُظَفَّرُ يُكَابِدُ فِتْنَةَ ابْنِهِ ، وَإِنْ أَعْيَاهُ أَمْرٌ عَجَزَ ! » فَتَرَكَهُ عَلَى حَالِهِ ، وَرَأَى أَنَّ السُّعَى عَلَيْهِ بِالْمُدَاخَلَةِ أَوَّلَى . وَالنَّسَايَةُ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ ، خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَبْذُلُ الْأَمْوَالَ لِلْمَغَارِبَةِ ، وَيُرْسِلُ مِنْهُمْ إِلَى قَصَبَةِ جَيَّانَ مُتَخَيِّسِينَ مَنْ يَدْخُلُهُمْ .
 ٢٠

وكان مُسَكِّنٌ قد أَخْلَعَ عَمَّا مَأْكُتَن ، واستبدَّ بالرأى ، وجمع الأموال
 دونه ؛ وصار له مَأْكُتَنُ بِمَنْزِلَةِ* البازي الذي يُصَيِّدُ به ، ومَأْكُتَنُ لا يقدر ٢٥ (ب)
 على أكثر من الصبر ، إذ لا فِتْنَةَ غيرهم ، وقنع بتلك الحال لاستنقاذه له
 من الموت ، ورأى إقرارَ روحه في جسده غنيمةً ، فَضَلَّ عن طلب ما سوى
 ذلك . فلم يَزَلْ أَبَدًا يُدْخِلُ عليه بالأموال ، حتَّى استمال جميعَ مَعَارِبَةِ ٥
 القَصَبَةِ . وكان ، مُدَّةَ كونه بجيَّان ، يُخَاطِبُهُ أَقْوَامٌ من صِنْهَاجَةٍ في حُبَّتِهِ ،
 ويقولون بذلك في المحافل والمجالس سرًّا وجهرًا ، ويروون ولايته خيرًا من
 قولية العبيد عليهم واليهود ومن أشبههم ؛ قد سَمَوْا من ذلك ، وأُشْرِبُوا
 المُظْفَرُ من الشَّنَّانِ والبَغْضَاءِ ما لو استطاعوا ، لَخَلَعُوهُ . لكنَّ السَّعَادَةَ والمُدَّةَ
 ١٠ لم يقطع عليها قَاطِعٌ ! والرئيس من هذا كُلِّهِ تحتَ أَمْرِ عَظِيمٍ ، والناية
 متوقِّعٌ للقتل مساءً وصباحًا ، تكثرُ عليه الأراحيف مع الساعات ، إلى أن
 نجحت تلك المداخلة : فقام المَعَارِبَةُ بالقَصَبَةِ على مَأْكُتَن ، وخرج منها
 فارًّا بنفسه ، هو وجميع من معه ؛ وهرب مُسَكِّنٌ ، لا يلوى على شيء ،
 يطلبون النجاة بمحاشاة أنفسهم ؛ ووقع فيهم اليهتُ ، إذ لم يدروا من حيث
 ١٥ أتوا لَمَّا سمعوا النداء بالليل : « لا طَاعَةَ إِلَّا لِلْمُظْفَرِ ! » وعَجَّلَ الحاجبُ
 بِمُتَافِ جَيَّان ، واستراح من تلك الفِتْنَةِ .

ولقد حُكِيَ عن المُظْفَرِ — رحمه الله — أَنَّهُ لما تَهَيَّأَتْ له هذه
 السَّعَادَةُ ، رأى النَايَةَ مهمومًا . فسأله^(١) في ذلك ؛ فقال : « اهتَمَمْتُ
 لخلاص هذه الشَّرْذِمَةِ بأرواحهم . ولسنا نَأْمَنُ شَرَّهُمْ في البلاد ! » ومن
 ٢٠ ثَوْرٍ حَتَّى لَا يُلبَسَ هَرَاكيس ! » واسمُ وَلَدِكَ كَبِيرٌ ! » فأجابه المُظْفَرُ أَن

(١) أصل : « فقال له في ذلك » .

قال : « الذى حلّ بهم أشدُّ من القتل ، لخلاصهم ^(١) عن أوطانهم وكشفهم في انتقامهم بأهاليهم إلى من يتولّى خِدْمَتَهُمْ وَيُرْكَبُهُمْ وَيُنْزِلُهُمْ . والموتُ دونَ هذا راحةٌ ! »

فقصد ما كُنَّ إلى طَلَيْطَلَة ، وصار بها عند ابن ذى النُّون * مُكْرَمًا ،
٥ على حال الجُنْدِيَّة . وتقلَّب مُسَكِّنٌ في البلاد ، يخدم الجُنْدِيَّة . وصاروا أبايدَ .

٣١ - استيلاء الناية على بَيَّاسَة

/ وزاد جاهُ الناية بفرناطة ، وأختلَّ صِنْهاجَة ، وأظهر لهم البغض لنفاقهم
كان بزعمه على اليهودى وعلى الحاجب فى ابنه ؛ واستخصَّ بنى بَرَزَال
وأحسن إليهم ، وقرَّبهم من نفسه ، وهُم كانوا أولياءه ^(٢) وأنصاره ، وبثَّ
١٠ فيهم العطايا . وأخذ السلطانُ إلى الراحة .

ثمَّ إنَّه ، لما فُوِّضَ له الأمر ، رأى أن يجعل لنفسه ذِكْرًا وثناءً يوثر
عنه ، فى غزو البلاد ومُدَاخَلَة بعضها . فانتدب إلى مدينة بَيَّاسَة ،
وقال للمُظَفَّر : « إنَّ مُدَاخَلَة بعض أهلها عندى ا » وكانت إذ ذاك لوَلَد
مُجَاهِد . فقال له الحاجب : « لا تتعرَّض إليها ، ونَحْنُ فى دَعَا ! وكأَنَّ
١٥ والله أرى تنفق عليها الأموال ، وتُهْلِك الرجال ، ولا تُحْصَل على فائِد ا »
فألحَّ عليه وزيرُ له الأمر ، حتى أجابه إلى ما سأل ، وأمره بالسَّير ، وهَيَّأ
معه الجيش ، وأعطاه الأموال . فَرَامَ من بَيَّاسَة أمرًا عظيمًا : كلُّ ذلك
يتعذَّر من أمرها ما لا يُرَجَى به أخذُها ، حتى سَمَّ السلطان النفقة ومنع
منه المال .

(٢) أصل : « أوليائه » .

(١) أصل : « خلاصهم » .

- وكان في المجلس ممن يُطالبه بذلك رجلٌ كاتِبٌ للمظفر يُعرف بابن أضْحَى ، ويقول للحاجب : « لم تَقِمْ بِيَّاسَة وَعَشْرَة أَمْثَالُهَا بِيَعُضْ هَذِهِ النِّفَقَاتِ الَّتِي كُنْتَ عَنْهَا فِي غِيٍّ ! » وكلُّ ذلك يَتَّصِلُ بِالنَّايَةِ ؛ فَيُخْرِجُ الْمَغَايِرَ ، وَيَنْفِقُ الْأَنْغَامَ ، وَيُوجِّهُ بِهَا إِلَى مَوْلَاهُ لِيَجْبُرَ مِنْهَا بَعْضَ نَفَقَاتِهِ ؛
- فَكَانَ ابْنُ أَضْحَى يَبِيعُهَا بِبَيْخَسٍ مِنَ الثَّمَنِ ، وَيُحْضِرُ الْمَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : « أَيْنَ هَذَا يَمَّا أَتَقَتَ ؟ » فَيُخْرِجُ أَخْلَاقَ الْمُظْفَرِّ عَلَيْهِ ؛ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا النَّايَةِ ؛ وَاسْتَسْلَفَ طَعَامًا كَثِيرًا مِنْ شَبَوخِ جَيَّانَ . وَكَانَ بَانِيًا عَلَى أَنَّهُ ، إِنْ لَمْ يَقْدِرْ فِيهَا عَلَى شَيْءٍ ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ طَرِيقَهُ فَارًّا ، لَا يَنْصَرِفُ إِلَى غِرْنَاطَةِ ، إِلَى أَنْ اسْتَفْتَحَهَا بِكَثْرَةِ الْمَوَاطِبَةِ وَالْمُلَازِمَةِ ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ الصَّوْلَةُ عَلَى مُطَالِبِيهِ
- ١٠ بذلك . ودخل * المدينة في عِزَّةٍ وَرَفْعَةٍ وَإِكْرَامٍ مِنَ السُّلْطَانِ جَسِيمٍ ، مُهْدَدًا ٢٦ (ب) لِمَنْ طَالَبَهُ ، وَمُسْتَطِيلًا بِذَلِكَ مُعْلِنًا .
- وقدم إلى المظفر يقول له : « لَا أَدْخُلُ الْبَلَدَ حَتَّى تَأْمُرَ بَنِيَّ ابْنَ أَضْحَى أَوْ أَنْصَرِفَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ! » فَرَأَى الْحَاجِبُ أَنَّ نَفْسَ ابْنِ أَضْحَى أَوَّلَى مِنْ فُسَادِ عَسْكَرِهِ . فَأَمَرَ بَنَفِيَهُ ، بَعْدَ تَغْرِيمِهِ وَإِهَانَتِهِ . وَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتُ سَاعِيًا عَلَى الدَّوْلَةِ وَمُطَالِبًا لَهَا إِلَى زَمَانٍ وَلاِئِنَّا ، حَتَّى أَظْفَرْنَا
- ١٥ اللَّهُ بِهِ ، عَلَى مَا يَأْتِي ذِكْرُهُ بَعْدَ هَذَا .

٣٢ — مؤامرة ضدَّ النايَةِ ومقتله

- وإنَّ وزراءَ الدَّوْلَةِ وَكَثْرَةً عِييدها ، لَمَّا بَصُرُوا بِمَا فَعَلَ النَّايَةُ ، وَالزِّيَادَةُ فِي أَمْرِهِ وَجَاهِهِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْحَاكِمُ دُونَ السُّلْطَانِ ، حَتَّى قَالُوا إِنَّهُ طَامِعٌ
- ٢٠ بِالرِّيَاسَةِ وَالْقِيَامِ مَعَ بَنِي بَرْزَالٍ ، وَشَنَعَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، أَدْرَكَتْهُمْ مِنْهُ أَتَقَةُ

عظيمة وحسدٌ شنيعٌ . فاتفق رأيهم أجمع ، أعني ولاية البلاد : منهم ولده القاضي ، صاحبُ بآغه وابنُ يعيش ، صاحبُ قبرة ، وواصلٌ ، صاحبُ وادي آش ، والقاضي ابنُ الحسن النُبَاهِي بمآلته ، أنه متى قدم إحدى هذه الجهات ، قُتِلَ فيها ، وأُرْسِلَ في ما كُنْ — وقُدِّم — أراد والله أم لم يُرِدْ .

ثم إن النفر المذكور عملوا رأيهم ، وفكروا في العاقبة ، ورأوا أن يقتله واصلٌ العليجُ بوادي آش ؛ [فيكون ذلك] أستر لقتله وأبعد للظن بهم : فإن عاقبَ عاقبَ غلامه وتبرأوا من ذلك . فوعد واصلٌ المذكور على ذلك بالوزارة مكانه ، وضمنوا له توظيفهم للأمر عند السلطان ، حتى تهياً ذلك في دماغ العليج ، واستعدَّ لقتله ، إلى أن حدث بوادي آش أمرٌ لم يكن مبدئاً للسلطان أن يرسل وزيره فيه ، من تحصيل أموال والكشف على أحوال . فنهض في آنحس وقتٍ وأشرَّ قدر . وكان واصلٌ هذا المذكور من أكبر صنائع الناية ، وبمن أطباء بإحسانه ، وشرَّفه عند السلطان ، ورفضه من الخضيض . ففشأ الأمرُ عند الناس قبل ذلك أن واصلًا عازمٌ على قتل الناية .

وحكى لي إنسانٌ من البرزير ، قال : « نصحتُه بذلك وحذرتُه أن لا ينهض إليه ، وأن مثله لا ينزل في داره ؛ فكان من جوابه : « تريدون أن تنزعوا الرئيبَ من أنفسكم وتردوها على أصدق الناس إلى » ١ « فلما توجهَ إلى وادي آش ، ونزل في منزل واصل ، أظهر له إكراماً وتبجلاً لم يكن عليه قبل ، حتى اطمأن ، وانصرف عنه أعوانه . ولما دخل الليل في جنَّه ، أتاه واصلٌ برمحه ، وهو سكران ؛ فضربه ضربةً أفغده بها ، حتى أثرت الضربة في الحائط ؛ وقطع رأسه وطوّفه صبيحة الليلة [بأزقة مدية وادي آش

ومُنَادٍ ينادى [: « هذا جزاء من طلب ما لا يعنيه ! »

- فورد الخبر فجأةً بغرناطة ، وبُهِتَ له الناس ؛ ولم يدْرِ أحدٌ من حيث أتى ، فمنهم من يقول : « السلطان دسَّ إليه ، إذ لا يمكن لتلك العليج أن يتعدى ! » وبلغ ذلك من السلطان مبلغاً عظيماً ، وعلم أن هذا من اتفاق عليه ؛ ودخل منه في بحر طامس ، حتى أسهر ليله وامتنع من لذته . وأظهر للناس تجلداً ، وهدده الجند ، وأرسل إلى واصل بالأمان ، يأمره بالقدوم عليه ، ويشكره فيما فعل ، سياسةً منه وتوطيداً إلى أن يستبرى كيفية الحال ، وينظر لها على مهل . فزاد بذلك العليج حاقةً ، وقال مُعلنًا : « لم أَدْخِلْ يدي في هذه القضية وحدي ، حتى يساعدني عليها من لا يُنال بهم عن أحدٍ ! »
- ١٠ وأتى مُشترطاً للوزارة . وكَلَّمَ وَلَدُ القاضي المظفر في أمره وقال له : « إن هذا العبد ، وإن جنى عليك في قتل وزيرك ، فإِنَّمَا فعل حُباً منه فيك ورغبةً في قُرْبِكَ ؛ وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيتك ! » وجعل [أهل] الدولة يمتنون به ويسألون العفو له . فأحسَّ السلطانُ ذلك في نفسه ، وأيقنَ أَنَّ هذه النصبة لم تكن إلَّا عن اتفاقٍ عليه ، وحسب نفسه مخلوعاً لا محالة . فإنه ، ساعةً
- ١٥ ما قُتِلَ الناية ، أُرْسِلَ عن ما كُنَّ إلى طليطلة ، ووُجِّهَ* إليه بخاتم الناية ٢٧ (ب)
- كفى يتحقَّق قتله ، وقيل له : « ليس بغرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصدُّك ! » إلَّا أنه لم يتجاسر حتى يرى إلى ما تؤوِّل الأحوال . فكظم الحاجب هذا في نفسه ، واحترق له قلبه ؛ ودارى جميعهم ، وصوبَّ فعلَ واصلٍ ، وقال :
- « هذه نارٌ موقدةٌ ليس ينتقذني منها إلَّا إطفائها والنظر لها على سعةٍ ! »
- ٢٠ وأمرَ بتقديم واصلٍ على الخليل .

٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ما كَسَنَ ورجوعه إلى الحضرة

وَاتَّفَقَ رَأْيُ الْجَمِيعِ ، مَعَ بَعْضِ أَهْلِ قَصْرِهِ مِنَ النِّسَاءِ ، أَنْ يُدْخَلَ عَلَيْهِ ابْنُهُ ، وَيُخْلَعَ مِنْ أَجْلِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ . فَلَمَّا رَأَى الْمُظْفَرَ اتِّفَاقَهُمْ عَلَيْهِ ، وَأَحْسَنَ بِهِهِ الْمَصَائِبَ ، وَلَمْ يَرِ لِنَفْسِهِ مَعَ مَنْ يَسْتَرِيحُ ، أَرْسَلَ فِي أَبِي الرَّبِيعِ النَّصْرَانِيَّ ، وَكَانَ فِيهَا مَضَى كَاتِبَ حَشَمٍ ، قَدْ عَرَفَ خِدْمَةَ الْيَهُودِيِّ وَتَصَرَّفَ مَعَهُ ؛ فَأَرْسَلَ عَنْهُ سِرًّا ؛ وَآتَتْ كُتُبُهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَرَاغَعَ عَنْهَا بِخَطِّ يَدِهِ . فَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الشَّرِّ وَخِيَالِ الدَّوْلَةِ . فَلَمَّا أَحْسَنَ بِهَذَا وَلَدُ الْقَاضِي صَاحِبُ بَاغِهِ ، شَافَهُ الْمُظْفَرَ فِي الْأَمْرِ وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كُنْتَ تَعَزُّمُ عَلَى أَبِي الرَّبِيعِ ، فَتَحْنُ لَا تَبْقَى مَعَكَ ، وَلَا يَأْتِي أَحَدٌ حَوَالَيْكَ ! » فَأَجَابَهُ : « أَلَا أُنْقِ اللَّهَ مِنْكُمْ أَحَدًا ! » وَضَمَّ الْحَزْمَ فِي هَذَا ، لَا سِيَّامَا أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ بِيَدِهِ مَدِينَةٌ لَا يَمْلِكُ مِنْهَا مَعَهُ شَيْئًا ؛ فَعَمِلَتْ فِي نَفْسِ صَاحِبِ بَاغِهِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ ، وَتَغَيَّرَتِ الْأَنْفُسُ ، وَكَثُرَ الْإِرْجَافُ . وَاتَّفَقَ مَعَ صَاحِبِ قَبْرَةِ ، وَكَانَ صَدِيقَهُ قَدِيمًا ، إِلَى أَنْ وَرَدَ أَبُو الرَّبِيعِ .

فَاسْتَرَحَ إِلَيْهِ الْمُظْفَرَ عَلَى الْمَقَامِ ، وَأَعْلَمَهُ بِمَا حَلَّ بِهِ . وَأَتَاهُ الْمَذْكُورُ مِنْ دَانِيَّةَ ، إِذْ كَانَ بِهَا مِنْ وَقْتِ قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . فَقَالَ لَهُ أَبُو الرَّبِيعِ : « قَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا عَنْ ابْنِكَ ، وَلَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ . وَلَا قُدْرَةَ بَكَ عَلَى مُكَابَرَةِ الْعَائَةِ وَالْخَاصَّةِ ! فَالْأَيُّ فِي ذَلِكَ وَالْحِيلَةُ أَنْ تَتَلَفَى الْأَمْرَ ، وَتَوَجَّهَ فِي ابْنِكَ ، وَتَكْتُبَ إِلَيْهِ بِخَطِّ يَدِكَ بِالْعَفْوِ عَنْهُ وَلِيُثَارِكَ لَهُ عَلَى كُلِّ وَالٍ لَمْ يَصُحِّحْ لَكَ ، وَأَنَّكَ مُقَدَّمُهُ * لَوْلَا يَتَكَلَّمُ مَوْلَاكَ . فَإِنَّكَ ، إِنْ فَعَلْتَ ، هَدَّيْتَ قُلُوبَ هَذَا الْعَالَمِ ٢٨) وَتَقَمَّيْتَ مَسَرَّتَهُمْ ^(١) . فَإِذَا وَصَلَ وَلَدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، كُنْتَ فِي أَمْرِهِ بِالْخِيَارِ ،

(١) أصل : « سارم » .

وتخذمت قصته على سعة : فمكابدته ، وهو معك ، خير من مكابدة شره مع بعده ! ولست تأمن مكره حيث ما توجه ! »

فرضى المظفر ذلك من قوله ، وأرسل على المقام عنه قتيها كبيرا من قتيائه يؤمنه ويوطئه ، ويبشره بمذهب أبيه واستخلافه له ، وأنه ليس في الدولة من بنيه من يرجي لهذا الأمر سواء ، وكتب إلى ابن ذى النون يرغب في تسريحه إليه . فسر بذلك جميع الناس ، وانصرفت نفوسهم عما كانت عليه ، وطفئ العالم في محبة ما كسن ، ورجوا الخير معه ، إلى أن ورد في أنحس طالع وأنكد جد .

فأنسه أبوه ، وبذل له الأموال ، وجعل يوصيه بوصايا لم تنفعه ، أراد بذلك ضره وانصراف نفوس الناس عنه . فأول ما أمره به بالشدة والفظاعة ، وبنقض إليه صنهاجة ، وقال له : « أنت تعلم ما شقيت أنا بهم بعد حبوس ! فصل عليهم ليهابوك ، وليس في الدولة غيرك إلا بنى أخيك : فهم أطفال صغار ! » وكان ما كسن من السفه وعجز الرأي وقلة الفطنة بحيث لم يخف على أحد . فزاد على ذلك أضعافا مضاعفة . ووافق سوء طبعه مقالة أبيه : فتحكم الشر فيه ، ولم يقدم شيئا على شتم الناس والاستهزاء بهم ؛ ومن العجب أنه كان أبغض العالم فيمن أحبه وسعى فيه ؛ فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم ما لا يطيقون وما انصرفت نفوس العالم فيه إلى البغضة ، وتبين لهم من قلة عقله ؛ وأجمع * الكل على ألا خير فيه يرجي .

٢٨ (ب)

وكانت بنت عمه أم الملو طامعة بزواجه ؛ وكانت مطاعة في قومها : قد استألت أكثر نساء الجند ؛ فأول ما ابتدأ بتهجينها وشتمها ، وأنها فيما يزعم لا تصلح له . فزاد ذلك في نحسه والسنى بكل وجه عليه . وكانت كريمة

المُظَفَّرُ الساعية في خبره بعد سعيها في قتل أمه ، قد أغارت من أن يكون
ما كَسَنَ يزوج بنت عمه ، حِذْرًا منها أن تجعل منها حاشيةً وتمنع حرمته .
وانتهى من ذلك واصلَ وامرأته ؛ فقال^(١) لها : « أَيْ فائدة لك في زواج أم العُلُو؟
لكنَّ الأولى بِكَ أن تعطيه صَبِيَّةً من تربيته ، تكونين^(٢) من أجلها حاكمةً
على داره ! » ففعلت ذلك وأخرجتها إليه بأموال ، وصورت عند السلطان
أنها تُوقَّيت ، لئلا يطلبها في قصره ، باسمِ أخرى ماتت عندها .
وشقَّ على بنت عمه ذلك كله ، ورجعت تسعى عليه مع نساء البربر ،
وتدخل بين امرأة واصل المذكور ، وبين كريمة الحاجب ، وتقول لها : « إذا
أردتِ الافراد بما كَسَنَ ، فما حل امرأة العِلج على السكنى معه ؟ » فمِنعت
الدخول إلى داره ؛ فأنت لذلك . وكان مع ذلك زوجها واصلٌ يؤثر عليها
صبيَّةً كانت لها ، ويؤذيها من أجلها . فاجتمع على المرأة الغيرةُ والأنفةُ لما
طُرِدَتْ عن دار ما كَسَنَ ؛ فلم تلبث أن مضت إلى أبي الربيع النصراني :
وقالت له : « أنا أمةُ المُظَفَّرِ : فليَنظُرْ من نفسه ! فإنَّ الاتفاقَ عليه على وجه
كذا وكذا ! » وبيَّنت جميع ما راموا من غدره . فأبى أبو الربيع إلى
الحاجب مسروراً ، وقال له : « أنظُرْ كيف تبتدى سعادتك في تشيت هؤلاء
القوم ! أخبرني امرأة واصل بكذا وكذا ! ألم أقلْ لك^(٣) ؟ »

(١) أصل « فقالوا » . (٢) أصل : « تكون » .

(٣) إل هنا انتهى ما هو موجود في نسخة « مذكرات عبد الله » الوحيدة من تاريخ دولة باديس

ابن محبوب جد المؤلف .

الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن مُبَلِّق بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة

عند ابتداء إمارة عبد الله .

٣٤ — رفض مطالب الفُونش السادس واشترائه

مع ابن عمار

[..... وأما] * أَلْفُونشُ ، لما تيقن هذه الفتن ، عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ (١) ٢٩

من أَكْبَرَ سعادته وأَعْظَمَ فُرْصِهِ في طَلَبِ الْأَمْوَالِ . فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ :

أَوَّلَ مُدَاخَلَةٍ نَشَأَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ فَأَتَى بَاطِرُ شَوْلَشِ يَطْلُبُ مِنَّا ضَرِيئَتَهُ .

فَأَبَيْنَا عَلَيْهِ ، وَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى أَنَّ لَا نَفْعَ ، وَأَنَّ ضَرَرَ أَلْفُونشُ لَا يُخْشَى

وَعَبْرُنَا أَمَانَنَا ، نَعْنِي بِذَلِكَ ابْنَ ذِي الثَّوْنِ . وَلَمْ نَقِسْ أَنَّ أَحَدًا يُعَاقِدُهُ

عَلَى مُسْلِمٍ . فَانصَرَفَ عَنَّا دُونَ عَمَلٍ .

وإنَّ ابْنَ عَمَّارٍ انْتَهَزَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ؛ وَكَانَ مُنْتَظِرًا لَهُ بِبَاغِهِ ، مُرْتَقِبًا

لِمَا يَصْنَعُ مَعَنَا . فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَتِمَّ لَهُ عَمَلٌ ، أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ عَلَى الْقَامِ ١٠

وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كُنْتُمْ ^(١) مُنِيعَتُمْ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ (وهي التي سَأَلَ عَنْ

ضَرِيئَتِهِ) ، فَتَحْنُ نَعْطِيَكُمْ خَمْسِينَ أَلْفًا ، عَلَى أَنْ تُعَاقِدَ كُمْ عَلَى غَرْنَاطَةِ :

(١) أصل : « إِنْ كَانَ مِنْكُمْ » .

تمطونا القاعِدة ، ولكم ما فيها من الأموال ! » فعاقَدوه على ذلك . واتفق رأيهم على أن يبنوا على غرناطة مَقِيلًا يَضِيقُ عليها حتى تلقى يدها . وكان ابن أَصْحَى ، للذكور قبل هذا — هو المَخْرَجُ على يدى الناية — قد انحاش إليهم ، يدلُّ بهم على عَوَرات البلدة ، ويُرِيهم أَشدَّ ما يكون عليها من المَوَاضِعِ إن بُنِيَ ، ويجعل فيه ندباً للضرب والتضييق . فأراهم حِصْنَ بَلِيلِش .

وأَكْرَى ابنُ عَمَّارٍ من عسكر أَلْفُونِش ما قَوى به على البُنيان بأعداد من الأموال جسيمة ، يَسُوِّفهم فيها تارات ، وَيَعِدُّهم وَيُخَادِعهم ، حتى تمَّ البُنيان . وجعل المُعْتَمِدُ يُحَاوِلُ ذلك بنفسه ، ويبرز أبدأ على مقربة من غرناطة مدَّة كَوْنِهِ ، طمعاً في أن يَقُومَ معه أَهلُ البلدة . فلما تمَّ بُنيانُهُ ، قَوَاهُ بالندب ، وأَتَخَذَ فيه جميع الأَقْوات ، وأَمَرهم بالتضييق . وكانت الحالُ شديدةً ، ونَسِيَ به أَمْرُ القلعة .

وعند انصراف المُعْتَمِدِ عنه وعساكِرِ الرُّومِ ، عَبَّئنا عسكراً كثيراً ، ونَهَضْنَا إليه ؛ فلم نَقْدِرْ فيه على شيء . واقطع رجاء الناس من دولتنا ، لاجتماع المُطالِبِينَ عليها مع الرومى . وَتَدِمْنَا على التفريط أَوَّلًا في مُعاقَدته حَسَبَ ما سأل . وكان من أحسن شيء* على السلاطين أَخْذُ مَقِيلٍ بالسيف ؛ ٢٩ (ب) فَإِنَّهُ ، متى اعترض ، لم يَسْتَطِعْ على دخوله لمنعته وما عُدَّ فيه ، ولا على إحصاره ، حتى ينفد ما فيه لقوَّة تَأْتِيهِ ، فيَقْلِعُ عنه إلّا من كان أَقْوَى . ولم نَكُنْ نَحْنُ إلّا مُتَكَافِئِينَ فى ذلك : متى ما أُعْطِيَ أَحَدُنَا لِعسكِرٍ ٢٠ مَالاً ، وأَرَادَ الآخَرُ نَقْضَهُ ، أَرْزَى عليه وأَرَاخَهُ منه .

فكانت بَلِيلِش قد أَفْسَدَتْ ، وَضَيِّقَتْ على فَحْصِ غرناطة ؛ ولم يَكُنْ

ما حلَّ من أجلها حتى جعلنا القوتش أن نُقرم ما فاتهُ مِنّا ، تباعةً
وتذنيباً لرفضنا إِيَّاهُ ، واستدفاعاً لِمَا يُتَقى من تَماديهِ على الطَلَب . وابنُ
ذِي النون في هذا يتوسَّط له بالأمر ، ويسعى في تصيير المال إليه ، يرضيه
بذلك وينتظرُ فسادَ مَمْلَكَتِنَا ، فيَقترِصُها هو أو يأخذُ منها حِصَّتَهُ .
٥ فكان — على ما قدّمنا ذِكره — عدواً في الباطن ، صديقاً في الظاهر .
وهو مع ذلك لا يزال يُدْخِلُ قُرْطُبَةَ ، وَيَسْعَى جَهْدَهُ فيها ، إلى أن قدَّرَ
اللهُ ، وافتَرَصها عُذْراً بِمُدَاخَلَةٍ من بعض أهلها مَن لا خَطرَ له . واستُشْهِدَ
فيها ابنُه عَبَّاد [بن المُعْتَمِد] وقائدهُ ابنُ مَرْتَبِين .

فلَمَّا انقضت بَقُرْطُبَةَ هذه الدائرة ، وسمع بالخبر أهلُ يَلِيلِش ، أَخْلَوْها
١٠ على اللقَام ؛ ودَخَلها رِجَالُنَا ، وصارت في مِلْكنا مُشِيدَةً مُبِينَةً . فنَظَرْنَا منها
بالدى نصنع بِقَصَبَةِ غرناطة . وتروَّحُ نَحْنُهَا من حيث لم يُحْتَسَبُ .

٣٥ — المهادنة بين عبد الله وابن صُمَادِح صاحب التمرية

وكان قائدهُ مدينة بَسْطَةَ ابنُ مَلْحَان ، رَجُلٌ مُعْجَبٌ ، قد شَرِهَتْ
نفسه إلى رُتَبِ الملوك . وكان المُطَفَّر — رحمه الله — قد فَوَّضَ إليه أَمْرَ
١٥ البلدة عِوَضاً من أبيه . فلَمَّا صارت لنا الدولة ، وكثُر فيها آراءُ الوَزَرَاءِ ،
جعل كلُّ واحدٍ منهم يطلبه بِنال ، ويسأله مُتَاحَفَاتٍ : فمن لم يَطْلُ ،
طالبُهُ وأَذَاهُ ، مع صغر سنِّنا ؛ فلم يَجِدْ سبيلاً إلى الدِّفاع عن نفسه ،
ولا شكوى لمن يذبُّ عنه ويحميه . فترامى على ابن صُمَادِح وقبه ؛
وصارت البلدةُ إليه ؛ وعَلِمَ أَنَّهُ لا يُفَانِنَ طَوْلَ مدَّة الغِنَةِ مع ابن عَبَّاد .

٢٠ ثُمَّ إِنَّهُ غَدَرَ* حِصْنَ شِيلِش ؛ ونحن ، في ذلك كَلَهٌ ، لا نفتر عن مُخَازَنَةِ ٣٠ (١)

بالإضرار ببلده . وصار إلينا مع حصن شنت أفلج من معاقله ما وقّعت
المعلوضة به من شيلش . وصالحناه مُهادنةً وانجراراً للحال ، حتى نرى
ما نصنع مع ابن عبّاد .

٣٣ — مهاجمة ألفونشُ السادس على غرناطة

واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه .

٥

ويبقى ابنُ عمّار مُرتَهِنًا بما جعل على نفسه للنّصرانيّ من كراء بليش
في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقَطِّعُها له ، ويَعِدُّه بها . وأدْخَلَ سُلْطَانَهُ
من ذلك في تشغيب ، لأنّه كان لا يُريد أن يجعله يَخْلُدُ إلى راحةٍ لِكَيْ
يحتاج إليه في تلك الفتنة لا يقرُّ عن إدخال ضَرَرٍ على المسلمين . ومتى
١٠ ما كان الْمُعْتَمِدُ يسعى في تهدين الأمر ، ونزوم معه الصلح ، أو تنشأ
مُهادنةٌ ، لا ينامُ في نَفْسِها وإشعالِ نار الفتنة .

فعاد ثانيةً إلى النصرانيّ ألفونشُ ، وزين له أمرَ غرناطة ، وصوّرنا
عنده في صورةٍ مَنْ لا يقدر على شيء من أجل الضعف وسنّ الصبا ،
وأنّه ضامنٌ له أموال غرناطة لتَصِيرُ إليه بأمرها ، على أن يُعاقِدَهُ ،
١٥ إذ تمكن من البلدة ، أن يجعلها مُلْكَهُ ، وله ما آتَى من أموالنا . وألْقَى
يَدَهُ في ألفونشُ ، عازماً عليه في الإقبال إليها ، وأعطى على ذلك أموالاً
جسيمة ، ووعدّه بخمسين ألف منقال إذا تمت القضية ، سيعطيها زائدةً على
ما يَجِدُ ، لمُسَاعَدَتِهِ على السير .

فأذركَ الرُّومِيَّ من ذلك طمعٌ كبيرٌ ، وقال : « هذه نصبةٌ لستُ
٢٠ أخلو فيها من فائدةٍ ، وإن لم تُحْصَلِ البلدة ! وأى فائدةٍ لي في إعطاء

بلقة من واحدٍ لآخرٍ إِلَّا تَقْوِيَّتُهُ عَلَى نَفْسِي ؟ وَكَلَّمَا أَكْثَرَ الثَّوَارُ ، وَوَقَعَ
 بَيْنَهُمُ التَّنَافُسُ ، كَانَ لِي أَفْتَدَا « فَأَتَى عَلَى نَيْبَةٍ أَخَذَ مَالِ الْفَرِيقَيْنِ ،
 يَكْسِرُ رُؤُوسَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ . وَلَا كَانَ أَيْضًا فِي أَمَلِهِ أَنْ يَأْخُذَ الْبِلَادَ
 لِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ عَمِلَ فِي ذَلِكَ حَسَابًا أَنْ قَالَ : « إِنَّا مِنْ غَيْرِ الْمَلَّةِ ؛ وَكُلُّ
 ٥ النَّاسِ يَشْتَأِي ؛ فَبِأَيِّ وَجْهِ أَطْمَعُ فِي أَخْذِهَا ؟ إِنْ كَانَ مِنْ بَابِ الطَّاعَةِ ،
 فَأَمْرٌ لَا يُمْكِنُ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ وَجْهِ الْقِتَالِ ، فَيَهْلِكُ فِيهَا رِجَالِي * وَتَذْهَبُ ٣٠ (ب)
 أَمْوَالِي ، وَتَكُونُ الْخُسَارَاةُ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا نَرْجُوهُ إِنْ صَارَتْ إِلَيَّ .
 وَلَوْ صَارَتْ ، لَمْ تَتَمَسَّكَ إِلَّا بِأَهْلِهَا ؛ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُونَ ! وَلَا مِنَ الْمُتَمَكِّنِ
 أَنْ تَسْتَبِيحَ أَهْلَهَا وَتُعَمِّرَهَا بِأَهْلِ مِلَّتِي ! وَلَكِنْ الرَّأْيَ ، كُلَّ الرَّأْيِ ،
 ١٠ تَهْدِيدُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَأَخْذُ أَمْوَالِهِمْ أَبَدًا ، حَتَّى تَرَقَّ وَتَضَعُ ؛ ثُمَّ
 هِيَ تَلْقَى يَدَهَا إِذَا ضَعُفَتْ ، وَتَأْتِي عَفْوًا ، كَالَّذِي جَرَى بِطُلَيْطَلَةَ إِنَّمَا
 كَانَ مِنْ قَرَرِ أَهْلِهَا وَتَشْتَتِهِمْ ، مَعَ انْدِبَارِ سُلْطَانِهَا ، وَصَارَتْ إِلَى يَدِ
 مَشَقَّةٍ ! »

وَكُنَّا نَحْنُ نَعْلَمُ هَذَا مِنْ مَذْهَبِهِ ، عَلَى مَا كَانَ يُخْبِرُ بِهِ وَزَرَاؤُهُ . وَلَقَدْ
 ١٥ قَالَ ذَلِكَ شِشْلَانْدُ فِي حَالِ هَذِهِ السَّفَرَةِ ، وَشَافَهُنَا بِذَلِكَ ، وَقَالَ : « إِنَّمَا
 كَانَتْ الْأَنْدَلُسُ لِلرُّومِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، حَتَّى غَلِبَهُمُ الْعَرَبُ ، وَالْحَقُّومُ
 بِأَنْحَسِ الْبِقَاعِ : جَلِيقِيَّةٌ ؛ فَهُمْ الْآنَ عِنْدَ التَّمَكُّنِ ، طَامِعِينَ بِأَخْذِ ظُلَامَاتِهِمْ !
 فَلَا يَصْغُرُ ذَلِكَ إِلَّا بِضَعْفِ الْحَالِ وَالْمُطَاوَلَةِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مَالٌ
 وَلَا رِجَالٌ ، أَخَذْنَاهَا بِلَا تَكَلُّفٍ ! »

٢٠ فَكَانَ الْجَمِيعُ يُسَايِرُ الْأُمُورَ ، وَيُدَافِعُ الْأَيَّامَ ، وَيَقُولُ : « مِنْ هُنَا
 إِلَى أَنْ تَمَّ الْأَمْوَالُ وَتَهْلِكَ الرِّعَايَا بِرَحْمَتِهِمْ ، يَأْتِي اللَّهُ بِالْفَرَجِ وَيَنْصُرُ الْمُسْلِمِينَ ! »

فورد علينا من إقبال الفؤش مع ابن عمار هؤل عظيم ، وصح
 عندنا أنه لم يأت إلّا طالباً لمكنا : قد استوثق من الفؤش على ماقدنا
 ذكره . ثم أرسل إلينا يندُر بإقباله ، ويأمرنا بالخروج إليه ، يرى أنه
 يذهب إلى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشك
 أن ذلك للتقبض علينا وإنجاز ما عاهد عليهم . فاجتمع علينا أهل الرأي
 والمشورة ، وقالوا : « ما الذي تذهب إليه ؟ هذا عدو قد جاء لطابك ،
 ولا قدرة بك على مناواته ! وسواء عليك خرّجت أم بقيت ! فإن أنت
 بقيت ، حلت بك الداهية العظمى ، ووقعت المفسدة ، وأصاب مطالبك
 سيلاً إلى القتل ؛ وتكون هذه أشد من الأولى ، وقت رفضنا بطره سولس
 ١٠ وألقى ابن عمار يده* فيه حتى بنى علينا بيليش . والآن لم يتروح مخنقنا ٣١(١)
 حتى نعود إلى ما هو أدهى وأمر ؛ فلو رأت الرعايا بعض خلاف من هذا
 الجيش ، لم تبق ولا تذر لشعبة ما قد دهموا به قبل ، وكان الرجاء ينقطع ،
 وي تلف الكل حتى تؤخذ هنا باليد على غير صلح ، فلا يرقب فينا
 إلّا ولا ذمة ! فالخرج إليه أيسر لأمرين : فإن كانت سلامة ، شكرت
 ١٥ رأيك ، وثبت ملكك ؛ وإن كانت الأخرى ، كان خروجك عن
 أمان ، وصيرت حيزاً في العافية ! فاعزم على لقائهم^(١) ، وقل له قولاً
 لئنا ؛ والله أن يُنفذ قضاءه .

فاستعددنا لذلك جهداً ، واجتمعنا حوالينا من يثق به من رجالنا ،
 وأخذنا أهبة الحال ، ولقيناه على مقربة من المدينة ، وبألتنا بالضرورة في
 ٢٠ إكرامه ؛ فأعرض علينا وجهاً بسيطاً وخلقاً حسناً ، ووعدنا أنه يُجاي

(١) أصل : « لقاء » .

عنا كما يُجاي عن بلده .

ثم وقعت المعاملة ، ومشت الرُّسُل مِنَّا إليه ومنه إلينا ، يُبين ما عوقدَ عليه وأنه سيقَ سوقاً ، ويقول : « إني قد تشبَّت في الأمر ، ولم تُعجل حتى نسمع ما عندكم . فإن جاملتموني ورأيتمُ لقصدي وجهاً ، انصرفتُ عنكم على خير ، وإلا ، فما أنا مع من عاقَدني ! » وطلب خمسين ألف منقال .

فشكرونا إليه قلةً البلاد ، وأن ذلك لا يقدرُ عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفتَرِصُنا به ابن عباد ؛ فإنه ، لو أخذَ غرناطة ، قوى عُصْرُهُ ، « ولم ينطعَ إليك . فخذُ ما تقدرُ إليه ، واتركُ رَمَقاً لا نستأصل من أجله ! وما تركتُ ، تجده عندنا متى ما طلبت ! » قبل العذرَ بعد جهدٍ عظيمٍ ، وقاطعناه لقصده بخمسة وعشرين ألفاً ، نصفِ العدد ؛ ثم أعددنا له من الفرش والثياب والآنية كثيراً ، استدفاعاً لشرِّه ؛ وجَمَعْنَا ذلك كله في خِباءٍ كبير ، ودعوناه إليه . ولما رأى الثياب استحقَّرها ؛ ووقع الاتفاقُ معه على زيادة خمسة آلاف منقالٍ لِنَتَمَّ بها ثلاثون ألفاً ؛ فأكلناها له ثلثاً ينفسد الأَكْثَرُ عن * الأقلِّ . فشكر على ذلك كُلُّه ، وطابت عليه نفسه . ١١ (ب)

١٥ ورجع إلى ابن عمار يقول له : « كذَّبت لي في قولك إن غرناطة في ضَعْفٍ ، وإنَّ صاحبها من صغر سنِّه لا يعقل ! ورأيتُ من رتبها وأحوالها ما خالفَ قولك ! »

فرجع ابن عمار يسأله أن يعقدَ بيننا عقداً يُوقف عنده ، واسمَّاه على أخذِ إسْطَبَّةٍ من عندنا ؛ وكانت مَمْقُلاً عظيماً مما يلي جِهةَ إشبيلية ، قد كان أخذَه قائدُنا كِتَابُ في الفِتنَةِ . وسألناه نَحْنُ خَبرَ القلعة ؛ فوقع الاتفاقُ على أن تكونَ قلعةُ أسْطَلِيرِ عِوَصًا من إسْطَبَّةٍ . ٢٠

وكانت قاشترة ومارتش المتقين اللذين على جيان . ومن أجلهما انقطع صاحبها عمنا [ما كسن] ولم تكن لجان معنى إلا بهما . فترامى ابن عمار في أمرهما على الفونش ، ووعدته على مارتش بأمواله كأنه يشتريها منه . فعزّم علينا فيها للطمع في اللال ، ووعدنا نحن على قاشترة بالمطمر ، وكان ٥ أيضاً حصناً قد اشترك نظره مع نظرننا بيد ابن ذى النون ؛ فضمن خبره أنه يعطيه لنا عوضاً منها ؛ فدافعنا الأمر جهداً : فلم تقدر على أكثر فعل القوى مع الضيف ،

ثم إنه عقد التقديين يديه على ذلك ، وأن لا يتعدى منا أحداً على صاحبه ، وذكر فيه ما نعطى كل عام من الضريبة : فجعل علينا عشرة آلاف مثقال في العام ، وطيب لنا الكلام بأن قال : « طمع ابن عمار أن نغدر بك ؛ ومعاذ الله من ذلك أن يشيع في الدنيا أن مثلي كبيراً في الرّوم يقصدك ، وأنت كبير في جنسك ، ثم نغدر بك ! فابق على أمان ! لا أكلّفك إلا الضريبة ، توجّه إلى بها في كل عام دون مطل ؛ وإن تأخرت بها ، أتاك رسول عنها وتلزمك عليه نفقات ؛ فبادر بها ! » ١٥ فقبلنا قوله ، ورأينا إعطاء عشرة آلاف في العام ندفع بها مضرته خيراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد ، إذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرتة ، ولا وجدنا من سلاطين الأندلس عوناً عليه إلا من يسوقه إلينا لهلاكنا . فبقيت الأمور على مصالحة ومهادنة* ورفاهية ، لا يُسمع فيها بفتنة . ٣٢ (١)

٣٧ — استيلاء الفونش السادس على طليطلة

٢٠ ومّا هيأه الله أن فقدنا وسائط السوء بعد ذلك بفقد ابن عمار ، وشغله في مرسية ، وبزوال سماجة عنا وأشياعه . وتوفى قبل ذلك ابن

ذى النون عند بلوغه آماله بقرطبة ، وكانت الأندلس قد ارتججت له ، وخافه الرؤساء ؛ فلم يلبث بها يسيراً حتى مات : وكذلك الأشياء إذا تمت . وكان أهل العلم يخبرون بذلك أنه إذا حصل على قرطبة ، فقد تمت أيامه وإذا تم شيء ، دنا نقصه .

- ٥ ثم خلع من بعده حفيده ، وقام عليه أهل بلده ، ولجأ إلى الفونس ؛ فصرفه إليها على قهرٍ وغلبة ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمة ، أشدها ما جعل على نفسه في شراء حصن من الفونس على مقربة من طليطلة بمائة وخمسين ألف منقال طيبة وخمسمائة مدي من طعام ضيافة لكل ليلة مدة مقامه عليه : أخذها من أهل بلده حتى ضعفوا . ولزمها الفونس حتى صارت إليه .
- ١٠ وعوض صاحبها ببكسية ؛ ولم يعترض له مالا ولا أهلاً غير الذهب والفضة . وكان حفيد ابن ذى النون ، في أقل ولايته ، لم يقدم شيئاً على القدر بوزير جدّه [ابن] الحديدى لسعاية البغاة أعدائه ؛ وسوّلت له نفسه أن قتله لا يصح إلا على يدي قوم قد سجنهم جدّه على بصيرة ؛ فأطلقهم وسلّطهم عليه ؛ ولما تمكنوا منه ، كان كلّهم عليه أشدّ ، وصاروا طالين للنار وكانوا أقوى الأسباب في فساد ملكه ، وهم بنو اللوارىكى ، وبنو مميث ، ومن انحاش إليهم . وكان قديراً على قتله دونهم ؛ لكن العجز وضعف الرأى عمياً عليه وجه الصواب .

٣٨ — استيلاء ابن هود على دانية . بعض أخبار بنى هود

- وحصل أيضاً ابن هود على مدينة دانية بفلة صاحبها عن الرجال وحجّه
- ٢٠ في الأموال ، مع مداخلات أوتى بها من قبل وزيره ابن الرئولة ، الخارج

عنه إلى سَرَقِطَّةَ ؛ فعمل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة ، ودخل المدينة بلا مشقة ، وحصل منها على عظام من الأموال بوفرها . وكان * ٣٢ (ب) عنده وَلَدٌ مُجَاهِدٌ صَاحِبٌ دَائِيَّةٍ مَكْرَمًا حتى مات .

وَإِنَّ ابْنَ هود ، لما حصل على دَائِيَّةٍ ، انفسد طبعه ، وأدركته الرَغْبَةُ ه في البلاد ، وزال عما كان عليه من جهاد الرُّوم ، وطَمِعَ في بَلَدِيسِيَّةٍ عند ذلك ، وأعطى عليها أموالاً جسيمةً لأَلْفُونِشْ ؛ وَأَلْفُونِشْ في هذا كَلَمَةً ، على ما قدَّمنا ذكره ، يأخذ الأموال ، ولا يَحْقُقُ لأحد أن يُهاوِدَه على أخذِ بلدٍ . فتوفَّى ابن هود في إثر أخذه لدَائِيَّةٍ وبلوغِ آماله منها . وقد كان ابن أَلْفِيَّاطِ الْمُنْجَمِ ذكر ذلك كَلَمَةً ؛ ولقد قرأته في بعض كُتُبِهِ قَبْلَ أن ينقضى ، حتى رَأَيْتُهُ عِيَانًا . ١٠

وكانت قَضِيَّتُهُ في دَائِيَّةٍ كَقَضِيَّةِ ابْنِ ذِي النون بِقَرْطَبَةِ : فَإِنَّ ابْنَ هود اهتَزَتْ له الأندلس عند حصوله على دَائِيَّةٍ ؛ وجزع جميعُ الرُّؤَسَاءِ لِأَخْذِهِ لها دون قتال ولا زمان ، وأَعَدَّ كُلُّ أَحَدٍ عُدَّةَهُ مُتَأَهِّبًا لَشَرِّهِ ، إلى أن أراح الله منه ، وقبضه على فِتْنَةٍ واقْتِبَالٍ أَمَلٍ .

ثُمَّ قام من بعده ابْنُهُ الْمُؤْتَمِنُ ؛ فلم يلبث إلَّا يسيراً حتى مات . وشعر ١٥ لِلْمُؤْتَمِنِ لابن الرُّيُولِ وزير أبيه بأعمال فاسِدةٍ مع أَلْفُونِشْ ، ليتخدَّم له خدمة ابن عَمَّار ، فيرأس لئلك عنده على أهل زمانه خِدْلَانًا وطغيانًا ؛ فأمر بقتله . وتوفَّى الْمُؤْتَمِنُ ، وورثه المُسْتَمِينُ حَقِيدُهُ هذا الوالى الآن .

وكان الْمُؤْتَمِنُ رجلاً عالماً ، قد طالع الكُتُبَ ، مع ما كان عنده من الآثَارِ ؛ فرأى مَوْتَهُ قريباً . فكان لا يسرُّ بالملكة ، ويزهد في كثير من الدنيا . ولقد أخبرني بعضُ من حضر بَجَلِيسَةِ من أعلام جُنْدِهِ أَنَّهُ كان ٢٠

يُريهم ذخائره التي لم يجتمع مثلها عند ملكٍ ؛ فَيَهْتَنُونَهُ عَلَيْهَا ؛ فيقول لهم :
 « ما أصنعُ بها ، والدَّعةُ يسيرةٌ ، ولا أَدْخُلُ منها قَبْرِي إِلَّا بِكَفْنٍ ! »
 فكان يكدر قوله ذلك عليهم ، حتى مات .
 . وكان مُنْذِرٌ أخوه بدائيةً ، إِلَّا أَنَّ أَبَاهُ الشَّيْخَ لَمْ يُسَكِّنْهُ مِنْ مَالٍ ،
 ٥ حذراً منه أن يخالف على أخيه لحدّته وشدّةِ بأسِهِ . فلما توفّي المُقْتَدِرُ ،
 اضطربت الفِتنَةُ بينهما . وكان مُنْذِرٌ منهما* يَتَضَعَّضُ لَهُ وَيَتَكَافَى بِهِ ، ٣٣ (١)
 لِمَا كَانَ مِنْ إِحْسَانِهِ لِلْأَجْنَادِ وَمَوَاسَاتِهِ لَهُمْ ، إِلَى أَنْ توفّي بعد أخيه ؛
 وقام ابنٌ له صغيرٌ بعده ، يُدَبِّرُ مُلْكَهُ وَزِيرُهُ .

٣٩ — ثورة ابن عمار على المُعْتَمِدِ بِمُرْسِيَةِ

إلى أن أخرجه منها ابنُ رَشِيقِ .

١٠

أعماله بعد ذلك ومهلكهُ الشنيع

وصار ابن عمار في حَيَازِ الْخِلَافِ عَلَى الْمُعْتَمِدِ ؛ وَجَعَلَهُ يَطْلُبُ مُرْسِيَةَ ،
 واعتزاهُ عليها مشقاتٌ ونفقاتٌ أموال . وَجَرَى مِنْ أَسْرِ ابْنِ الْمُعْتَمِدِ عَلَيْهَا
 ما قد شهر . وطال مكثهُ على مُرْسِيَةِ ، يُحْزَبُ عَلَيْهَا الْأَحْزَابُ وَيَنْفُقُ
 ١٥ الْأَمْوَالُ ، يُرَى سُلْطَانَهُ أَنَّ السَّعْيَ لَهُ ؛ وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ يَجِدُّ لِنَفْسِهِ ،
 لَكِنِّي يَتَّخِذُهَا مَعْقِلًا يَرَأْسُ فِيهِ ، كَالَّذِي صَنَعَ . ولقد كان يقول أهلُ
 الْعِلْمِ بِالْآثَارِ وَالتَّأْوِيلِ : « إِنَّ مُلْكَ بَنِي عَبَّادٍ يَتَنَاهَى حَتَّى يَبْلُغُوا إِلَى تَدْمِيرِ ،
 وَمِنْ ثَمَّ يَتَمُّ هَلَاكُهُمْ . وكان الناسُ إِذْ ذَلِكَ يَتَوَقَّعُونَ عَلَيْهِ الْفَسَادَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ
 ابْنِ عَمَّارٍ لَأَمْرِهَا ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَهُ بِجِينٍ ، عِنْدَ بُلُوغِ الْكِتَابِ أَجَلُهُ .
 ٢٠ وصار ابن عمار بِمُرْسِيَةِ بِأَقْبَحِ طَرِيقَةٍ مِنَ الْاسْتِخْفَافِ بِالنَّاسِ ، وَاسْتِعْمَالِ

للعاصي ، والإدمان على الخمر ، حتَّى أَبْغَضَهُ أَهْلُهَا . وكان الْمُعْتَمِد طاعةً في معصية ؛ واشتهر بِأَخْذِ عِرْضِهِ وَهَجْوِهِ بما قد تَرَاهُ اللهُ عنه ، ففعل الأوغاد والأرذال .

وقدم إلى مُرْسِيَةَ ابنُ رَشِيْق ؛ فكان يطويها وينشرها ؛ وشَبَّكَ عليه المعاليل بقرابته ، واتَّخَذَ لنفسه صنائع مُدَّة غفلة ابن عَمَّار عنه وإقباله على راحته ، إلى أن خرج عن مرسية ، يُريد لنفسه في رسالة النصراني لِيُخْدم أَمْرَ الأنظار التي تُجَاوِرُهُ في الشرق ، وعسى يَصْعُقُها في يَدَيْهِ ، مِثْلَ شَنْتِ مَرْيَةَ ، ويسعى في إصلاح ما أَفْسَدَ عليه ابنُ رَشِيْق ؛ فإنه لم يَجِدْ إليه سَبِيلًا لِكَلْبِهِ عليه . ولَمَّا نَهَضَ إلى أَلْفُونْش ، فَأَوَّلُ ما سَمَى في تَصْغِيرِ طَلِيْطَلَّةٍ إليه بِمُدَاخَلَةِ أَهْلِهَا ، لِيَكُونُوا حَاكِمِينَ أَنْفُسَهُمْ ، رِيُوْثُوا الْجُزْيَةَ لِلنَّصْرَانِي دُونَ رَئِيسٍ . وَأَتَى طَلِيْطَلَّةٌ ، وابنُ ذِي الثَّوْنِ فيها بِاسْمِ * الرِّسَالَةِ ، ٣٣ (ب) ووافقَ على ذلك ، وَخَلَّه أَلْفُونْشُ عَلَيْهَا ، في حين صَرَفَ حَاجِبَهَا إِلَيْهَا بعد خَلْعِ أَهْلِهَا لَهُ ، لِيَبْقَى لَهُ بَوَاعِدُهُ ، ثُمَّ يَعْكُسُ عَلَيْهِ الْقِصَّةُ ، فَيُقْتَلُ . فشرعَ لَنَلِكٍ ، وغلبَ حَفِيدُ ابنِ ذِي الثَّوْنِ القَتَّةَ الْقَائِمَةَ عَلَيْهِ . فَفَرَّ مِنْهُمْ ١٥ مَنْ خَلَصَ إِلَى أَلْفُونْش ؛ وَفَرَّ ابنُ عَمَّارٍ .

ولَمَّا لَمْ تَمْ لَهُ خِدْمَةُ أَلْفُونْشِ فِي ذَلِكَ ، نَهَضَ إِلَى صَاحِبِ سَرَقُطَّةَ ، وَتَخَدَّمَ لَهُ خَبَرَ شَقُورَةٍ (وَبِهَا ظُفَرٌ بِهِ ، وَوُجَّهٌ بِهِ إِلَى الْمُعْتَمِدِ) . فَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّه اسْتَقَرَّ عِنْدَ ابنِ هُودٍ ، غَدَرَهُ فِيهَا — أَعْنَى مُرْسِيَةَ — ابنُ رَشِيْقٍ ، مع استمالته لِأَهْلِ الْبَلَدَةِ ؛ وَاسْتَحْسَنُوا وَلايَتَهُ . وَلَمْ تَكُنْ لابنِ عَمَّارٍ بعدَ ذَلِكَ رَجْعَةٌ إِلَى مُرْسِيَةَ ، وَصَارَ خَادِمًا عِنْدَ ابنِ هُودٍ صَاحِبِ سَرَقُطَّةَ . ٢٠ وَلَمَّا احْتَلَّ بِذَلِكَ الْقَطْرَ ، أَضْرَمَهُ نَارًا ، وَأَهَاجَ فِيهِ فِتْنَةً ؛ وَصَارَ سَفِيرًا

لِلإِفْرَنْجِ . وَأَثَرُهُ ابْنُ هُودَ ، وَقَرَّبَهُ ، رَجَاءَ مِنْهُ أَنْ يَنَالَ عَلَى يَدَيْهِ مَا نَالَ الْمُعْتَمِدُ ، لِذَلِكَ قَامَ لَهُ عِنْدَهُ مِنَ الطَّارُوسِ بِسَعَادَةٍ صَاحِبِهِ ، لَا بِأَعْمَالِهِ . وَكَانَتْ الْعِدَاوَةُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْتَمِدِ عَلَى يَدَيِ الرَّشِيدِ ابْنِهِ ؛ فَإِنَّهُ ، بِفُسُوقِهِ ، كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى أَوْلَادِهِ ، وَيَضَيِّقُ عَلَيْهِمْ ، وَيُسِيءُ الصَّنِيعَةَ ٥ مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه ؛ وَالْمُعْتَمِدُ ، فِي هَذَا كُلِّهِ ، يَصْبِرُ لَهُ ، وَلِأَنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَمَالَ النَّصَارَى ، وَانْدَخَلَ مَعَهُمْ بِحِيلَةٍ : فَقَى مَا دُمُ أَمْرُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ ، وَجَهَّ إِلَيْهِمْ ؛ فَيَنْجَلِي مِنْ أَمْرِهِمْ مَا يَضَيِّقُ الصَّدْرُ بِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِأَمْوَالِ رَأْسِيهِ وَسَعَادَةِ أَيَّامِهِ ، وَهُوَ يَجْهَلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَهَيَّأُ إِلَّا بِسَبَبِهِ ، وَيَرُدُّ الْحَسَّ كُلَّهُ إِلَى نَفْسِهِ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي مِمَّا أَحْنَقَ عَلَيْهِ الْمُعْتَمِدُ ، حَتَّى عَقِبَ عَلَيْهِ بِمَا كَانَ جَدِيرًا بِهِ ، وَأَمَكْنَهُ اللَّهُ مِنْهُ ، ١٠ وَجَازَاهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ مُبْدًى ، وَلَا رَأَى لغيره أَهْلًا . وَكَانَتْ شَقُورَةٌ قَدْ أَخْلَاهَا الْمُعْتَمِدُ ، وَبَنَى صَاحِبُهَا — عَيْدٌ مِنْ عَيْدِ سِرَاجِ الدَّوْلَةِ — أَنْ يَضَعَهَا فِي يَدَيْهِ ؛ فَلَمَّا صَارَ* ابْنُ عَمَّارٍ إِلَى مَرْقُوسَةَ ، نَهَضَ إِلَى الْعَبْدِ الْمَذْكُورِ ، ٣٤ (١) عَسَاةَ يَرْجِعُ إِلَى طَاعَةِ ابْنِ هُودَ ؛ فَتَنَّقَهُ وَأَرْسَلَ بِهِ إِلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَتَلَهُ شَرًّا قَتَلَهُ . ١٥

وَلَمَّا ابْنُ رَشِيقٍ بَعْدَ ذَلِكَ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخِلَافَ عَلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَاسْتَحْتَجَّ بِأَنْ قَالَ : « لَمْ يُقَدِّمْنِي إِلَى مُرْسِيَّةٍ ! » وَزَعَمَ أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اخْتَارُوهُ ، وَأَنَّ مُقَدِّمَهُ إِنَّمَا كَانَ ابْنُ عَمَّارٍ مَتَى ذَهَبَ عَنْهَا . وَسَنَدَّ كُرَّ مِنْ أَمْرِهِ بَعْدَ هَذَا ، عِنْدَ ذِكْرِ أَحْوَالِ الرُّبَاطِينِ — أَعَزَّاهُمْ اللَّهُ — وَقَصْدِهِمْ ٢٠ إِلَى لَيْطٍ ، مَا انْقَضَى مِنْ خَبَرِهِ عَلَيْهَا مِمَّا هُوَ مَشْهُورٌ .

٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية

لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلِمَ سِرَّ الْأَمْرِ كَالَّذِي نَصِفُهُ نَحْنُ . والدليلُ على ما قدَّمناه ذِكْرَهُ من ارتباطِ الْمُعْتَمِدِ إِلَى الْخَيْرِ وَإِثَارِهِ لِلصُّلْحِ بِزَوَالِ هَذَا الْفَاسِقِ ابْنِ عَمَّارٍ عَنْ دَوْلَتِهِ ، لَمْ يُرَ بَعْدَهُ فِتْنَةٌ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ وَحَقُّ مَعْنَا فِي كُلِّ أَمْرٍ ، كَالَّذِي قَعَلْنَا نَحْنُ مَعَهُ . وَجَدَدْنَا الْقَدْرَ عَلَى مَا ارْتَضَيْنَاهُ مِنْ مُعَاوَضَاتٍ ، سِوَى مَا كَانَ قَدِيمًا بِيَدِهِ ، مِمَّا خَرَجَ عَنَّا فِي أَيَّامِ الْمُظَفَّرِ ، وَأَخَذَتِ الْفِتْنَةُ عَلَيْهِ حَقَّهَا ، وَلَمْ يَوْجَدْ فِي طَلَبِ ذَلِكَ خَيْرٌ ، وَلَا إِلَى غَيْرِ الْمَصَالِحَةِ سَبِيلٌ ،

قَرَرْتُ الْأَحْوَالَ قَرَارَهَا ، وَتَهَيَّيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا بِمُلْكِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سَيْفِ بَرَانِي يَعْتَرِضُ بِلَادَنَا مِنَ الرُّومِ ؛ فَكَانَ الرُّزْءُ فِيهِ وَاحِدًا وَالْمُشَارَكَةُ سِوَاهُ ؛ وَإِنْ كُنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ بِالْإِمْدَادِ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ لضعفِ الْحَالِ ، فَكُنَّا تَشَارِكُهُ بِالْمُدَاخَلَةِ وَإِعْمَالِ الرَّأْيِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ أَمْرٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَفِيَ عَنِ الْآخَرِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

٢١ - المؤلف يتحدث عن منهجه في كتابة مذكراته

وَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنْ أَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ الْحَادِثَةِ فِيهَا ، الْمَشْهُورِ خَبَرُهَا حَسَبًا اسْتِفَاضَ ، وَتَرَكْنَا وَصْفَ الْاِخْتِلَافَاتِ ، إِذْ يَوْجَدُ الْحَقُّ فِي طَرَفٍ وَاحِدٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا مَا طَوَّلَعَ بِالشَّاهِدَةِ وَلَا بِالْمَعَايِنَةِ أَكْثَرَ مِنْ إِشَاعَةِ خَبَرٍ ، ذَكَرْنَا مِنْهُ مَا يَنْقَاسُ فِي الْعَقْلِ ، وَحَدَفْنَا مِنْهُ الْإِكْثَارَ وَالْمُشْتَبَهَاتِ . وَإِنَّهُ ، مَتَى أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِ خَبَرٍ حَادِثٍ فِي دَوْلَتِنَا مِمَّا حَاطَلَنَاهُ

أو شاهدناه* أَطَبَّنَا فِي وَصْفِهِ ، وَقَتَلْنَاهُ عِلْمًا إِلَى آخِرِهِ ، وَأَخْبَرْنَا بِسَرِّهِ ٣٤ (ب)
 عَنْ جَهْرِهِ ، وَبَارَقَ الْأَسْبَابَ فِيهِ . وَالْإِطْنَابُ فِيمَا يَحَاوِلُ الْإِنْسَانُ أَبْلَغُ
 وَأَنْعَتُ مِنْ وَصْفٍ لِلشَّاهِدَةِ لغير مَا يَخُصُّهُ ، كَمَا أَنَّ وَصْفَ الشَّاهِدَةِ ، وَإِنْ
 كَانَ لَا نَعْنِيهِ ، أَبْلَغُ مِنْ ذِكْرِ الْمُسْتَفَاضِ الَّذِي لَمْ يُوقَفْ عَلَى حَقِيقَتِهِ ؛ فَإِنَّمَا
 يُذَكَّرُ مِنْهُ مَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، ثُمَّ يَجْتَزِي وَاضِعُهُ عَلَى أَنْ يَضَعَ فِيهِ مِنْ عَقْلِهِ
 ٥ دُونَ الْأَغْلَبِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَامَةِ ؛ فَيَصِيرُ مُكَذِّبًا .

ولهذا ما اختَصَرْنَا مِنَ الْكَائِنَاتِ لِلشُّهُورَةِ بِالْأَنْدَلُسِ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
 عَنْهَا ، وَاقْتَصَرْنَا عَلَى الْإِطْنَابِ فِيمَا يَخُصُّنَا مِنْهَا ، مِمَّا حَاوَلْنَاهُ أَوْ رَأَيْنَاهُ عَيْنَانَا .
 وَالْحَقِيقَةُ مِنَ الْخَبَرِ عَوْنٌ كَبِيرٌ عَلَى مَا يَرُومُ الْإِنْسَانُ مِنْ صِفَةٍ فِي مَنْظُومٍ
 ١٠ أَوْ مَثْنُورٍ ، كَالْمَادِحِ أَوْ الذَّمِّ ؛ فَإِنَّهُ ، إِذَا وَجَدَ إِلَى الْقَالَ سَبِيلًا ، أَطْنَبَ
 وَأَبْلَغَ ، وَإِنْ كَانَتْ بَعْضُ زِيَادَةٍ ، فَإِنَّهَا لَا تُمْكِنُ إِلَّا فِي الْأَغْلَبِ وَالْأَكْثَرِ ،
 وَيَكُونُ فِي ذِكْرِ الْأَمْرَيْنِ مُصَدِّقًا لِمَعْرِفَةِ النَّاسِ بِهِ ؛ وَلِأَنَّ رِكَابَنَا لَمْ يَكُنْ
 مَبْنِيًّا إِلَّا عَلَى وَصْفِ تَمَلُّكِنَا خَاصَّةً ، « وَالْحَدِيثُ ذَوْشُجُون » ؛ فَلَا بُدَّ
 مِنْ ذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنْ غَيْرِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى وَصْفِهِ أَوْ ضَرْبٍ مِثْلِهِ بِهِ ،
 ١٥ تَزِينًا لِلْكَلَامِ وَإِقَامَةً لِلْبُرْهَانِ وَدَوْرَانًا عَلَى الْحَقِيقَةِ .

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن مُبَلِّق بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب
(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢ - عزل الوزير سِمْجَاة

ثمَّ إجلالُه واستقلال عبد الله في الأمر

وإنه ، لما تهَدَّتْ لنا الأحوال وقرَّ مُلْكُنَا قَرَارَه بِمُصَالَحَةِ الْمُعْتَمِدِ ،
وَمُعَاقَدَةِ الرُّومِ عَلَى الْمُهَادَنَةِ ، وَتَوَطُّبِ النَّفْسِ عَلَى مَا نَعْطِيهِ ^(١) فِي الْعَامِ ،
انصرفَ نَظَرُنَا إِلَى إِصْلَاحِ أَمْرِ بِلَادِنَا ، وَالْفَتْشِ عَلَى رَعِيَّتِنَا ، وَالْكَشْفِ
عَلَى الْعُمَالِ إِنْ كَانُوا عَادِلِينَ أَوْ ظَالِمِينَ . وَلَمَّا شَعَرَ بِذَلِكَ خَدَمَتُنَا وَمَنْ كَانَ
لَهُ مَذْهَبٌ فِي نَصِيحَتِنَا ، اتَّعَدَّ جَمِيعُهُمْ إِلَى الْإِعْلَامِ بِمَا عِنْدَهُ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى
مَا خَفِيَ عَنَّا زَمَانَ تِلْكَ الْفِتْنَةِ ؛ فَكُنَّا لَا نَقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ عَلَى الْآخِرِ إِلَّا بَعْدَ
رُويَةٍ وَهَجُومٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، حَذَرًا أَنْ يَكُونَ مَقَالُ أَحَدِهِمْ حَسَدًا لِلْآخِرِ
أَوْ طَلَبًا لَا يُتَّقَى اللَّهُ فِيهِ . ١٠

وكان سِمْجَاة ، وزيرُ دَوْلَتِنَا التَّقْدِيمِ ذِكْرَهُ ، قد شَعَرَ بِذَلِكَ وَأَحْسَنَهُ
مِنَّا ؛ فَاغْتَمَّ لِلْأَمْرِ* وَعَمِلَ فِي نَفْسِهِ ، وَشَكَاهُ إِلَى إِخْوَانِهِ ؛ وَكَانَ فِيمَا قَالَ (١) ٣٥
لَهُمْ : « إِنَّمَا كُنَّا نَطْمَعُ بِالتَّحْكُمِ عَلَى هَذَا الرَّئِيسِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ دَوْلَتِهِ مَدَّةً

(١) أصل : « نطموه » .

- أيام صبوته ، يعنى صغر سنه . وأما الآن ، فلسنا نجد سبيلاً إلى رده
عن دولته ، لا يقنعة تحمينا ، ولا بصغر سن نجد به السبيل إلى صرفه عند
العامّة وتسفيه رأيه ، لاسيّما إذ كان رأيه النظّر من دولته والبحث عنها .
ف قيل له : « لست ^(١) نجد سبيلاً إلى أكثر من المداواة له ، والإتيان لمرغوبه ،
وقلة الخلاف عليه لئلا يتمكن عدوك منك ، ويشقى حاسدك عليك . فهو ،
إذا وجد منك الذى يرغب ، لم يلبث أن يُبلّغ النظّر والخدعة ويُفوّض
الأمر إليك ! ثم أنت بالخيار عند غفلة وإقباله على راحته ! وعليك
بإشغاله بالنساء ، وعجّل له ابتياع الرقيق ! ولسنا نأمن أن يكون يشاك من
تحجيرك هذه الشهوات عليه ؛ فإنه نظنّ به ما يُظنّ بمن كان فى سنه ا »
١٠ ففعل ذلك . وكانت هذه الفترة التى دبرها من سعادتنا وتمكيننا من
آمالنا فى الذى ذهبنا إليه من الاستبداد بملكنا ؛ فإنه شبك علينا المعاقل
ببنى عمه ، وأشدّها علينا مدينة المنكب . فجعل يطلق لنا العنان فى كل
ما نريده ، واشترى الرقيق ، وجعلنا نخرج إلى الزاهة فى البلاد ، يرى
بذلك الإنصاف والتأنى ، إذ كان الرجل متدبّتا ، خائفاً من سوء العاقبة ،
مع أنه كان خائفاً من قبل ذلك من أجل كُتب استعملها على ألسنتنا
١٥ أقوام من أعدائه إلى طائفة من صنهاجة يأمرؤن فيه بقتله ، ونحن براه
منها ؛ فظفر بالكُتب ، وأنزل بنا التهمة ، وأمر بقتل أولئك المسمّين فى
الكُتب ، وغيرهم ممن اتهم من كرائم باديس — رحمه الله .
وكانت تلك المعاني مقدمات تُغازله لعزّله . فلما كانت وجهتنا إلى
٢٠ وادى آش عن اختياره ، وقد كنتُ علمتُ معتقده فى ذلك كله بالقياس

(١) أصل : « ليس » .

والتيّز مع بعض الأخبار ، قلتُ في نفسي : « هذا رجلٌ قد اعتاد الأمرَ * ٣٥ (ب) والنهي ، ورأى من يَظُنُّنا للدولة ما لم يكن يُريده ؛ وليس فعله هذا بهواه ؛ وكلُّ شيء يضطرُّ فيه الإنسان ، فإلَيْهِ لا يؤمن خلافه ، والرجعة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبداً نكابد منه ما لا يوافق ! وإن فاتتني هذه المرة ، أَكُنْ كَمَنْ نُبِّهَ على أمرٍ وحذر من نفسه ، ثم أوبق نفسه إلى المضرات . وإن أغضينا هذه المرة وعاد إلى ما كان ، ثم تَرى منه خلافاً ، لم تقدر عليه بشيء ، إذ يكون نظره لنفسه أجود من هذا النظر ، فإن هذا الأمر منا جاءه فجأة لم يحتسبه ولا ظنَّ به ؛ والفَرَصُ ثَمَرُ مرَّةٍ السحاب ! فادْمُنَّا ^(١) نَحْنُ بالخيار عليه ، لا نتربص حتى يكون هو بالخيار علينا ! » ١٠

فأراد إشاعة عزَّلتِه بالحضرة عند إمكانِ السَّفر ؛ فلم تَرَلْكَ وَجْهاً إلَّا ونَحْنُ خارجون عنها ، ليكون أشتع في الناس وأقطع لِيَأْسِ الرعايا ، مع أُنِّي ، إذا حركتُ هذا بالحضرة ، دخلتُه الصَّنَاعَةُ ، وكتم عن الناس ، وشغبت امرأته من الدار . فلما وصلنا وادي آش ، جعلتُ من يدوس إلى الرعيَّة أن ترفع بمظالمها ؛ وكان عاملها ابنُ أبي جوش ، صَنِيعَةٌ سَمَّاجَةٌ للذكور ؛ فأمرتُ عند شكواها ١٥ بتقافه . فأنكر الناس ذلك ، وهان عليهم أمره . وجمعتُ الرعايا والوزراء ، وحددتُ لهم حَدًّا يَقِفُونَ عنده إلَّا يجعلوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ واسِطَةً ؛ وأمرته هو بالانزام ما يَحْصُهُ لنفسه ، وأن لا وزير لدَوْلَتِي إلَّا نفسي ؛ وحددت لكلِّ خادم ما تكون طريقته أن لا يتعدى سِوَاهَا . فسرَّ بذلك جميع الوزراء ، ٢٠ إذ تساوت أقدامهم ، وانكشف حِجَابِي لهم ، لكي تكون حوائجهم إلى

دون مَنْ هو مثْلهم أو دونهم . واغْتبَط الرعايا بعزلة الظلَّة عنهم . وعزلتُ كلَّ من يُتهمُ بِخِيَانَةٍ ، وقدَّمْتُ مُحمَّلاً إلى الجهات ، أريدُ تجديد الدولة . وعزلتُ بنى عمِّه من الحصون ؛ ولقد كان فريقٌ منهم ، لما جمَّعوا بذلك ، يفرُّون منها ويترُكونها حتَّى يوجَّهَ إلى جُنْدُها عن قائدٍ . ولم نَلَقَ في ذلك * كلُّه مَشَقَّةٌ . ولم يَنَقَ إِلَّا ابن عمِّ له ، صاحبُ المُنْكَبِ ؛ ٣٦ (١)

فَجَزَع ، إن تَرَكَه ، أن يوجَدَ إليه السبيل بسبِّيه ؛ فأخبرني بالأمر ، وسألني لإرسال قائدي إليه ، فعزل . وسأل زَاوِي زوالَ أخيه بَلْبَار عن وادي آش . فكان ذلك كلُّه على أُنْكَن سعادة وأجود تقدير ، للذي شاء الله من تمام أَيَّام وِزَارَتِهِ .

١٠ ثمَّ أَمْنْتُهُ في نفسه ، وأَبْقَيْتُ عليه جميعَ أمواله إِلَّا الذهب والفضَّة ، وسوَّغْتُهُ إِنْزَالاً ينعاش فيه ، وأمرتُه بلزوم مجلسي وأَنَّهُ مُكْرَمٌ طولَ حياتي . قَبَّلَ الرجلُ ذلك كلُّه ، وأطاعنا في كلِّ أمر أَرَدْنَاهُ دون خِلَاف ولا إظهارٍ لَمَعْصِيَةٍ ؛ فَإِنَّه كان جزوعاً ، قليلَ الجرأة على العظام ، ولأنَّه لم يَجِدْ قِتَّةً تُعِينُهُ . وَلِنَقِي بذلك أَمْنْتُهُ في نفسه ، ومضى عليه دَهْرٌ طويلٌ على لزوم المجلس دون خِدْمَةٍ ، فلم يَتْرُكْهُ . ١٥

وخاف منه مَنْ سعى في أمره من أهل الدولة ، وتوقعوا منه العودة ؛ فلم يَزَالُوا يُعْرُونَ به ، وينقلون عنه من قبيح القول ، ويخافون من مغبة أمره ، ما لم نَرِ معه وَجْهاً لإمساكه في البلدة ، احتياطاً على أنفسنا ؛ ورُبَّمَا كدحت بعضُ تلك الأقاويل ، فَهَلَكَ من أَجْلِهَا . ولا اسْتَطَعْنَا حينئذٍ ٢٠ على مُعَاقَبَتِهِ لِمَا ارتكب في صَدْر الدولة من قَتْل أولئك النساءِ وَمَنْ جرى مجرَاهُنَّ ، لشركته في ذلك مع سِوَاهُ من شيوخ تَلْكَاتَانَةٍ ؛ فيسوه ظنُّ

الجميع ، وتفسد من سببه الأحوال ؛ فلا يقوم فسادُ المملكة وسوء عاقبة الأمر بما يلزم من إقامة الحدِّ . فرأينا من الصواب أن يرتحل عنا دون تغيير ولا إبلاغ في عقوبة ، استمالةً لأنفس الناس ، وبَسْطاً لأموالهم . فخرج بجميع أثنائه وخدمته ودوابه وجميع ثيابه وفرشه ، مشيعاً إلى التمرية . فكان المعتصمُ يُكرمه من أجلنا ، ولا يئسُ أن نصرّفه إلى منزلته ، فيقدم ذلك الإكرامُ عنه . وخرّجت امرأته بجحلي كثيرٍ من الجواهر ، حاشى ما خفى عنا من المال ؛ * وإنما صار إلينا ما أعطيناه بأيدينا من الذهب والفضة أوّل ولايتنا ، وقت فتّح بيت المال ؛ ولم تتحقّق ما اكتسب منها مدّة خدمته لنا ، ولا بحشنا عن ذلك .

١٠ ٤٣ — النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية .
تعاقب أحداثه وحلّه

ثمّ قمنا من بعده في أمور البلاد والرعايا بأحسن قيام وأتمّة ، وجعلنا الأمناء على البحث والتعقب ورفع المظالم إلينا . ودام الأمرُ على ذلك دَهراً طويلاً .

١٥ وإِنَّهُ ، في إثرِ مَضَى سِمَاجَةِ للذكور إلى التمرية ، بَلَفْنَا أَنَّهُ حَقَّرَ الدولة لابن صُمَادِحَ وطَمَعَهُ فيها ، لِيَأْ كَانَ يَرَى من طمع الرجل الذي قد شهر به — رحمه الله — ؛ فَإِنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الطمع ، قليلَ الجسر ، ضعيفَ المنة . فعمل قَوْلُهُ في نفسه ، وَرَجَا أَنْ يَنَالَ على يَدَيْهِ فُرْصَةٌ بِمُدَاخَلَةٍ أو إِدْلَالٍ على مَوْضِعٍ فَائِدَةٍ ، كالذي تَهَيَّأَ لَهُ مع اليهوديِّ .

٢٠ ووافقَ ذلك أن وَقَعَتْ بين قائِدى النَظَرِ ما بين فِتْنِيَانَةٍ وَالْمُنْتَوِرِي

مُشَاجَرَةٌ عَلَى الْجِهَاتِ ؛ وَلَمْ يَتَيْمًا حِيَازَةً ذَلِكَ النَّظَرُ إِلَّا بُنَيَّانِ الْمُتَنَوِّرِي
 الْمَذْكُورِ . وَقَدْ كُنْتُ ، عِنْدَ وَجْهِهِ إِلَى فَنِيَانَةٍ ، أُرْسِلْتُ إِلَيْهِ رَسُولًا يَعْلَمُهُ
 بِوَرُودِي عَلَيْهِ ، وَسَأَلْتُهُ تِلْكَ الْقُرَى لِلصَّاقِبَةِ لَهَا وَإِنَّهَا أَوْلَى بِذَلِكَ الْمُتَعَقِّلِ
 لِقُرْبِهَا ، وَتَطَارَحْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَكَارِمَةِ بِهَا ؛ فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِ لِلرَّسُولِ :
 « هَيْهَاتَ ! لَيْسَتْ ^(١) تُمْلِكُ الْأَقْطَارُ إِلَّا بِالْبُنْيَانِ وَالسَّيْفِ ! » فَلَمَّا عَلَتْ مُهِمُّ
 ذَلِكَ الْحِصْنِ عَلَى الْعَرِيَّةِ ، وَبَلَغَنِي مَا كَانَ مِنْ تَطْمِيعِ سِمَاجَةٍ ، وَتَذَكَّرْتُ
 مُرَاجَعَتَهُ عَنِ الْقُرَى ، أَغْضَبَنِي ذَلِكَ وَلَمْ نُؤَخَّرْ أَنْ عَاجَلْنَا بُنْيَانِ ذَلِكَ الْمُتَعَقِّلِ .
 فَقَامَ عَلَى الْمَقَامِ بِالْحِدِّ وَالْقُوَّةِ ، وَجَعَلْنَا فِيهِ حُمَاةَ الرِّجَالِ ؛ وَضَاقَتِ الْعَرِيَّةُ
 مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَاحْتَبِيجَ إِلَى بُنْيَانٍ مَعَاقِلَ غَيْرِهَا ، تَوَقَّعًا أَنْ نَسْبِقَ إِلَيْهَا ،
 ١٠ فَيَكُونَ عِوَضًا عَنِ الْمُتَنَوِّرِي . فَقَامَ بُنْيَانُهَا عَلَى سَاقٍ ، وَصَارَتْ كُلُّهَا حَرْزًا
 لِلجِهَاتِ الَّتِي لَنَا ، وَأَقْفَالًا عَلَيْهَا ، وَضَرَرًا عَلَى جِهَاتِ الْعَرِيَّةِ . فَعِيلَ بِالْأَمْرِ ،
 وَضَاقَ بِهِ ذُرْعًا ؛ وَكَانَ لَا يُوجِّهُ * عَسْكَرًا إِلَى مَوْضِعٍ إِلَّا هُزِمَ ؛ وَأَسْرَنَا ٣٧ (١)

كِبَارَ رَجَالِهِ عَلَى طُرُقِشِ .

وَكَانَ عِدَّةٌ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ سَبْعَةُ حَصُونٍ . وَكُنْتُ مَعَ هَذَا أَمْرٍ ^(٢) أَهْلَهَا
 ١٥ بِالرَّفْقِ وَحَرْزِ جِهَاتِهَا أَلَّا يَتَطَرَّقَ إِلَيْنَا طَالِبُ شَرٍّ . وَإِنِّي إِنَّمَا يَكْنِيَتْهَا صَوْلَةٌ
 وَتَهْيِيبًا ، حَتَّى نُصَالِحَ الرَّجُلَ عَلَى مَا يَقَعُ بِمَوَاقِفَتِنَا ، وَيَعْرِفُ أَقْدَارَنَا .
 وَإِنَّهُ ، لَمَّا ظَهَرَ مِنْ كَلْبِ الرُّومِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مَا ظَهَرَ ، وَرَأَيْتُ نَفْسِي
 ظَافِرَةً مَتَى رُمْتُ مَعَ ابْنِ صَمَادِحٍ فِتْنَةً ، وَتَيَّيَّنَ لِي ضَعْفُهُ عَنِ الْمُنَازَرَةِ ،
 صَرَفْتُ نَفْسِي عَنِ التَّمَادِي وَالْإِلْحَاحِ ، وَقُلْتُ : « أَنَا فِي مِثْلِ هَذَا مُدْرِكٌ ! »
 ٢٠ لَا يَفُوتُ مِنَ الْأَمْرِ مَتَى أَرَدْنَاهُ شَيْءٌ . وَحَسْبُنَا مَا قَدْ ظَهَرَ إِلَيْنَا ؛ فَلَا يُبْقَا

(١) أصل : « ليس » . (٢) أصل : « نأمر » .

أُولَى ، وإصلاحُ الأمر مع الجار - وجارٌ ضعيفٌ يُبْقَى عليه - خَيْرٌ من تَهْيِئَتِنَا لِقَوِيٍّ لَا يُرَامُ ! ولقد كان المظفرُ على بصيرةٍ من إتيائه لدولته وإبقائه عليه ؛ ولنا فيه أسوةٌ وقدوة ! »

فصَالَحْتُ الرَّجُلَ ، وَأَمَرْتُ بِهِدْمَ تِلْكَ الْحِصُونِ ؛ وَنُشِرَتِ الْمَرْيَةُ مِنْ كَفْنٍ . وَتَمَكَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَدَنَا ، وَصَارَ أَصْدَقَ النَّاسِ لَنَا :
وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكْدَّرَا
فَلَمْ نَزَلْ مُتَعَاذِينَ مُتَشَارِكِينَ فِي الْحُلُوِّ وَالْمُرِّ إِلَى انْصِرَامِ الْأَجَلِ ،

٤٤ - توجيهِ عسكر ضدَّ تميم بن بُلَيْقَيْن صاحب مَالَقَةَ
وأخى المولَّف ، ونصره إِيَّاهُ

- ١٠ نَحْمُ لَمْ نَلِثْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَنَا مِنْ أَخِينَا تَمِيمٍ خِمَةٌ لَمْ نَحْتَسِبْهَا
بَعْدَ أَنْ رَأَى ظَهْرَنَا ، وَصَلَحْنَا مَعَ سَلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمَا صَنَعْنَاهُ بِجِهَاتِ
الْمَرْيَةِ ، لَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ هَذِهِ الْحَالَةِ وَالْحَالَةِ الْأُولَى ، لَغَرَارَةِ الصَّبَا وَقَتِ اصْطِكَكَ
النِّتَنِ وَالشَّعْلِ الشَّاعِلِ . فَحَسِبَ الزَّمَانَ كُلَّهُ وَاحِدًا . وَلَمَّا سَكَبَتْ عَنْهُ قَبْلُ ،
لِهَذِهِ الْعِلَّةِ عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذَكَرَهُ مِنْ بَدْءِ أَمْرِهِ ، تَمَادَى عَلَى تِلْكَ الْأَفْعَالِ . فَأَرْسَلَ
١٥ قَطَائِمَهُ إِلَى حَرْبِ الْمُتَكَبِّ وَشَاطِطٍ ، وَخُويلَةَ فِي إِثْرِهَا لِلضَّرْبِ عَلَى النَّظَرِ
لِلْمُصَاقِبِ لَهَا . وَأَتَانِي أَهْلُ تِلْكَ الْجِهَاتِ شَاكِينَ بِالْأَمْرِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
« هَذَا إِنْسَانٌ لَمْ يُبْصِرْهُ النَّهْرُ ، وَلَا حَكَمَتْهُ التَّجَارِبُ : وَمَتَى تَرَكَنَاهُ * عَلَى ٣٧ (ب)
هَذَا ذَاتِبًا ، وَلَمْ نُؤَدِّبْهُ عَلَيْهَا ، تَمَادَى شَرُّهُ ، وَحَسِبَ أَنَّ ذَلِكَ لِهَيْئَتِهِ ؛ فَازْدَادَ ،
وَلَا تَنْفَعُ فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَلَا قِيلٌ ! » فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ تَأْدِيبِهِ وَزَجْرِهِ ، فَإِنَّ الشَّيْءَ تَحْقَرَهُ
٢٠ وَقَدْ يَنْبَغِي ! وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِغْضَاءُ لِمَعَانٍ تَوَقَّعْتُ ، وَانْتَظَرْتُ بِهِ لِحَسَنِ الْعُودَةِ

ورؤية البصيرة . فإذا قد يَتَسَنَّا من هذا وأَمِنَّا ما يُشْغِلُنَا عنه ، فَتَرَكْهُ على هذه الضلالة من العجز والخرق ! »

وَوَافَقَ ذَلِكَ الزمان اشتغالُ الْمُعْتَمِدِ بأمرِ الْفُونَشُ ؛ فَإِنَّهُ نَازَلَ إِشْبِيلِيَةَ لِنَبَاتِاتِ
تَسَبَّبَ بِهَا ؛ وَضَاقَتْ الْحَالُ مِنْ أَجْلِهِ . فَاتَّفَقَ الْأَمْرُ وَتَهَيَّأَتِ الْأَسْبَابُ عَلَى حِينِ
٥ غَفْلَةٍ وَاتِّهَازِ فُرْصَةٍ . فَهَضُنَا بِأَنْفُسِنَا إِلَى ذَلِكَ الْقَطَرِ ؛ فَوَاللَّهِ ! مَا سَمِعَ بَنَا أَهْلُ
حِصُونِهِ ، وَلَمْ تَتَذَكَّرْ بِالْخُرُوجِ صَبِيحَةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، حَتَّى وَرَدَ عَلَيْنَا عَنْ حِصْنِ
الْقَصْرِ بِجَهَةِ صَالِحَةٍ أَنَّهُ صَارَ فِي مِلْكِنَا وَطَاعَتِنَا رَعِيَّتُهُ ؛ وَهُوَ حِصْنُ أَوَّلُ مَنْ
يَطُوعُ وَآخِرُ مَنْ يَعْصِي لَدَوِي الْعَلْبَةِ وَالظُّهُورِ ؛ فَاسْتَبَشَرْنَا بِذَلِكَ ، وَصِرْنَا إِلَى
الْحِمَّةِ ، نَزَّوْمُ مِنْهَا أَمَرَ ذَلِكَ النَّظَرِ . فَأَعْلِمْتُ بِصَخْرَةِ دُومِسَ (وَلَا مَعْنَى
١٠ لِرِيَّتِهِ إِلَّا بِهَا ، وَهِيَ مُوسَطَةُ الْبَلَدِ) ، وَقَدْ اجْتَمَعَ فِيهَا جُلُ عَاكِرٍ مَالِقَةٍ مَعَ
قَوَادِ صَاحِبِهَا ؛ فَلَوْ انْتَزَعْتَ تِلْكَ الشُّوكَةَ ، كَانَ أَمْرُ غَيْرِهَا يَسِيرًا هَيِّنًا .
فَاسْتَعْدَدْنَا لِقَاتِلَهَا ، وَضَارَبْنَاهُمْ فِي أَوَّلِ النَّزْوِعِ عَلَيْهَا . فَجَزَعَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْجُنْدِ ،
وَأَرْسَلُوا إِلَيْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ يَطْلُبُونَ الْأَمَانَ ، وَيَخْرُجُونَ بِخَيْلِهِمْ سَالِمِينَ فِي مَهْجِهِمْ .
فَأَجَبْتُهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، عَسَى أَنْ نَكُونَ نَسْتَمِيلَ غَيْرَهَا بِهَذِهِ الْأَيَادِي ؛ وَأَخْلَوْا
١٥ الصَّخْرَةَ ، وَصَارَ فِيهَا جُنْدُنَا .

وَانْتَقَلْنَا عَنْهُمْ إِلَى حِصْنٍ كَانَ صَاحِبُهُ مَالِقَةً قَدْ بَنَاهُ لِقَطْعِ الطَّرِيقِ بَيْنَنَا
وَبَيْنَهُ أَوَّلَ قِيَامِهِ ، عَلَى مَا رَسَمْنَاهُ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَاعَةً قَدُومُنَا عَلَيْهِ وَتَحَاذَلَ
مَنْ فِيهِ ، وَدَخَلَ قَسْرًا ، وَهُوَ حِصْنُ أَشْتَدِّيرِ . ثُمَّ نَهَضْنَا إِلَى مَرِيَّةَ بَلَشْ ؛
فَأَلْقَتْ يَدَهَا . وَأَرَدْتُ التَّمَادِي إِلَى بَزْلِيَانَةٍ .

٢٠ وَكَانَ كِتَابُ * بِنُ تَمِيمٍ صَاحِبُ أَرْجُدُونَةِ ، قَائِدُنَا ، قَدْ اسْتَفْلَكَ (١) ٣٨
فِي تِلْكَ الْجَمْعَةِ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَتَعَزَّلُ إِلَيْنَا . فَلَمَّا رَأَى ظُهُورَنَا فِي هَذِهِ الْمَعَاوِلِ ،

خاف أن يَصْقَوْا الجُوءَ ويصرف البال إليه ، فرام أن لا نَصِلَ إلى بَزِيَّانَةَ وحذر من ذلك . وكان وراءنا حِصْنٌ مُنْت مَاس ، رأيتُ أنه لا تَمَكَّنْ لَنَا مُنَازَلَةً مَالَّةً إِلَّا بِالرَّاحَةِ مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ الْمِرَّةَ إِلَى الصَّحَلَاتِ . فانصَرَفْنَا مِنْ بَزِيَّانَةَ نريدُ مُنْت مَاسَ الْمَذْكُورَةَ ، وأظهرنا لَكِبَّابَ الْأَخْذِ بِرَأْيِهِ ؛ فَسَرَّ بِذَلِكَ . ٥

ولما نهضتُ إلى مُنْت مَاس ، رأيتُ مُعَقِّلاً عَظِيماً ، قد اجتمعت به جميع الرعايا ؛ فَعَرَضْنَا عَلَيْهِمُ الطَّاعَةَ ؛ فَأَبَوْا ، خِيفَةً مِنْهُمْ أَنْ نَكُونَ عَدَاً نُهَالِحُ أَخَانَا وَيُعَاقِبُهُمْ ؛ فَأَمَّا نَحْنُ مِنْ ذَلِكَ . واجتمع فيه كلُّ فَاسِقٍ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ ، وَأَعْرَضْنَا عَلَيْهِمُ الْحَرْبَ بِأَنْفُسِنَا ، وَتَرَكْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَرَتَبْنَا عَلَيْهِمُ الرُّتَبَ ١٠ وَانصَرَفْنَا إِلَى غَرْنَاطَةِ . وَفِي انصِرَافِنَا ، طَاعَتْ لَنَا غَيْرُهَا مِنَ الْعَاقِلِ ، مِثْلُ أُيْرُشَ وَصَخْرَةَ حَيِّب . وَكُنَّا فِي أَوَّلِ وَجْهَتِنَا قَدْ أَخَذْنَا رِيْقِنَةَ بِالسِّيفِ قَسْرًا ؛ وَطَاعَتْ لَنَا جُطْرُونُ ؛ وَهُمَا قَصَبَتَا مَالَّةً . وَطَارَتْ فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ عَنْ يَدِهِ عَشْرُونَ مُعَقِّلاً . وَانصَرَفْنَا إِلَى مُنْت مَاس ثَانِيَةً ؛ وَيُسُّوْا مِنْ تَرَكْهِمْ ، وَطَاعَ أَهْلُهَا ؛ وَتَقَبَّلَتْهَا ؛ وَهَدَمْنَا مِنَ الْحِصُونِ مَا نَسْتَعْنِي عَنْ إِمْسَاكِهَا ١٥ بِنِيرِهِ ؛ وَأَمْنَتُ الْجِيَهَةَ وَبَحَثْتُ عَنْ فَوَائِدِهَا ، وَصَارَ ذَلِكَ مُقَيِّدًا ؛ وَأَوْسَقْنَا أَهْلَهَا خَيْرًا .

ولما رأى أَخُونَا مَا دَهَمَهُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَقِيَامَ رَعِيَّتِهِ عَلَيْهِ ، خَافَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ أَهْلِ الْبَلَدِ ، مَعَ تَبَرِّزِنَا نَحْنُ عَنْ مَالَّةً فِي حِينِ أَخْذِ مُنْت مَاس . وَاشْتَغَلَ بَعْضُ النَّاسِ بِقِتَالِ انْحَازُوا إِلَيْهِ دُونَ مَوْضِعِنَا ، وَتَبِعَهُمْ أَكْثَرُ عَسَاكِرِنَا ، فَاتَّهَزَ أَهْلُ مَالَّةِ الْفُرْصَةِ ، لَمَّا رَأَوْهُ مِنْ قَلَّةٍ مَنْ فِي الْمَوْكِبِ مَعَنَا ، وَخَرَجُوا ٢٠ عَلَى بَابِ فُنْتَنَالَةَ ، وَحَلَوْا عَلَى * الْعَسْكَرِ حَمَلَةً اخْتَلَطَ فِيهَا الْفَرِيقَانِ . وَلَمَّا رَأَيْتُ ٣٨ (ب)

٥ فرار من معنا واختلاطهم بجند مالقة ، أمسكنا على العلامات ، وأمرنا بضرب الطبل بعد توليه ، حتى اجتمع إلينا بعض الناس لما رأوا ثبوت العلامات . ثم كانت لنا عليهم الكرّة ، بعد أن أسير بعض رجالنا ؛ فأنشدهم ، وهزموا عسكر مالقة ؛ وكان بها من جند البربر نحو ثلاثمائة فارس أنجاد ، إلا أن الحزم دأخلهم ، ونزع إلينا أكثرهم .

ولما رأى بعض من معنا تلك الهزّة ، أشار علينا بالانصراف ، وخوفنا من تقوية ابن عباد أن تدخلها ما لا يمكن ؛ فقلتُ : « إن الانصراف على هذه الحالة عجزاً وسيشيع في الجهة كلها أن رجوعنا لم يكن إلا عن هزيمة ! فالأولى أن نكسر يومين نبرز فيها كل يوم في الموضع الذي التخصت فيه الخيل ، نريهم : إن كانت بكم قدرة ، فعادوا ما فعلتم ! » وثقتُ العسكر ثلثاً يطيش منه أحد . فكان ذلك . وأقلعنا بعزة حتى وصلنا نظرتنا على أتم ما يمكن . ولو رجعنا أول تلك الوهلة ، خلت جميع المعاقل التي طاعت لنا ، وكاننا ما صنعنا شيئاً .

١٥ فبيّنت الحال ضيقة على مالقة . وأرسل إلينا أخونا ، يستعطف ويسأل العفو وإقالة العثرة . فدبرنا أمره في أنفسنا ، وعلمنا فيه رأياً سديداً ، وعلمنا ما هو عليه من الحرص والشر والحدة ، وأن صرف المعاقل إليه تقوية لشره ، وأنه ، إن عاود بما كان عليه ، لم تقدر له على شيء ، ولا تطوع بعدّها رعيته إن أردناهم بعد ، لما يرون من إسلامنا لهم إليه ، وخافوا أن يُعاقبهم ، مع ما كانوا ينعمون عليه من سوء الطريقة معهم ، يُعلنون بذلك ؛ وأخذوا منا ميثاقاً غليظاً ألا نُسليمهم إليه ، وعاهدناهم على ذلك بأيمان مغلظة . وظهر من أقاويلهم أنهم ، متى ردّوا إليه ، لم

يُجِيبُوا* ، وأدخلوا الداخلة ، وصيروها إلى رئيس غَيْرَنَا . فَخَفْنَا مِنْ هَذِهِ ٣٩ (١)
الوجوه ما يجب أن يتوقع .

ثُمَّ لَمْ تَرَ وَجْهًا فِي الْإِلْحَاحِ عَلَيْهِ ؛ فَرُبَّمَا أُخْرِقَ ، وَصِيرَهَا إِلَى مِوَانَا ،
كَالَّذِي صَنَعَ مَا كَسَنَ غُنًا بِجَيَّان ؛ فَكَوْنُ مُصِيبَةٍ لِلْبَلَدِ ، وَعَارًا عَظِيمًا ،
٥ مِنْ تَوَلِيحِ أَخِينَا وَشَقِيقِنَا إِلَى غَيْرِنَا ، وَتَغْرِيبِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَأَمَّهُ فِي قَيْدِ الْحَيَاةِ ؛
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ ، فَأَبْقَيْنَا عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَدْبَنَاهُ^(١) بِمَا كَفَى ، وَوَسَعْنَا عَلَيْهِ فِي
النَّظَرِ مِمَّا لَمْ تَبْقَ فِيهِ مِنَ الرَّعِيَّةِ ، وَكَانَ مُهِمًّا عَلَيْهِ ؛ وَأَخَاتِنَا لَهُ رُبَيْنَةَ
وَجُطْرُونَ ؛ فَإِنَّ رَعِيَّتَهَا نَصَارَى ، وَهُمْ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى نِفَاقٍ
مَعَ أَحَدٍ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قُرَى يَتَسَّعُ فِيهَا لِمُرَافِقِهِ . وَبَقِيَتْ يَدُهُ حُصُونُ الْغَرْبِيَّةِ
١٠ مِثْلَ قَرْطَمَةَ ، وَمِيشَشَ ، وَحَارِشَ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قَامَرَةَ ، بَلَدَ الزَّرْعِ ، لِيَتَسَّعَ
فِيهَا لِلْحَرْثِ . وَحَرَمْنَاهُ غَيْرَهَا ، الَّتِي يَتَوَقَّعُ مِنْ أَهْلِهَا وَمِنْهُ : إِنْ اسْتَأْسَدَ
بِهَا ، لَمْ يَوْثَمِنْ شَرَّهُ .

وَبَقِيَتْ حَالُهُ فِي أَفْضَلِ الْأَحْوَالِ ، مَارَضِيَتْ بِهِ الْوَالِدَةُ وَحَمْدَهُ جَمِيعُ
النَّاسِ ، صِلَةً لِلرَّحِمِ ، وَعَفْوًا عَنِ الْقُدْرَةِ ، وَتَأْدِيبًا لِمَا يَخْشَى عَاقِبَتَهُ . وَقَرَّ
١٥ حَالُهُ قَرَارَهُ ، وَنَفْسُهُ فِي هَذَا عَلَيْنَا حَاقِدَةٌ ، تَبْلُغُنَا عَنْهُ أَقَاوِيلَ سَيِّئَةٍ ؛
وَنَحْنُ لَا نَمْرُجُ عَلَيْهَا وَنَقُولُ : « إِضْرَارُهُ بِالْقَوْلِ خَيْرٌ مِنْ إِضْرَارِهِ بِالْفِعْلِ ،
لَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ الْعَاقِلَ ! وَعَلِمْنَا أَنَّهُ فِي عَافِيَةٍ وَنِعْمَةٍ طَائِلَةٌ مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ
الَّتِي تَرَكَ جَدُّهُ بِمَالَقَةٍ ، لَمْ يَحْجُجْ قَطُّ إِلَى نَفَقَةٍ دِرْهَمٍ مِنْهَا ، وَلَا نَالَتَهُ فِتْنَةٌ ،
وَلَا بَلَّغَتْهُ مَكْرُوهٌ ؛ وَكُنَّا نَحْنُ أَمَامَهُ نُقَاتِلُ عَنْهُ الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ ، وَنُعْطِي عَنْهُ
٢٠ الْجِزْيَةَ ، وَهُوَ فِي دَعَاةٍ ؛ فَإِذَا كَانَ يَدُهُ فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ لِقَلَّةِ تَمَوُّنِهِ وَاحْتِيَاجِهِ

(١) أصل : « ودبناه » .

إلى نفسه في التَّوَنُ^(١) والنِّفَاقَات ؛ فَإِنَّ هَذَا كَثِيرٌ ، وَهُوَ تَحْتَ نِعْمَةٍ ! »
 فَطَابَتْ أَنْفُسُنَا عَلَى ذَلِكَ . وَكَفَّ هُوَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ يَرْكَبُ مِنَ الْقَتْلِ
 وَالظُّلْمِ ، حَتَّى أَنَّهُ لَا يَرِدُنِي مِنْ عِنْدِهِ رَسُولٌ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ أَوْ جُنْدِهِ* ٣٩ (ب)
 إِلَّا وَيُوصِي أَنْ نَشُدَّ يَدِي عَلَيْهِ ، وَيَقُولُ لِي : « بِتَأْدِيبِكَ لَهْ فَلَحْنَا وَكَفَّ
 عَنَّا ، وَإِنَّهُ ، مَتَى يَأْمَنُ مِنْكَ أَمْرًا ، طَعَى عَلَيْنَا ، وَشَقِينَا بِهِ . وَمَا فِي الدُّنْيَا
 أَشْعَرُ مِنْكَ فِي إِمْسَاكِ تِلْكَ التَّعَاقِلِ عَنْهُ ؛ فَإِنَّكَ كُنْتَ بَعْدَ هَذَا لَا تَلْجِمُهُ
 أَبَدًا ! » فَخَرَجَتْ الْأُمُورُ خَيْرَ خَرَجٍ ، وَأَمَّا جِهَتُهُ بِسَرِّهِ فِي مَكَانِهِ ، وَلَمْ
 نَفْجَعْ فِيهِ أَمَّهُ .

٤٥ — ذِكْرُ ثَوْرَةِ كِبَّابِ بْنِ تَمِيمٍ وَثَوْرَةِ بَنِي تَافِقُونِ

وَنَهَايَتُهُمَا

١٠

وَإِنَّ كِبَّابَ بْنَ تَمِيمٍ ، قَائِدُنَا بِأَرْجُذُونَةَ وَأَنْتَقِيرَةَ ، لَمَّا رَأَى ظَهْرُنَا
 عَلَى مَالِقَةَ ، أَكْبَرَهُ ذَلِكَ وَشَقَّ عَلَيْهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ مَنْجِرٌ إِلَيْهِ ، إِذْ
 كَانَ قَدْ أَضْمَرَ نِفَاقًا وَطَاعَةً فِي مَعْصِيَةٍ ، لِمَا تَأَسَّسَ لَهُ هُنَاكَ فِي حِينِ الْفِتْنَةِ
 مِنْ ضَمِّ الْأَطْعِمَةِ ، وَالِاسْتِحْوَاذِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بِقَطْعِهِ السُّبُلِ ، وَانْقِطَاعِ
 أَهْلِ الشَّرِّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ قَطْرِ . وَكَانَ أَمْرُهُ مِنْ ذُنُوبِ سِمَاكِجَةٍ عِنْدَنَا ،
 الَّتِي سَوَّغَهُ الْبَلَدُ ، وَجَعَلَهُ مِلْكًا فِي يَدِهِ وَيَدِي بَنِي عَمِّهِ ، حَتَّى شَقِيَ بِهِ .
 وَلَمَّا تَمَّ صَلُحُنَا مَعَ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ ، خَالَفْنَا فِيهِ ، وَجَعَلَ يُفْسِدُ وَبِقُبْضِ
 مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَقْرُءُ عَنِ الضَّرْبِ . فَجَعَلْتُ أَقْدِمُ إِلَيْهِ التَّرَّةَ بَعْدَ
 الْمَرَّةِ ، وَأَنْذَرُهُ عَاقِبَةَ اتِّبَاعِ هَوَاهُ ، وَأَقُولُ لَهُ : « إِنَّ لِلْمُصَالِحَةِ وَقْتًا يَنْبَغِي

(١) أصل : « الفتون » .

للسوء حفظها ؛ فإذا أفسدتها ، فأنت من المطالبين لي ا « فلا يزدجر مع هذا كله ، ولا ينفع فيه وعظ ، لإجابه وتحمقه . وكانت كتب المعتد أبداً ترد بالشكوى منه ؛ فأضمر لنا من كفه غائلة . وكانت من سعادتنا أنه لم يجعل المعاملة مع أحد القريقتين .

- ٥ فلما طال الشكوى به ، قلت لرسول المعتد : « لا أستطيع على عزل كباب إلا بالمجاهدة في مؤاسدته ؛ فإن استوتقنا منكم أن يترأى عليكم ولا يقبلوه ، فنحن ضامنون لمرزله ا « فارتبط معي على أن لا قبل له رجعة ولا يُقال له عثرة . فألحختُ على كباب في أن ينزل عن المعتلين ، ثقةً مني بما ربطته مع المعتد ، فزاد طغيانه ، وخاطب على المقام إلى ابن عباد ،* يرغب في تصير الحصون إليه . فأرسل إلى المعتد بكتابه ،
- ١٠ وحضني على شد اليد عليه والراحة منه ؛ ففعلت ذلك . وهذا مما تقدم ذكره من إنصاف المعتد لنا وقلة خلافه علينا منذ فارق ابن عمار ، كالذي أجملنا نحن معه في أمر بياسة ، وقت نفاق أهلها وأرسلت كتابهم إليه . وإن كباباً قبل ذلك ، لما رأى صديقنا بمالقة ، على ما قدمناه ، نظر
- ١٥ - في زعمه - لنفسه وقال : « هذا ما صنع بأخيه ا وطاعت له الرعايا ا فكيف بن هو عبد من عبيده ؟ » وأحسن ذلك في نفسه ابن تافنوت ، صاحب مدينتنا ؛ وكان امرء سوء ، كثير الطغيان ، بعيداً من الخير ، مؤثراً للشر ، وكان له أخ بمصن جريشة ، قد سوغه أيضاً سماجة إقليم نيمش كله ، وطال مكثه في الحصن سبعة أعوام ؛ فسوّلت له نفسه ، مثل ما أضمر
- ٢٠ كباب من النفاق ؛ فتعاقدنا جميعاً ونحالنا أن لا ينزل أحدهما إلا بعزلة الآخر .

فشعرتُ للأمر ؛ فأولُ ما ابتدأتُ به النَّظَرُ في أمر ابن تافنوت ، إذ كان أهمَّ علينا من أجل مدينتنا التي كانت بيده ، وجريشة بيد أخيه . ورأيتُ معاقدةَ المُعْتَمِدِ عليه آكدَ ، إذ علمتُ من حَنَقِهِ على كَبَابِ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ لَهُ مَعْدَرَةٌ . فَعَامَلَنِي عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا بِأَحْسَنِ مُعَامَلَةٍ ، وَتَسَرَّحَ بِسُكْرِهِ قُوَّةً إِنْ اِحْتِيجَ إِلَيْهِ لِحَرْبِ جَرِيشَةٍ ، وَشَارَكَ غَايَةَ الْمِشَارَكَةِ فِي التَّوَسُّطِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولَهُ ، يَقُولُ لَهُ : « إِنْ كُنْتَ جَزَعْتَ مِنْ رَيْسِكَ ، فَاتْرُكْ حِصْنَهُ ! وَأَضْمَنْ لَكَ عَنْهُ الْحَالَ الصَّالِحَةَ وَالْأَمَانَ وَالْإِحْسَانَ ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تَتَّقِي بِهَذَا كُلَّهُ ، فَانْزِلْ إِلَيَّ بَعْدَ أَنْ أُعْطِيكَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ إِلَّا أَسْلَمَكَ إِلَيْهِ أَبَدًا ! » فَمَا كَانَ جَوَابُهُ إِلَّا إِنْ قَالَ : ١٠ « وَمَا تَصْنَعُونَ بِالْحِصْنِ ؟ » قَالَ : « أَصِيرُهُ إِلَى صَاحِبِهِ ! » فَأَبَى وَقَالَ : « إِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ الْمُعْقِلَ بِيَدِ مَنْ يُذِيْقُهُ الشَّرَّ وَيَتَوَلَّى فِتْنَتَهُ ! »

فَأَتَانِي ابْنُ* الْأَصْبَحِيِّ رَسُولُ الْمُعْتَمِدِ ، التَّوَسُّطَ لَخَبَرِهِ ؛ فَقَالَ لِي : ٤٠ (ب) « اعْزِمْ عَلَى مُنَازَلَةِ الرَّجُلِ ! فَلَيْسَ فِيهِ إِلَى الْخَيْرِ طَرِيقٌ ؛ وَهُوَ مَتَأَهَّبٌ لِلشَّرِّ ، لَا يَقْنَعُهُ إِلَّا الْإِصْرَارُ بِكَ ! » وَكَانَ فِي هَذَا كُلِّهِ يَقْطَعُ الشُّبْلُ ، وَيُخَيِّفُ النَّاسَ ، وَيَقْتُلُ أَهْلَ الرَّقَقِ ، وَيُطْلِعُ أَمْوَالَهُمْ إِلَى الْحِصْنِ ، مَا كَانَ أَشْهَرَ فِي النَّاسِ مِنَ الشَّمْسِ ، حَتَّى لَا يَتَجَرَّأُ أَحَدٌ أَنْ يُمْتَازَ بِشَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْجِهَاتِ .

فَاسْتَخَرْتُ اللَّهَ عَلَى مُنَازَلَتِهِ ، وَمَكُنْتُ عَلَيْهِ سِتَّةَ أَشْهُرَ ، لَا بُدَّ لِي عَمَّا نَفَقَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ ، إِلَى أَنْ رَقَّتْ حَالُهُ ؛ وَأَنَا فِي هَذَا كُلِّهِ أَقْدَمُ إِلَيْهِ وَأَبْلَى الْعِذْرَ عِنْدَهُ ، وَأَخُوهُ فِي ثِقَافِي . وَأَمَرْتُ أَخَاهُ بِأَنْ : « اكِتُبْ إِلَيْهِ أَنَّ مَتَى أَخَذْتُهُ عَلَى غَيْرِ عَهْدٍ ، بَرَحْتُ بِقَتْلِهِ ؛ وَإِنْ كَانَ نَزَلَ عَلَى الْأَمَانِ قَبْلَ

أخذه ، ولو بساعة ، لم يتوقع مئتي شيئاً I « فوالله I ما تردُّ عليه هذه الكتب إلا ويزداد طغياناً وشتاً وحقاً ، حتى يسرَّ الله أخذه ، ودخل الحِصْنَ ، وكفى الله شرَّهم ، وطهرهم من البلاد ، وأراح منهم العباد .

وشاورت كبارَ البلدة وقمهاءها في خبرهم ؛ فخيروني في الذي حضَّ الله عليه من قوله تعالى^(١) : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية . فرأيتهم مستوجبين للصَّلب ، وأنه أذهى وأمرُّ من أن يُنفوا من الأرض . فإن شرَّهم لا يؤمن . وكثيراً ما كان المسلمون مُرتقبين لما حلَّ بهم I ووالله I ما صرفت وجهي لأحدٍ خاصة وعامةً من أهلِ بلادى إلا ووصف لي من أفعالهم القبيحة ما وترواها جميع الناس . ولقد كان يومُ قتلهم للناس عيداً كبيراً من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرِّهم .

- وإنَّ كَبَّابَ بنَ تَمِيمَ المذكور ، لما رأى ما صنعَ بيني تأقنوت ، زاده ذلك حماقةً واستيحاشاً ، وخاطبَ المُعْتَمِدَ على ما قدَّمنا ذكره . فأرسلنا إليه نُعرض عليه التخلُّ عن المُعْقِلَيْن ؛ فأبى ذلك ، وأعدَّ ، واستعدَّ
- ١٥ بِاللَّهِ الحرب ، وضمَّ الحُرَّاسَةَ وأخاف السُّبُلَ ، وقطع* الطُّرُقَ وأتى بما هو مشهور من شرِّه . فاستخَرْتُ اللهَ على مُنازلته ، وأمرتُ بضمِّ الأجناد واجتماع الأنداب لقتاله ؛ فكان ذلك على أتمِّ ما يمكن . ولما أحسنَ من نفسه بالضعف ، وأتته لا ملجأً له ولا مهزَّبَ إلى أحدٍ بقلةِ إقبال السلاطين عليه ، تراءى علينا ، وسأل العفو ، خوفاً أن يحلَّ به ما حلَّ بيني تأقنوت
- ٢٠ إذ لم يقبلوا الأمان قبل العلبة ؛ فأعطيته من العفو ما سأل ، ليكون ذلك

قدوة لمن سألَ مِنَّا التَّقْوَى بعد الإساءة ، فلا يَيْئَسُ من فعلها ، إن دفعنا إلى مثلها بعدها ؛ وكانت الأولى عِظَةً وشُعْفَةً لمن تَفَرَّ ، ولم يقبل الأمان ، وتمادى على الطغيان .

وَكُنَّا لَا نُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا نُؤَخِّرُهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَّا بَعْدَ رُؤْيَا وَفِكْرَةٍ ٥
 فِي الْعَاقِبَةِ ، وَنَدْعُ مُشُورَةَ النَّاسِ ؛ فَإِنَّا بَلَوْنَا مِنْهُمْ قَلِيلًا مِنَ التَّحْقِيقِ ، وَالنُّطْقِ عَلَى الْهَوَى : فَإِنَّمَا مُقْتَنُونَ بِأَمْرِ يُزَيِّنُهُ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا كَارِهِ تَخْيِيرٍ أَوْ مَطَالِبٍ لِأَحَدٍ ، فَيَجْعَلُنَا نَحِيرَ عَنْ مَا لَا يَطَابِقُ هَوَاهُ ، وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ ، لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ^(١) . فَلَمَّا بَلَوْنَا مِنَ النَّاسِ هَذِهِ الشَّمَائِلَ ، وَأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَحِبُّ أَنْ تَجْرِيَ الْأَحْكَامُ عَلَى اخْتِيَارِهِ ، رَجَعْنَا إِلَى إِثَارِ اخْتِيَارِنَا ، إِذْ كَانَ نَظَرُنَا لَأَنْفُسِنَا أَرْسَدَ مِنْ نَظَرِ غَيْرِنَا ؛ « وَمَا حَكَ ظَهْرَكَ مِثْلُ ظَهْرِكَ » ^(٢) .

وَكُنَّا مَعَ هَذَا نَصْنَعُ إِلَى قَوْلِ النَّاسِ بِالْأَذْنِ ، لَا بِالْعَقْلِ ؛ فَتَقِيسُ عَلَيْهِ وَنَحْتَبِرُ مُرَادَهُ ، وَلَا نُزِيهِهِ الْخِلَافَ ، فَتُوحِشُهُ ، غَيْرَ أَنِّي أَوْسِعَ لَمْ صَدْرِي وَيَسْعُ جَهْلَهُمْ حِلْمِي ، وَأَقْضَى بَعْدَ ذَلِكَ مَا أُرِيدُ ، إِذْ لَمْ أَكُنْ عَلَى أَمْرٍ مَجْبُورًا وَلَا مَقْهُورًا ، إِلَّا مَا قَهَرْتَنِي عَلَيْهِ السِّيَاسَةُ ، وَمَا تُحَمَّدُ لَهُ الْعَاقِبَةُ ، كَمَنْ يَتَجَرَّعُ الدَّوَاءَ لِبُرْءِ الدَّاءِ ، وَلَمْ أَكُنْ أَعْتَبِينَ لِأَحَدٍ فِي الْحَقِّ مِنْ جِهَالَةٍ وَلَا غَفْلَةٍ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَسَاحَةً وَتَنَافُلًا لِأَمْرٍ يُرَادُ ، أَوْ مُتَبَاعَةً لِلْقَوْلِ فِي حِينِهِ تَلَطُّفًا وَقَلَّةَ خِلَافٍ عَلَى قَائِلِهِ ؛ ثُمَّ أَصْرَفَهُ تَارَاتٍ * فَالْجَاهِلُ عِنْدَنَا مَنْ ٤١ (ب) إِذَا أَشَارَ بِرَأْيٍ ، ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ صُنِعَ ضِدُّهُ ، أَنْ يَعَاوِدَ الْقَوْلَ فِيهِ : فَإِنْ كَانَ

(١) سورة المؤمنون : ٧١ .

(٢) راجع « مجمع الأمثال » للبديائي (ط القاهرة ، ١٣١٠) ج ٢ ، ص ١٤٧ .

فَطِينًا ، من التَّعْيِ التَّكْرَارِ ؛ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَعْلَمْ ، فَالْتَذَكُّيرُ بِهِ غَفْلَةٌ .
 اسْتِنْقَاصٌ لِمُخْدَمِهِ ؛ اَللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ الْأَوَّلَى ، فَتَجَرَّى عَنِ الْأُخْرَى
 خِلَافَ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ الْأَمْرَ قَدْ ظَهَرَ لَهُ ، وَخَفِرَ عَنِ الْقَائِلِ ، وَلَمْ يُرِدْ
 عَلَيْهِ ؛ فَيَكُونُ فِي رَأْيِهِ الْبَرَكَةُ وَالْخَيْرُ لِلْفَرِيقَيْنِ ؛ وَهُوَ يَلُومُ عَلَى مَا لَا يَدُ
 وَيَتَادَى جِهَالَةً ، وَيَنْطِقُ هَذَرًا ، وَتَنْحَرِفُ نَيْتُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْنَى ؛
 ظَالِمًا لِنَفْسِهِ .

فَأَوْدَعَنَا كِتَابًا حِلْمًا ، وَأَمَّنَّاهُ ، وَبَقِيَ فِي جِلَّةِ الْجُنْدِ تَحْتَ إِ
 وَإِحْمَالٍ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْتَعْمِلْهُ بَعْدَهَا فِي مَقِيلٍ ، وَلَا مَكْنُتُهُ مِنْ
 إِذْ « لَا يَلْدَغُ مُؤْمِنٌ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » (١) .

(١) راجع « مجمع الأمثال » للميداني ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزَّلَّاقَة ومحاصرة

حِصْن لِيَّيْط

٤٦ — مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس

٥ وَبَقِيَتْ أحوَالنا على أَفْضَل ما يُمْكِن ، وَبَلَّغْنَا من آمالنا غايَتها ، إلى أن حَدَثَ أمرُ المُرَاطِين - أَعَزَّهُمُ اللهُ - . وَكُنَّا رأينا كَلَبَ النِّصْرانيِّ على الجَزيرة وأَخَذَهُ لَطِيطِلَّةً ، وَقَلَّةَ رِفْقِهِ ، بَعد ما كان يَقنع مِنَّا بِالْجَزِيَّةِ وصار يَروم أَخَذَ القِرواعِدِ ، وَأَنَّ أَخَذَهُ لَطِيطِلَّةً لِلضَّعْفِ لِلتَّوَالِي عليها عامًا بَعد عامٍ ؛ وَكَذلِكَ كان من شَأْنِهِ في أَخْذِ البِلادِ ، إِذْ كان مَذْهَبُهُ أَلَّا يُنْازِلَ مَعْقِلًا ، وَلَا يُفْسِدَ أَجْنادَهُ على مَدِينَةٍ ، لِبُعدِ مَرَامِها وَمَن فيها من مَخالِيقِ مِلَّتِهِ ، وَإِنَّمَا كان يَأْخُذُ مِنْها الجَزِيَّةَ عامًا بَعد عامٍ ، وَيَنفَعُ عليها بما شاء من أَصنافِ التَّعَدَّى ، إلى أن تَضَعِفَ وتَلْقَى يَيدَها كما فَعَلَتْ .

فَوَقَعَ من ذلِكَ في الأَنْدَلُسِ رَجَّةٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَشْرَبَ أَهْها خَوْفًا وَقَطَعَ رِجاءَها من اسْتِيطانِها . وَجَرَتْ بَينَ المُعْتَمِدِ وَالْقُوْنُسِ مُخالَفاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَسأَلَهُ

أن يتخلى له معاقِل كان الموتُ عنده أولى من إعطائها. فوجست نفسه منه بالجملة ،
ورام كسره بطوائف المُرابطين ، وضربَ بعضهم ببعضٍ للقدَر الذي شاء الله :
إذا لم يكن عونٌ من الله لافقَى فأكثرُ ما ينجني عليه اجتِهادهُ
* وقد كان أخونا صاحبُ مَالقة ، للفتنة التي كانت بيننا وبينه ، قد ٤٧ (١)
داخلهم قبلُ يستغيثُ بهم ، ويرجو الانتقامَ مِنّا بهم ، وأن يُدركوه
ما فاتهُ من مملكة جدّه ؛ وطنٌ أنّه ، عند ظهورهم ، يقسم الأموال بيني
وبينته . وكان هذا الخلافُ كُلّه من سعادة أمير المسلمين ، ورأى من تشَتُّنا
أنّه لا مشقة تكون عليه في أخذِ بعضنا ببعضٍ متى شاء ، فلم يُجِئهُ الأميرُ
إلى شيء ، ولا كان وقته ، وهو يُلحُ عليه بقلة الدربة .

١٠ ٤٧ — إرسال سفارات أُنْدَلُسِيَّة إلى مرّاكش . احتلال

المُرابطين الجزيرة الخضراء

وقد كان رُسُلُ المُعْتَمِد قبل هذا قد وردت عليه ، تعلمه أن يتأهبَ
للجهاد ، وتعيده بِإِخْلَاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يصلُ إلى سَبْته إلا ويضعها
في يديه . فلما وصل متأهباً لتلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدّم رُسُلُه إلى
للمُعْتَمِد ، منهم عبدُ الملك القاضي . وابنُ الأحسن ؛ فَأَمْسَكَهُمْ بِإِسْبِيلِيَّة مُدَّةً
١٥ طويلاً ؛ وأميرُ المسلمين في ذلك مُتَمَلِّقٌ لورودهم ؛ فأرسل معهم من شيوخ
إِسْبِيلِيَّة من يقول له : « تَرَبَّصْ من سبته مُدَّةً من ثلاثين يوماً ، إلى أن
نُحْلِي لك الجزيرة . » فأجابهم إلى هذا ، وسأله خطَّ يده وبالتربُّص .
فأشعرَ الأميرُ بذلك ، وقيل له : « لم يَجْعَلْ ابنُ عُبَّاد في هذا الالتواء إلا
٢٠ لأنّه يريد أن يرسل إلى أَلْفُونش يعلمه بِقدومك ؛ ولعلّه يتأخَّرُ له منه ما يرغب ،

ويهدده بك ، ويسأله أن يُعاقده على أن يهبه الجزيرة أعواماً . فإن فعل ، استجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فأَسْبَقَهُ إليها ! وإن كان النصراني لا يتأتى له ، أَرْسَلَ إليك في الجواز !

- ولما انفصل الرُّسُلُ عنه بنية التَّربُّص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً ،
- ٥ جهَّز عسكراً مُقَدِّماً من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم في أثرهم ؛ فلم تصل الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلَّا والمسكر في أثرهم قد عَدَوْا ونزلوا بدار الصناعة . فالتفت التَّوَمُ إلى خَئِيلٍ قد ضربتَ سَحْلَتَهَا ، لم يُدْرَ متى أَقْبَلَتْ ؛ ولم يُصْبَحْ لهم إلَّا وطائفةٌ أُخْرَى بعدها ، يزيدون ويترادفون ،* حتى انكَل (ب) ٤٢ العسكر كُلُّهُ على الجزيرة مع داوود بن عائشة ، وأحدقوا حوالَيْهَا يحرسونها .
- ١٠ ونادى داود بالراضى ، وقال له : « وَعَدْتُمُونَا بالجزيرة ! ونحن نَأْتِي لَأَخْذِ بِلَدِهِ وَلَا ضَرَرٍ بِسُلْطَانٍ ! إِنَّمَا أَتَيْنَا لِلْجِهَادِ ! فَمَا أَنْ تُخْلِيَهَا مِنْ هُنَا إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا ، وَإِلَّا ، فَالَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَاصْنَعْ ! »
- وخاطبَ أميرُ المسلمين ابنُ (١) عَبَّاد ، يُعْلَمُهُ بِمَا صَنَعَ ، ويقول له : « كَفَيْنَاكَ مَوْثَنَ الْقَطَائِعِ وَإِرْسَالَ الْأَقْوَاتِ لِأَجْنَادِنَا كَمَا وَعَدْتَ ! » فأرسل ١٥ الْمُعْتَمِدُ لابنه الرَّاظِي فِي إِخْلَائِهَا لَهُمْ ، وحصل فيها داوود . وَأَتَى الْأَمِيرُ إِلَيْهَا ، ودخلها ناظراً إِلَيْهَا ؛ ثُمَّ انصرف إلى سَبْتَةِ إِلَى وَقْتِ إِقْبَالِهِ . وأمر داودَ بِالتَّحْقِيقِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ ؛ فَاسْتَوَفَتِ الْعَسَاكِرُ عَلَى إِشْبِيلِيَّةٍ .
- وقد كان رُسُلُنَا مَضُوعًا مَعَ رُسُلِ الْمُعْتَمِدِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى اتِّفَاقٍ ضَمَّ بَعْضُنَا فِيهِ بَعْضًا إِلَى حَقِيقَةٍ ، وَعَاقَدْنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ تَنْتَصِلَ الْأَيْدِي عَلَى غَزْوِ الرُّومِ ٢٠ بِمَعُونَتِهِ ، وَالْأَلَّاءُ يَعْزُضُ لِأَحْدَانَا فِي بِلَدِهِ ، وَلَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ رَعِيَّتَهُ بِنِ يَوْمِ الْقِسَادِ عَلَيْهِ .

٤٨ - تجتمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد

وأرسل [أمير المسلمين] ، عند حُلُولِهِ بِإِشْبِيلِيَّةَ ، عَنْ جَمِيعِ الرُّؤَسَاءِ ؛ فَأَمَّا ابْنُ صُبَّاحٍ ، فَأَبَى عَلَيْهِ [وَبَقِيَ] مُتَرَبِّصًا لِيَرَى كَيْفِيَّةَ الْأَمْرِ وَتَخْرُجَةَ مَعَ الرُّومِ ؛ وَاعْتَذَرَ بِكِبَرِ السِّنِّ مَعَ الضَّعْفِ ، وَأَرْسَلَ ابْنَهُ مُعْتَذِرًا . وَبَادَرْنَا نَحْنُ إِلَى الْخُرُوجِ ، وَشَرَرْنَا بِذَلِكَ ، وَأَعَدَدْنَا مَا اسْتَطَعْنَا عَلَيْهِ لِلْجِهَادِ بِأَمْوَالِنَا وَرِجَالِنَا ؛ وَقَدَّمْنَا الْهَدِيَّةَ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَرْنَا بِضَرْبِ الطَّبِلِ وَمَا يُسْتَعَدُّ بِهِ لِلْفَرَحِ ، عِنْدَ مُخَاطَبَتِهِ لَنَا بِدُخُولِ الْجَزِيرَةِ . وَظَنَّنَا أَنَّ إِقْبَالَهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ مَنَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَظُمَتْ لَدَيْنَا ، لَا سِيَّمَا خَاصَّةً مِنْ أَجْلِ الْقَرَابَةِ ، وَلِلَّذِي شَاعَ مِنْ خَيْرِهِمْ ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى طَلَبِ الْآخِرَةِ ، وَحُكْمِهِمْ بِالْحَقِّ ؛ فَنَعْمَلُ أَنْفُسَنَا وَأَمْوَالَنَا فِي الْجِهَادِ مَعَهُ كُلِّ عَامٍ : فَمَنْ عَاشَ مِنَّا كَانَ عَزِيزًا ، تَحْتَ سِتْرِ وَحَايَةٍ ، وَمَنْ مَاتَ كَانَ شَهِيدًا . وَالْعَجَبُ فِي تِلْكَ السَّفَرَةِ مِنْ حُسْنِ النِّيَّاتِ ، * وَإِخْلَاصِ ٤٣ (١) الضَّائِرِ ، كَأَنَّ الْقُلُوبَ إِنَّمَا جُمِعَتْ عَلَى ذَلِكَ .

وَلَقِينَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى بَطْلَيْئُوسَ بِمَجْرِيَّةٍ ، وَرَأَيْنَا مِنْ إِكْرَامِهِ لَنَا وَتَحْفِيهِ بِنَا زَادَنَا ذَلِكَ فِيهِ رَغْبَةً ، لَوْ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَنْحَهُ لِحُومَتِنَا ، فَضْلًا عَلَى أَمْوَالِنَا . وَلَقِينَا الْمُتَوَكِّلَ ابْنَ الْأَفْطَسِ مُحْتَفِلًا بِمُسْكِرِهِ : كُلُّ ١٥ يَرْغَبُ فِي الْجِهَادِ ، قَدْ أَعْمَلَ جَهْدَهُ ، وَوُطَّنَ عَلَى الْمَوْتِ نَفْسَهُ .

٤٩ - موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس

وَتَلَوْنَا بِبَطْلَيْئُوسَ أَيَّامًا ، حَتَّى صَحَّ عِنْدَنَا إِقْبَالُ أَلْفُونَشِ فِي حَفْلَةٍ ، يَوْمَ الثَّلَاثَةِ ، وَيُظَنُّ أَنَّهُ يَهْزِمُ الْجَيْشَ لِقَلَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ قَبْلَ . وَسَاقَهُ الْقَدَرُ

إلى أن توغّل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن يازاء المدينة ، مترَبِّصون ؛ إن كانت لنا ، فيها ونِعْمَتْ ، وإن لم تكن ، كانت وراءنا حرزاً ومُعْقِلاً نأوى إليها . وأمير المسلمين يُدبِّر هذا الأمر بِحُسْنِ رَأْيِهِ ، ويلتوى ، عسى [أن] تقع المِلافة بتلك الناحية ، دون أن يَخْوَجَ إلى التوغّل في بلادهم . وهم ، كما دخلوا الأندلس ، ولا يعرفون مَنْ لَهِمُّ أو عليهم ؛ ورجّاه ٥ بأن يكون الرومي لا يَخْرُجُ إليه أحدٌ ، فيَنْصَرِفَ طريقه ، ويكفي الله المؤمنين القتال ، إلى أن تُرِيَهُ الأُورُ وجوهها . فلا يُسْمَعُ إِلَّا الأَمِيرُ مترَبِّصاً لَلِثِيَّاتِ طَافَ به ، ولولا ذلك ، لكان في أرض النصارى مُدَوِّخاً لها . والنصرانيُّ في هذا كُلِّهِ يقرب متعاطياً ، لا يعمل حساب مَنْ يُغْلَبُ ، ١٠ إن كانت عليه أن يكون بعيداً من أنظاره ، فيستأصله السيفُ ؛ ولولم يكن إِلَّا يأكله الطريق ويُبْعِدُ المسافة .

ثم أرسل ، على يدى ابن الأَفْطَسِ ، إلى أمير المسلمين ، يقول له : « ها أنا قد أَقْبَلْتُ أريدُ ملاقاتك ، وأنت تترَبِّص وتختبئ لأصل المدينة ! » فلم يكن بُدٌّ أن يُنْقَلَ إليه ، ليكون الجيش على مقربة منه . وتَوَاعَدَا ١٥ اللقاء في يومٍ سَمِّيَاهُ . ولم يكن بينَ التَحَلُّتَيْنِ إِلَّا نحو ثلاثة أميال ، فاستأخ المسلمون إلى ذلك الوعد ، * وحلَّ الناس عن أنفُسهم ؛ وكانت ٤٣ (ب) خيرةً أن لو رَكِبَتِ القِثَّتَانِ ، لم تنفصل إِلَّا عن قَدَرٍ أَكْثَرَ من عسكر المسلمين ، حسبما تُوجِبُهُ الموافقة للقتال .

فَجَآهُمْ عَسْكَرُ الروميِّ ، وهم على غير إعداد . وكان مختلساً : إنَّما له ٢٠ ما أَلْقَى في تلك الساعة ، وأَلْقَى سُمَّهُ في الرَّحْلِ ؛ ومات منهم خلائقٌ مِمَّنْ لم يكن يقدر على نفسه . فلم تَقَعْ الصيحة على الجيش [إِلَّا] وركبوا في

طلبهم ؛ وهم قد كلوا وقتلهم السلاح مع بُعد المسافة . فافتنى المسلمون آثارهم ، وركبهم بالسيف ؛ ومات من جيشهم خلائق ، وتبددوا في الطريق فن يئن قتيل وميت متقلٍ ضريع . ولو أن تلك الواقعة تكون على إعداد من وقوف الفئتين ومناطحتهما في اللقاء ، لقعد من العسكرين الأكثر ، كالذى توجبه الرتبة ؛ لكن الله لطيفٌ بعباده ، ولم يقعد من المسلمين إلا الأقل . وانصرف أمير المسلمين راجعاً إلى إشبيلية على حال سلامة ونصر .

٥٠ — يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس

بعد المعركة . بدء الخلاف بين المتحالفين

ولما انقضت غزواته تلك، جعنا في مجلسه ، أعنى رؤساء الأندلس ، وأمرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصارى لم تقترصنا إلا للذى كان من تشئتنا واستعانة البعض بهم على البعض . فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري إلى الحقيقة .

واتدب إليه ذلك الوقت أخونا صاحب مالقة ، وقال من غير روية :
 ١٥ « إن أحوالى قد ضاقت بتمدنى أخى على بلادى وميراث جدى ١ »
 يشير بذلك أن يأخذ له الأمير بحقه مئاً . فلما قضى كلامه ، قال له أمير المسلمين : « هل لقيت أخاك في هذا المني ، وتراميت عليه قبل مخاطبتك لى ؟ » فلما قال له : « لا ا » رد عليه : « ما ينبغي لنا ذلك إلا برضاه ا » ولم يمكننا في ذلك الحين السكوت لما يلزم من شكر الأمير ،
 ٢٠ و [كانت] فرصة لتبيان الحجة ، وإقامة عذرنا ألا يفتسب إلينا بعد نسيه .

*قلتُ له : « إِنَّ أمير المسلمين لم تكن غايته إِلَّا ما هو بسبيله من الجهاد ؛ ٤٤ (١) وهو لا يرضى أن ينقض ما أحكمه آباؤنا من قسمة ما قسموه من بلادهم بين أبنائهم . وليس منا أحدٌ حصلَ على شيء بقدرته ، إِلَّا بما تهيأ له عند الله والآباء من بعده ، مع إجماع المسلمين على الرضى بمن تخيروه . وقد كان الشيخُ جدُّنا — رحمه الله — رتبَ ذلك ، ورأى أن مائة لا غنى بها من غرناطة ؛ فجعل أمرها مصروفًا إلينا من بعده ، كالذي كانت في حياته . فأنقضت من الأمر ما أبرم ، وقطعنا ، وأردت الاستبداد على غير حقيقة ولا أصل . ولو رأى جدُّك في ذلك صلاحًا ، لأعدَّ لك لذلك عُدَّةً تغنيك عنا ؛ ولما تعديتَ المرة بعد المرة ، سَمِينا في صرف بعض الحال إلى ما رتبها عليه الجدُّ ؛ ولم نبلغ في ذلك الغاية التي تحبُّ بأحيائك ونفارك . وهذا ما وقع ! فإن شاء أميرُ المسلمين أن يبتنى من جديد ، وينقض ما رتبَ الشيخ ، فهو لنا بمنزلة : أمره نافذ ! وإن رأى ما فُعل من ذلك سدادًا وصلاحًا ، فلائى وجه نكفَّه ما لا يليق به ؟ » فلما تكلمتُ بهذا ، وقعتُ مُساكنةً . وأمر الأميرُ بانصرافنا ، ولم يُعِدْ في ذلك بعدها مجلسًا إِلَّا في سَفرةٍ ليُبيطَ للمونة . ١٥

وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده ، وهو قد اطلع عيانًا وسماعًا من اختلاف كلمتنا ما لم يَرَ وجهًا لبقائنا في الجزيرة . وأنسَ الجميع ؛ ولم يتربَّص في البلاد إِلَّا يُوحشَ سلاطينها مما يتوقعونه من الحياش رعيَّتهم إليه ؛ فكلُّ من شكا إليه ذلك الوقتَ من رعيَّةٍ ، يقول له : « لم نأتِ لهذا ! والسلطينُ أعلمُ بما يصنعون في بلادهم ! » حتى ازداد بذلك حُبَّةً إلى ما كان عليه في قلوبنا ، وإليه استنامةٌ وميلاً . ورجع الكلُّ إلى وطنه . ٢٠

٥١ — عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس .

حصار حصن لييط .

وبقيت الحال على ذلك : قد أشرب الرُّومُ من تلك الواقعة خَوْفًا وانكساشًا . ولم تزل الحالُ صالحةً إلى سَفَرَةِ لِيُيُط .
 ٥ وإنَّ الْمُعْتَمِدَ بنَ عَبَّادَ ، لَمَّا رَأَى من خِلَافِ ابنِ رَشِيقِ عليه ، وأَنَّهُ أرادَ أَنْ يَصْعَ ابنَه الرَّاغِيَّ بِمُرْسِيَةِ عَوْضًا عن الجزيرة ، صارَ بنفسه إلى أميرِ المسلمين ، وجازَ إليه البحرَ ، يريهِ الطمأنينةَ ، ويحكمُ معه* ما شاء من ٤٤ (ب) عَمَلٍ في مُرْسِيَةِ وغيرها . وعَظَّمَ لَهُ شَأْنَ لِيُيُط ، وأَنَّهُ في قَلْبِ البَلَدِ ، وأنَّ لاراحةَ للمسلمينَ إِلَّا بِقَعْدِهِ ؛ وعاقَدَهُ على أَنْ يَأْتِيَ عليه بنفسه ورجاله ، لِكَيْ يَتَهَيَّأَ سَلَاطِينُ الأَنْدَلُسِ حَرْبَهُ بَعْدَهُمْ وأَجْماعِهِمْ ؛ فَيَأْمَنُوا مِنْ يُقْلِعُهُمْ عنه .

وَأَتَنَّا كُتُبُ الأَمِيرِ ، بِأَمْرُنَا عندَ جِوازِهِ ، بِالامْتِعَادِ لِلْقِتَالِ وما شَاكَلَ ذَلِكَ . ففَعَلْنَا ، وبَادَرْنَا ، رَغْبَةً في الجهادِ ، وَحُبَّةً فِيهِ ، وإِثَارًا لَهُ ؛ وَخَرَجْنَا إِلَيْهِ ، وَلَقِينَاهُ في حَيِّزٍ من بَلَدِنَا ، بِمَا يُطَابِقُ مِثْلَهُ من الهدايا والتَّخَفِ . وَأَجْمَعْنَا على السَّيْرِ إلى لِيُيُط . ١٥

فَنَارَلْنَاهُ على أَثَمٍّ ما يُمْكِنُ من الرِّجالِ والمُدَدِ ، كُلُّ رَئِيسٍ يَقَارِلُهُ على حَسَبِ مَجْهُودِهِ ، وما تَبْلُغُ اسْتَطَاعَتُهُ وَحِيلَتُهُ ؛ وَهُوَ قد امْتَلَأَ بِرَعِيَّةِ الجِهَةِ ، كُلِّهَا من النصارى ، وَأَعَدُّوا فِيهِ ما يَحْتَاجُ من كُلِّ شَيْءٍ ، قَتَلَ مَنْ نَظَرَ على سَنَةِ ؛ وَهُمْ في ذَلِكَ يَهْدُدُونَ بِمَجِيءِ أَلْفُونْشِ ، وَيُرِيمُونَ الحِيلَةَ بِالتَّنْيِيرِ كُلِّ لَيْلَةٍ ؛ وَالْقِتَالُ عَلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ لا يَفْتَرُ ، مع البُنيانِ في المَواضِعِ ٢٠

المهمة عليهم ، ونصب المجانيق والعزادات ، حتى لم يبق عمل يُرام به اقتراس المعاقيل إلا وصنع . وأتى ابن صمادح بفيل أقامه ، وخرق به العادة : أصابه من الحصن قوس نار ، فأحرقه . وفي كل ذلك لا ينجح عمل ، ولا تظهر فيه للمسلمين فرصة ، لما شاء الله من اختلاف الكلمة . ٥

٥٢ — مُحاصَرة لِيُطِيطَ تَصَوُّرُ فَوْضَى مَلُوكِ الطَّوَائِفِ

في ذلك الحين

وكانت تلك سنة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس . ورعيهم في ذلك يأتون أفواجا ، شاكين لما وجدوا لمن أسندوا إليه : فالراضي منهم يلتبس الزيادة ، والساخط يرجو الانتقام ؛ وجعلوا في شكوايهم قهواءهم ١٠ وسائط ، يقصدون نحوم : منهم الفقيه ابن القليعي ، قد صار خياؤه بتلك المحلة منططيسا لكل صادر ووارد ، يجذب بهم السيل إلى الطلب ، للقدر الذي قدره الله .

ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم من مغارم الإقطاع التي كانت عليهم ، مع احتياجهم إلى الإئفاق ، ما قلق به وساء الظن من أجله : * جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم ١٥ (١) المرابطين كثيرة ، وتُحف متوالية ، لو فرط منها في شيء ، لانخرمت عليهم الأحوال ؛ ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال للوصوفة ؛ فلا حيلة إلا بين صبر يؤدي إلى ملامة توجب عقوبة ، أو امتناع يؤدي إلى استئصال ، كالذي جرى . ٢٠

ونسع في هذا كله من أهل جهاتنا تهديداً وعصياناً أنكرناه ، لا تتم به تملكته ، ولا يتهيأ معه قضاء حاجة . ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا ألا يعطونا شيئاً ، ويعدهم بما كان ؛ فلما كان يأتيهم الحفز منا ، يعمدون بنا ، ونحن أخوج ما كُنّا إليه للإفراق ، لاسيما في تلك المحلة التي عدتُنا فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم . فدخل علينا من ذلك ضررٌ شنيع .

وطالت تلك المحلة للمعونة ؛ فكأنما يثلق أبان الطيب من الخبيث ، وكشف العورات ؛ فلم يزد الرؤساء إلا توحشاً ، ولا الرعية إلا تسلطاً ، ولا الداخلون على مثل هذه النصبه إلا طمعاً ؛ وحق لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء ، وهم في أسباب الفرق : فن اغتر منهم طالب صاحبه ، وهو المطلوب ، وشغل ذلك مما هو في سبيله ؛ ومن ميز ، انفراد ، لم يجد معيناً حتى توغل في اللجة وأخذته المحلة . وكانت مقدمات سوء ، وزماناً على السلاطين عسيراً ، وسعداً للرابطين مقتبلاً .

٥٣ - النزاع بين ابن عبّاد وبين ابن رشيّق

١٥ وأتى ابن رشيّق عند ذلك مُفسداً برّعه لما عقده ابن عبّاد مع الأمير ؛ وبذل الأموال للرابطين ، وسارع إلى قضاء الحاجات . واصطنع إلى الأمير سير — أعزه الله — وعول عليه ؛ فأكرمه الإكرام الشنيع . وألقى ابن عبّاد يده في قرور ، مُعوّلاً عليه في القضية ، وبذل له أموالاً جسيمة ؛ والمكثير على كل حال يقلب المقل ، وإن شفع عليه باليسير . ٢٠ وأعطى ابن رشيّق الأمان ، وبُولغ له في التأنيس ، حتى غره ذلك

- وانبسط له ؛ وتامَ على ابن عبَّاد ، وأظهر مَنصِبَتَه والانخِياشَ منه ، قائماً في ذلك بدعوة الأمير ومُسنداً إليه ، حتى أفضى ذلك به ، إلى أن أمر أن تكون الخطبة بمُرُمِيَّة على اسمِ أمير المسلمين دون ابن عبَّاد .
- والمُعْتَد ، * في هذا كله ، يَرى من الأمر ما يفيظه ويكرهه وينتطع ٤٥ (ب) منه حشرات ؛ وحَقَّ له ؛ فلم يَنْمُ عن القضية ؛ وأحْكَمَها مع القُقهَاء ، واحتجَّ عليه بأحكام السُّنَّة ؛ وكان مِمَّنْ اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْبِي ، وهو يفخر بالأمر عندنا ، ويقول : « سَيَرى ابن رَشِيق ما يجلُّ به ! فقد شوَّورنا في أمره . وإن جُعِلَ لنا مَجْلِسٌ لغيره ، فَعَلْنَا به مِثْل ذلك ! » وكانت هذه الكلمة ممَّا أَوْحَشَتْنا وَغَيَّرَتْ أَنْفُسَنَا عليه ، مع تهْدُده تلك
- ١٠ السفرة ، وَضَرَبَهِ الأمثال ، وَحَدِّقَ مَعَانِيَه ، واستطالَّتْ بلسانيه ؛ وأميرُ المسلمين لا يشعر بشيء من ذلك ، ولا نقدر نَحْنُ نشكو به بلا بَيِّنَةٍ ولا إقامة بُرْهان : ف تكون له الحُجَّةُ ، وَتَقَعْ نَحْنُ في الخِزْي ، لاسيَّما بما كان يَنْتَحِلُ من [أهل] العِلْم .
- وإن أمير المسلمين ، لما رأى حالَ ابن عبَّاد مع ابن رَشِيق ، واختلاف ١٥ ما بينهما ، أعمل في ذلك عَقْلَه ، ودبَّرَه برأيه ، وقال : « ما تنبغي لنا مُفاسدةُ ابن عبَّاد من أَجْلِ ابن رَشِيق ، لاحتياجِنَا إليه فيما نَحْنُ بسبيله ، ونَحْنُ لم نَأْمَنَ أَمْرَ الرُّومِيِّ . والأوْكَدُ عَلَيْنَا في هذا الوقت مُداراةُ ابن عبَّاد ، حتَّى تُرِينَا الأمور وَجُوهَهَا ! » فتعسَّف على ابن رَشِيق في الذي أظهر من الخِلاف على صاحبه ، وقال له : « ما كان يَجِبُ لك أن تُقدِّمَ بدْعَوتِي للقيام على رئيسك ، فتورِيعَ بَيْتِي وبَيْتِيه الشُّعْناء ! » وقال في نفسه :
- ٢٠ لم يفعل ذلك ابنُ رَشِيق إِيثاراً لي ولا مَحَبَّةً لِحِقَّتِي ! أكثر من اضطرام

النار على صاحبه وإشغاله بي عن نفسه ؛ ولا سيما أن معونته للرؤوم يُلبيط
 لم تحف على أحد ؛ يعتقد أن يبقائها يثبت في مُرسية ! « فكان أبداً يُمِرُّهم
 ويقوِّمهم بما يعجزون عنه ، إبقاء لمرمهم ، وخوفاً من الداخلة عليه بفقدهم .
 وصحَّ ذلك عند الأمير ، والمُعتمد في هذا كله لا يتألم عنه ، ويستفتي
 ٥ فيه الفقهاء ، لنفاقه بعد دخوله في البيعة له أول أخذِهِ لمرسية . فاتفقت
 عليه الأسباب ، وصنِّع له مجلسٌ أفتوا فيه بإزاحته عن المسلمين ،
 وإسلامه لسلطانهِ . فاستغاث عند ذلك * بالأمر ؛ فأجابهُ : « إنه لو كان لك
 عندى حقٌ ، لو هبته لك ، غير أنها أحكام السنَّة ، لا أستطيع على إزاحتها
 عن مراتبها ! » وأمر بتنقيفهِ وإسلامهِ إلى المُعتمد . وقُيد في الحديد ،
 ١٠ ورأى هواناً عظيماً . وأمرَ للمُعتمد الراضى ابنه أن ينزل في تحلته على المقام ؛
 وكأنه لم يكن بالأس . وأرسل الأمير إلى أهل مُرسية يأمرهم بالرجوع إلى
 صاحبهم والطاعة له ؛ فخالف كلُّ من فيها من ابنه وقرابته ، وثقفوا مدينتهم
 وجفوا كلٌّ من مضى إليهم . وامتنعت الحال على ذلك ، بعد وسائل كثيرة
 تكررت بينهم ؛ فلم يقدر معهم على شيء .

٥٤ — رفع الحصار عن لبيط .

١٥

تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاخت الحجة ، وطال مكثها ، وملَّ الناسُ إلى أن ورد الخبرُ
 بقُدوم ألفونس إليها ؛ فسأت الظنون من أجل ذلك . ورأى أمير المسلمين
 أن الرجوع عنها والانصراف أولى ، لطول مكث الناس وفشلهم ، مع
 ٢٠ جَم القادِمين من الرؤوم ومع خلاف مُرسية ، لئلا يسندوا إلى مبرها ومراقبها

- إذ أنهم أرسلوا عن التُّونش وقتَ خلافهم . فأخذَ في الانصراف .
 ووقعتَ بينَ المُعْتَمِد والمُعْتَصِم ، صاحبِ المَرْيَةِ ، مُشاجَرَات وتَبَاعَات
 باردةٌ في معاقل من نَظَر الجَبَل وفي أمرٍ شُرْبَةٍ ، ما وقع فيه الشكوى
 إلى الأمير . وانفصلا على غير موافقة : كلُّ ذلك من النحسة المُقْضِيَةِ عليهما .
 ٥ ومثلُ ذلك جَرَى لنا مع أَخِينَا صَاحِبِ مَالَقَةٍ ؛ وجعل يُكَرِّرُ في ذلك
 النَظَر الذي تَكَلَّمَ فيه سَفَرَةَ بَطْلَانِيوس ؛ وَحَفَزَ في ذلك بَرَعَمَه ، وقال لي
 بقَلَّةِ دُرْبَتَيْهِ : « إِنَّمَا مَنَعَ من ذلك السَّفَرَةَ الأولى ذِكْرِي له عند انفصال
 الأمير ، فلم يُدْرِكْ ولا أذْرَكْنَا ! والآن ، فلا بُدَّ من ذِكْرِهِ على سَعَةٍ ؛
 وإلاَّ ، فالْحَقُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ! » فلم تُخَفَّ لِقَوْلِهِ ، ولا كَابَرْتُهُ ، لِعِلْمِي أَنَّ
 ١٠ الأمير لا يحفل بشيء من هذا كله . ولَمَّا رَأَى أميرُ المُسْلِمِينَ كَثْرَةَ طَلَبِهِ لَنَا ،
 أَرْسَلَ إلَيْنَا قَرُورًا ، يقول لنا : « لا يَرِيكَ شَكْوَى أَخِيكَ ؛ فَإِنَّ
 السُّلْطَانَ لَا يَسَعُهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ : « اسْكُتْ عَنْ طَلَبِكَ ! » ، ولا يعطيه
 عليك يدًا ، غَيْرَ أَنَّنَا نُلَوِّي القِصَّةَ مَرَّحَلَةً * بعد مَرَّحَلَةٍ ، حَتَّى يَقَعَ ٤٦ (ب)
 الانفصال . » فشكرتُهُ على ذلك . وقال : « إِنَّ غَرَنَاطَةَ عليه آكَدُ من
 ١٥ مَالَقَةٍ لاحتِياجِهِ إلى الاجتياز عليها في غَزَوَاتِهِ ، وما أشبهَ ذلك من المرافق ؛
 فَتَقَدَّمَ أَنْتَ الآنَ ، وَأَعِدَّ جَهْدَكَ مَا يَجِبُ من ضِيَاةِ السُّلْطَانِ إِذَا [كَانَ]
 خَطُورُهُ عَلَيْكَ ؛ وَهُوَ مَارٌّ بِكَ عَلَى غَرَنَاطَةِ فِي انْصِرَافِهِ ! » فَسَرَّنِي ذَلِكَ ،
 وَتَقَدَّمْتُ إِلَى وَادِي آتَش ، وَأَعَدَدْتُ لَهُ مَا كَانَ جَدِيرًا بِهِ .

الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٤) سياسة عبد الله بعد عودته من لَيْيَط : إجراءات

دفاعية وسياسية

٥٥ — تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لَيْيَط . مسلك قُرُور .

٥ ولَمَّا وَصَلْتُ وادى آش ، وقد ظهر إلى قِبَلُ في لَيْيَط من جَفَاء قُرُور
وتخويفه لى ، وتهديدى على لسان الأمير ، والأمير عند ذلك غافلٌ ، غير أننى
حَسِبْتُ ذلك من قِبَلِهِ لَمَّا رَأَيْتُ من مكاتته عنده . فَأَذَرَ كفى من ذلك رُغْبٌ
شديدٌ . وعَايَنْتُ مع هذا ما حلَّ بآبن رَشِيق ، وسَمِعْتُ وعِيدَ القُلَيْعَى لى ،
وجَفَاءه على ، وإزالة رَقَبَتِي عنه ، ما زادنى ذلك جَرَعًا ، لا سِيَّما أَنَّ الجَزَعَ
والسوداءَ مُتَمَكِّنَةٌ من نفسى ، وأَجِدُهَا فى طباعى ؛ كدنتُ أن أموت غمًا .
١٠ ولم أَرَ قَطُّ قَبْلَ ذلك دُلًّا ولا كدراً ؛ فَأَنكَرْتُ الأُمُورَ كُلَّهَا مع السلطان ،
على حَسَبِ ما كان يُكْرِمُنِي سَفَرَةَ بَطْلَيُونَس ، ورَأَيْتُ ضِدَّ ذلك كُلَّهُ ؛
وقُرُورٌ يُنَاصِبُنِي العداوة ، ويرسل للشاؤرين إلى هوانى ، ويأمرُنِي فى حال
تلك الحرب بأوامر باردة ، يُريدُ بها إِذْلالِي ، ويُظهِرُ إلى فيها التعنيف
١٥ والتعسف .

فلَمَّا دخلَ نَظَرِي ، أَرَادَ إِصْلَاحَ ما أَفْسَدَ معى . فَعَلِمْتُ أَنَّ ذلك ليس

لنبيّة صلّحت ، بل لحاجة عرّضت ودقّعت إليها ضرورة من قبل الاجتياز على .
ولأجل ذلك ، قال لي على لسان الأمير في خبر أخى ما قال ؛ وتبين لي أنه ،
لو كان ذلك من عند الأمير ، لم يطلب قرور منى عليها رشوة . فأنه مع
ذلك لم يخلنى من مؤنتها ، وعمل لي حجة في دفع ضرر أخى عني ،
وأخذ منى عليها ألف دينار مرابطيّة ، لم أنجرأ قط على ذكرها مدّة حياته ،
لئلا يطلبني عند الأمير ؛ ثم لم تنفصل ساعة أن انصرف ، وطلب لربيّه
خمسة دينار ؛ فأعطيتها له ، وكذلك كل ما يطلب بامرة وتهدير ، مع قلّة
رحمته ورقفه ، * وخشونة لفظه . ثم أعطيتها في غرناطة ألف دينار أخرى ٤٧ (١)
باسم كسوة خيله . وأمّا التى صار إليه في سفرة بطليوس ومدّة كونه على
لييط مع الرسل ، فأكثر من أن يحصى ؛ وهو في ذلك كلّ لا يزداد إلاّ
فاراً واستكباراً . ومثل هذه الوسطة تُفسد على الرئيس كثيراً ، وتُبغض
إليه جماعة .

[أرسل في] أمير المسلمين ، وأنا يئكناسة ؛ فسألني عما صار إلى قرور
من قبلى ، فرويت الأمر بأخزم ما يمكن ، وقلت في نفسى : « إن أعلمته
بذلك ، وهو على حال التمكن عنده ، فربّما أخرجه كتابى عليه . وقرّعه به ؛
ثم استقرّه على مرتبته ؛ فيكون حتنى على يديه ؛ ولو أنى نأمن مكره ،
لأعلمته بالحال ، أو ربّما يقع الكتاب إلى يد قرور من غير تعمّد ، والنمر
لا يدخله إلاّ أهوج ؛ وكثير من الحقّ يجب تركه ، [وفيه فائدة] بصاحبه ؛
فلم يسعنى أن أقول في جوابى للسلطان إنّه لم يصّر إلى [بغير رشوة] ؛
فيكذبني ؛ إذ كان يعلم بلا شك أنّنا لم نخلّه من ذلك الدفع التى ٢٠

أعلمني رُسُلِي . وصَحَّ عِنْدِي أَنَّ قَرُورًا حَيْثُ يَصْدُقُنِي ، وَلَا يَقَعُ
قَرُورٌ عِنْدَهُ فِي (١) »

٥٦ — بعض المؤامرات وتحادُل ابن القُلَيْعِيّ

[أَمَّا أَخُونَا تَيْعِيمٌ ، صَاحِبُ مَالَقَةٍ ، * فَإِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْقَاضِي ابْنِ سَهْلٍ خَمْسِينَ (٤٧) رِبًا]
مِنْقَالًا ، يَسْتَعِظُنُهُ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْنَا بِالْحُجَّةِ مَعَهُ فَرَدَّهَا إِلَيْهِ ابْنُ سَهْلٍ
الْمَذْكُورُ ، وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ .

وَقَالَ لِي ابْنُ الْقُلَيْعِيّ : « هَذَا وَقْتُ اقْتِرَاضِكَ لِهَذَا الرَّجُلِ ، بَأَن
تَكْتُبَ إِلَيْهِ ، وَتَعِدَهُ بِالْقَضَاءِ عِنْدَ انْصِرَافِكَ ، وَهُوَ يَسْمَحُ فِي قِصَّةِ أَخِيكَ ،
عَلَى أَنْ تَجْلِسَ مَعَهُ فِي أَحْكَامِهِ . فَإِذَا أَلْصَقْتَنِي بِهِ ، رَأَيْتَ عَجَائِبَ مِنْ
تَأْتِي الْأُمُورَ عَلَى مَرْغُوبِكَ عِنْدَ الرَّابِعِينَ وَفِي بِلَادِكَ ؛ فَإِنَّكَ ، لَوْ شِئْتَ أَنْ
تَأْخُذَ مِنْ أَحَدٍ دِرْهَمًا بَغِيرِ النَّامُوسِ ، لَسَمِجَ عِنْدَ النَّاسِ ؛ وَإِذَا أَخَذْتَ
أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الْحَقِّ ، حَلَّ لَكَ أَخْذُهُ ، وَلَمْ يَسْتَبْشِعْهُ أَحَدٌ . وَلَا أُجِدُّ
أَحَدًا [يَنْفَعُ لَكَ] مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ ! » وَلَمْ يُبَارِخْنِي حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيْهِ
بِحِطَّةٍ يَدِي رُقْعَةً تَتَضَمَّنُ لَهُ الْقَضَاءَ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُسَانَهَةٍ وَمُشَاهَرَةٍ .
وَرَأَيْتُ إِبَاجَتَهُ إِلَى ذَلِكَ صَلاَحًا بِي وَخَطَأً بِأَخِي ، وَلِمَا تُوجِبُهُ السِّيَاسَةُ مِنْ
مَسَايِرَتِهِ وَمُدَارَاتِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . [وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ] قَدْ حَرَصَ عَلَى
الْأَمْرِ وَالنَّفْهِ ، وَلَا أَرَاهُ يَنْبَلِغُنِي إِلَّا بِي ، مَا لَمْ وَفِي هَذَا
فَسَادُ مُلْكِي وَخَلْيِي ، وَيَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ (٢) .

(١) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

(٢) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

« . . . * وبك واثقٌ غير أنك قد جعلت لي بقولك هذا من الحرص ٤٨ (أ) على هذا المال ما أريد أن تعلمني بمن يُقبض ! » فإني لا أكاد أن أصدقَه ، لاحتياجي إلى ما نحنُ بسبيله من النفقات ، وإقامة هذا الجيش كل عام . فجعل يُسمي لي أقواماً لا يعثرهم في الخير والفضل ، وقدم ذكرَ صاحبِ الأخباس ابنِ سلمون ، وتسبب إليه برسم الأخباس ، وغيرهم ممن لم يُبلّ منهم إلا الطاعة والنصيحة . فقلتُ في نفسي : « الله أكبر ! ما قصد هذا إلا إلى هذه الحاشية لنا ولآبائنا ، ألا وهو يُريد إفرادنا دونهم ، ليتمكن بما شاء ، ولا نجد صديقاً نستريح إليه ، مع مائتين من أنفاسه ، وحده مقاطيعه ، وأغراضه القاتلة ! »

١٠ والعين تُبصر في عيني مُحَدَّثها إن كان من حزبيها أو من أعاديها وجعل يطلبُ بني السَّئِدَى والكَتَبَةَ وغيرهم ممن قد اصطنعناه [ونأمن] أماته ؛ ثم قال لي : « كلُّ ما رأيت من السلطان في لُيْيط كان مثقلًا أن يجعل لك مجلسًا ولغيرك تسه وأنت على سعة ، وأفعل شيئًا تبطل به حجته [عليك] (١) »

١٥ « . . . * كنتم عليها من التَّرقُب والإنذار بالعيال نفثة حاقدة . ٤٨ (ب) وكان هذا القلعيُّ مخملاً في أيام الشيخ جدنا — رحمه الله — ؛ وكان لا يدعه في المدينة ، ويأمره بسكنى ضيعةٍ ، لما كان يرى من شره وقدرته على الدواخل . فلما ظهر أمر المرابطين ، اصطنع إلى مؤمل وغيره ، ووسم لي بسمة الخير والقدرة على الكلام ، وأنه لا أحد يقدر على استمالته المرابطين على ما هو عليه . فوجهته رسولا ، وهو في ذلك يعمل لنفسه ، ٢٠

ويسعى في هلاكى في الباطن ، وينتفث بذلك ، على ماصح عندى ، ويقول :
« والله ! لأبلغنَّ حفيدَ باديس الطينة السوداء ، ولأشوقه إلى درهم ينفقه ،
[وذلك] على صنيع جدّه بى وبغبرى ! »

وأخبرنى أبو بكر بن مُسكّن أنه [كان كتب] إلى أمير المسلمين في
أوّل سفره معه ، ولقى في الطريق خبر دخوله [الأندلس] ، وقال :
« هذا على رغم أنوف الفسقة سلاطين الأندلس ! » فقال أبو بكر بن مُسكّن :
« وتخطّط معهم سُلطانك ؟ » فقال : « نعم ! وهو المُقدّم إن شاء الله !
..... مات لتنفذ الأقدار ! » فلما أذن الله بانصرافه تكلم
ابن سهل إلى الأمير وقال له : « أنت على »^(١)

١٠ « . . . * نحن بحال لا يرضى عنا فيه لارعية ولا جند ؛ وفي هذا
الفساد والقطع . فقال لى القليعى : « إن يُعين عليك الجند ، استنجدت
من العدو من يغنيك عنهم . ودعنى ورأى بعد إشراكى مع ابن سهل ،
ولا عليك من حيث يقوم لك المال ! »

فرايتُ أمراً معمى ومستأثراً به دونى ، مع ما كان ينطق به لسانه أبداً
١٥ من الوعيد ، والتهديد عند أصدقائه ومن ينقل ذلك إلى عنه أنه يقول :
« والله ! لأبلغنَّ من حفيد باديس ما كان يبلغ جدّه منى ومن غبرى ! »
يسرح بذلك لقلّة تحفظه وإرساله لسانه ، ولاحتقاره لنا واحتياجنا إليه . فزاد
ذلك الجند قلقاً ، وهما بالانتقال مجتمعين على ذلك .

فلما بصرتُ هذه الحالة ، قلتُ فى نفسى : « أنا بسبيل ، إن استفسدتُ
٢٠ إلى الجند ، وهم جناحى ، أن بقيتُ وحدى مع يروم خلى . فالأولى على

(١) غرم نحو نصف صفحة فى الأصل .

كلَّ حال أطباؤهم ، واستصلاحُ ما فسد من أنفسهم ؛ وإسقاطُ القليعيَّ
 وحدهُ واجبٌ في رضى عائمة عبيدى وأجنادى . « جُمِعَتْهُمْ بمحضره ، وأُغْلِسَتْهُمْ
 أنى راجعٌ عن ذلك للذهب ، وراذٌ عليهم إنزالاتهم . فقام الكلُّ على
 القليعيَّ ، وهُمُّوا باختطافِهِ من بين يديَّ لولا إمساكى لهم ؛ وخشيتُ مع
 هذا عليه أن يقتلوه ، فتكون شهرةٌ وعقوباً ، وينجزُ الأمر إلى غير المحمود .
 ٥ قُتِلَتْ لهم : « أنا أكفيكم أمره ! » وأُعْرِتُ بثقافه على أجل الوجوه في بيئتِ
 بقرب من القصر ؛ وكان تحت برٍّ وإكرام ، وأنا في ذلك أعتدِرُ إليه من
 قيام العائمة ، وأعيدُهُ بالانطلاق عند إطفاء النائرة ، كالذى صَنَعْتُ .

فلما توطدت الأحوال وقررت قرارها ، أمرتُ بإخراجها ، وأنهيْتُ إليه
 ١٠ أن يكفَّ لسانه ، ويدعَ فضولَ القول والعمل إلّا فيما يعنيه ويُشاكل
 طريقته . فقال لى : « نعم ! أنا ألتزم الروابط ، وأسلكُ سبيلَ العافية
 إن شاء الله ! » فلم يكن إلّا أن انطلق ، وطار* إلى أمير المسلمين بالشكوى ، ٤٩ (ب)
 وزاد في الطين بلة . فقال لى الجند : « لو أنك أمسكتَه ، لم يُهَيِّجْ
 عليك النارا وستدُمُ عاقبة انطلاقيه ! »

١٥ ٥٧ - سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون

وأراني جميعُ الجند من التأتى والالتياذ والمناجحة ما حسبتُ أنهم
 يُقاتلون غنى الدجال . فسررتُ بهذه الحالة ، واطمأننتُ إليها ، وقلتُ :
 « هؤلاء أئمةٌ لا يروَن بى بديلاً لإنصافٍ لهم ورغدٍ عيشهم مى ؛ وهم
 قد رأوا جندَ العدو ، وأنَّ أقلَّ عبيدٍ لهم أقوى من غيرهم ، وأصلحُ حالةً .
 ٢٠ فلا يمكن استبدال الأذى بالفضل ! » ثمَّ عَلِمْتُ قِياسَ للغاربة أهلِ

الحصون ، وَعَلِمْتُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ ؛ وَلَمْ نَنْظُنْ قَطُّ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَبِيعُ
أَبَائِي . وَإِنَّمَا وَجَسْتُ نَفْسِي مِنَ الرِّعْيَةِ لَطَمِهِمْ فِي حِطِّ الْمَغَارِمِ ، وَلِلَّذِي
شَاعَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْمُشْرِ عِنْدَ الرُّبَاطِيِّينَ . فَقُلْتُ : « إِنَّ بِهِذِهِ الْعِيقَانِ الَّتِي عَلَى
رُؤُوسِهَا ، لَا تَجْتَرِي عَلَى شَيْءٍ ! وَإِذَا تَقَفْتَ لِلْمَاقِلِ ، كَانَ أَمْرُ الرِّعْيَةِ يَسِيرًا .
وَكَمْ عَسَى يَسْتَطِيعُ الْجَيْشُ الْقَادِمُ عَلَى أَنْ يُنَمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ ؟ وَمُحَاوَلَةُ مَقْعَلٍ
وَاحِدٍ مِنْهَا تَطُولُ ، وَتَخْذُلُ فِي خِلَافِهِ أَخْوَالُ . » ٥

فَصَرَفْتُ وَجْهَ اهْتِبَائِي إِلَى تَشْيِيدِ الْحَصُونِ وَبُنْيَانِهَا ، وَإِعْدَادِ مَا يُصْلِحُهَا
لِلْإِخْصَارِ إِنْ كَانَ . فَلَمْ أَدْعُ وَجْهًا مِنْ وَجُوهِ الْحَزْمِ إِلَّا وَفَعَلْتُهُ : مِنْ إِقَامَةِ
الْأَجْيَابِ ، وَإِعْدَادِ الْمَطَاحِينَ ، وَأَنْوَاعِ الْمُدَدِ مِنَ التَّرَاسِ وَالنَّبْلِ وَالرَّعَادَاتِ ،
وَجَمِيعِ الْأَقْوَاتِ ؛ وَقَلَعْتُهَا مِنَ الْقُرَى ؛ وَأَعَدَدْتُ لِكُلِّ حِصْنٍ قُوَّتَهُ لِأَزِيدَ
مِنَ الْعَامِ . وَفَعَلْتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي لِلدِّينَةِ حَضْرَتِي ، مَا اسْتَعْنَيْ عَنِ
تَحْدِيدِهِ لِاشْتِهَارِهِ . ١٠

وَقُلْتُ : « لَيْسَ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ يَتَعَرَّضَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا مِنْ
سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ إِبْرَامِهِ لِأَمْرِ الرُّومِيِّ ! وَلَا بُدَّ عِنْدَ مُنَاطَرَتِهِمْ مِنْ
فَرَجٍ : إِنْ غَلَبَ الرُّبَاطِيُّ ، لَمْ يَفْتِنَّا الدَّخُولُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَا أَسَدَيْنَا إِلَيْهِ
مَا تَذَمُّ عَاقِبَتُهُ أَكْثَرَ مِنَ الْإِحْتِيَاطِ عَلَى بِلَادِنَا وَالْمُدَارَاةِ عَلَيْهَا ؛ « فَلَا
الْحِمَارُ سَقَطَ ، وَلَا الزُّقُ انْتَحَرَقَ ! » نَحْنُ مُدْرِكُونَ : لَا يَنْتَبِئِي تَقْدِيمُ
يَدِهِ سَيِّئَةً إِلَيْهِمْ . * وَإِنْ غَلَبَ الرُّومِيُّ ، كُنَّا مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، وَقَدْ نَفَعْنَا ٥٠)
مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ هَذَا الْبُنْيَانِ وَالتَّشْيِيدِ ، وَاتَّخَاذِ الْمُدَدِ ؛ فَسَيَكُونُ بِذَلِكَ
لِلْمُسْلِمِينَ حِمَايَةٌ وَانْجِرَارٌ إِلَى غَدٍ ، إِذَا الْبُنْيَانُ مِنَ الرُّبَاطِ لَا يَنْفَعُ ! » ٢٠
وَلِذَلِكَ أَعَدَدْنَا الْمُنْكَبَّ : إِنْ تَغَلَّبَ الرُّومِيُّ ، فَأَكُونُ عَلَى الْبَحْرِ مَتَصِلًا

- بالمسلمين ، ندافع منها جهدنا ، إلى أن نُضطرَّ إلى الجواز وطلب السلامة
بمُشاشة أنفسنا ونُتَقَب من أموالنا . فشيَّدتها لذلك ، كالذي شهر عنا .
والجاهل لا يدرى ما أولُ هذا ولا آخره ، إلَّا ويخبط [خبط] عشواء :
فكلُّ يتكلَّم على شهوته . ولم نعتقد في أمر المرابطين — يعلم الله ذلك —
٥ صدَّهم عن جهادٍ ، ولا تظافراً مع أحدٍ عليهم ، ولا أردتُ بهم شيئاً من
مساءة نُبيت إلينا ، أكثر من أني جرعتُ الجزع الشديد مما تقدَّم
ذكره من تلك المعاني التي أبصرتها ، وما جرى على ابن رشيقي ، مع
هَلبي لذلك ، وتمكَّن السوداء مِنِّي ، وسوء الظنِّ مع معاينة اليقين .
فقلت : « ما دام تتعلَّق الفئتان ، نخشى حملة السيل على هذه المدينة :
١٠ فتحصينها أولى ، ولن يُضِرَّ ذلك » فتى دعاني أمير المسلمين إلى إعطاء
عسكري أو مالٍ ، أو ما أشبه ذلك مما يجبُ من مُشاركته وإنجاده ، لم
نتأخَّر عنه ، فقمم على نفسي الحُجَّة ؛ وتجلب إلى المَصْرَّة إن فعلتُ غيره ؛
غير أني ، متى دعاني إلى الخروج إليه بنفسي ، نعتذر وندافع ذلك
جهدي . فمسي [أن] يتركني ويقبل عذري ؛ ومتى لم يقبل لي عذراً ، نعلم
١٥ أنه يُريد إخراج أمرى إلى حدود الفعل ؛ فهو إذاً على متعسفٍ لكلام الأعداء
والكذب ؛ فلا بُدَّ لي عند ذلك من الاحتياط على مُهيجتي والتحصين على
نفسى ، ونجعله إذ ذاك كسائر من يُريدُ إخراجي من السلاطين ؛ وليَّ معه
اللهُ ، إذا لم أنو به سوءاً ، ولا واسيتُ عليه أحداً ، ولا صدَّدته عن
جهاده . فبأيُّ شيء يتسبَّب إلى إلَّا إن شاء التذنب مع القدرة ؟ فلا
٢٠ طاقة لي بذلك ،* كالذي صنَّع إنسانٌ دَخَلَ على بعض الملوك ، وقد أعدَّ ٥٠ (ب)
لكلامه جواباً ؛ فلما خرَّج إلى الثفاف ، سُئِلَ عن إعدادِه الجواب وزعمه

أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ ؛ فَقَالَ : « لِكُلِّ كَلِمَةٍ وَجِدْتُ جَوَابًا إِلَّا لِقَوْلِهِ :
 « خُذُوهُ ! » فَلَمْ أَذِرْ مَا أَقُولُ فِيهَا ؛ فَوَكَّلْتُ الْأَمْرَ إِلَى الْأَقْدَارِ ! »
 وَكُنْتُ ، أَيَّامِي تِلْكَ ، بَيْنَ الرِّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، إِلَّا أَنِّي وَاقِعٌ بِكُلِّ
 مِنْ مَعَى مِنْ رَجَالِي وَخِدْمَتِي أَنَّهُمْ لَا يَنْدَرُونِي . فَقَوَّيْتُ نَفْسِي لِذَلِكَ بَعْضَ
 ٥ الْقُوَّةِ ، مَعَ مَا كُنْتُ أَعْدَدْتُهُ .

٥٨ - معاقدة عبد الله مع آلبرهانش وكيل الفونش السادس

وَلَا حَانَ انْصِرَافُنَا مِنْ لَيْطِيط ، كَلَّمْنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ فِي عَسْكَرِهِ يَتْرُكُهُ
 عِنْدَنَا بِالْأَنْدَلُسِ ، خَوْفًا مِنَ الرُّومِيِّ أَنَّهُ يَكْلِبُ عَلَيْهَا ، وَيَطْلُبُنَا بِثَأْرِ تِلْكَ
 ١٠ السَّفَرَةِ وَغَيْرِهَا ؛ فَلَا يَكُونُ عِنْدَنَا بَيْنَ نُدَافِعُ ؛ فَقَالَ : « أَصْلِحُوا نِيَّاتَكُمْ ،
 تُكْفَمُوا عَدُوَّكُمْ ! » وَلَمْ يُعْطِنَا عَسْكَرًا . فَأَيَّقْنَا أَنَّ الرُّومِيَّ لَا يَدْعُنَا عَلَى
 هَذِهِ الْفُرْصَةِ دُونَ طَلَبِ . كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ احْتَفَلَ وَأَنَّى طَالِبًا
 لِلْمَالِ ، مُتَجَنِّيًا عَلَى مَنْ خَالَفَهُ أَنْ يُفْسِدَ بِلَادَهُ . وَعَاقَدَ صَاحِبَ مَرْقُوسَةَ
 وَمَنْ يَلِيهِ مِنَ الشَّرْقِ ؛ فَدَافَعُوا شَرَّهُ وَدَفَعُوا إِلَيْهِ مَا سَلَفَ لَهُ عِنْدَهُمْ .
 ١٥ وَبَلَّغْنِي الْخَبْرَ ، وَزَادَ ذَلِكَ فِي عَنِّي ، وَعَلِمْتُ أَنِّي فِيهِ كَرَاكِبِ الْأَسَدِ :
 إِنْ أَسَلْتُ الْبَلَدَ ، وَلَا عَسْكَرَ عِنْدِي ، هُتِكَ ، وَلَمْ يَنْجِرْ لِي فِيهِ دِرْهَمٌ ،
 وَلَمْ أَغْذَرْ مَعَ هَذَا ، وَلَا يَقْرَأُ الْمُطَالِبُ بِأَنْ يَقُولَ عَنِّي إِنِّي ضَيَعْتُهُ أَوْ
 سَقْتُ إِلَيْهِ الْعَدُوَّ ، كَالَّذِي رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ قَبْلُ عَنْ ابْنِ رَشِيقٍ — وَخُسَارَةُ
 بَلَدِي زَائِدَةٌ — وَلَا نَقِيمُ أَوْدًا بِذَلِكَ لِكُلِّ مَا تُحَاوِلُهُ مِنَ الْغَزْوِ كُلِّ عَامٍ
 ٢٠ وَضِيَافَاتِ الْمُرَابِطِينَ ؛ فَتَجْتَمِعُ عَلَى الْخُسَارَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ . وَإِنْ وَاسَيْتُ الْقَوْمَ

وَأَصْلَحْتُ عَلَى نَفْسِي ، قِيلَ : « قَدْ عَاقَدَ الرُّومِيُّ ! » وَبُشِّنَ عَلَى مَا لَمْ أَفْعَلْ ، كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ أَنْجُ مِمَّا تَوَقَّعْتُ لِلْقَدَرِ الْمُفْضِي .

وَكَانَ أَلْبَرْهَانُ زَعِيمَ جِهَاتِ غَرْنَاطَةَ وَالْعَرِيَّةِ ؛ وَكَانَ الْفُونُشُ قَدْ وَكَّلَهُ أَمْرَ الْجِهَتَيْنِ ،* مِنْ إِتْقَادِ أَمْرِهِ فِيهَا لِفَسَادٍ عَلَى مَنْ تَعَذَّرَ لَهُ عِنْدَهُ ٥١ (١) شَيْءٌ ، وَلَقَبُضِ مَالٍ وَتَوَسُّطِ مَا يَنْفَعُهُ فِيهَا . فَأَرْسَلَ إِلَى أَوْلَا عَنْ نَفْسِهِ ، يُنْذِرُ بِدُخُولِ وَادِي آتَشَ ، وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا الْفِدَاءُ لَهَا . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « وَمَعَ مَنْ أَتَى رَأْيُهُ ؟ أَيُّ مَقْدَرَةٍ بَنَى عَلَى مُدَافَعَتِهِ ؟ لَا عَسْكَرٌ تَرِكَ لَنَا مُدَافِعُ بِهِ ! فَكَمْ يَأْخُذُ فِي هَذِهِ النَّصَبَةِ مِنْ أَمْرِیُ الْمُسْلِمِينَ ! وَكَمْ يَفْسُدُ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ ! مَا لَا يَبْشُرُ قِيَمَةً مَا يُعْطَى كَالَّذِي عَهَدْنَاهُ مِنْهُمْ ! اللَّهُمَّ ! لَوْ كَانَ ، وَفَقَدَ ذَلِكَ ، وَبَلَّغْنَا عَنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ ! أَلَيْسَ مِنَ الصَّلَاحِ إِفْدَاؤُهُمْ^(١) بِمَا عَزَّ ؟ فَتَحَنُّ جُدْرَاهُ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ رِحْلَتِهِمْ دُونَ فُسَادٍ فِي الْبِلَادِ ! وَتَحْتَسِبُ ذَلِكَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ الْعَالَمُ بِالضَّمَائِرِ ! فَإِنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ أَشْرًا وَبَطْرًا ، وَعِنْدَنَا بَيْنَ مُدَافِعٍ ، لَكَانَ فِيهِ الْحُجَّةُ عَلَيْنَا ! »

فَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى إِرْضَائِهِ بِالْيَسِيرِ ، مَعَ مُعَاقَدَتِهِ إِلَّا يَقْرُبَ لَنَا بِلْدًا بَعْدَ أَخْذِ هَذِهِ الدَّفْعَةِ ، فَارْتَبَطَ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ ، قَالَ : « هَا أَنَا قَدْ صَلَحْتُ جَانِبِي ! وَالْأَوْكَدُ عَلَيْكُمْ أَمْرُ الْفُونُشِ ، الَّذِي هُوَ عَلَى الْحَرَكَةِ عَلَيْكُمْ وَإِلَى غَيْرِكُمْ ؛ فَمَنْ أَنْصَفَهُ نَجَا ، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ ، فَسَلَطَنِي عَلَيْهِ ! إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ ، لَا بُدَّ مِنْ إِيْتَانِ مَرْغُوبِهِ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ أَمْرِهِ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ هَذَا الَّذِي أُعْطِيتُمُونِي إِنْ خَالَفْتُمُوهُ . وَلَيْسَ بِنَافِعٍ إِلَّا فِيمَا يُخَصُّنِي دُونَ رَأْيِي ٢٠

(١) أصل : « أَفْدَاؤُهُمْ » .

إِنْ حَدَّ لِي ضِدَّهُ ! « فَعَلِمْنَا أَنَّ قَوْلَهُ حَقٌّ يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ . قَعَلْنَا : « لَا يُمْكِنُ أَنْ نَوَجَّهَ نَحْنُ إِلَيْهِ وَنَبْدَأَهُ ؛ فَنُوقِظُهُ لِأَكْلِنَا ! وَلَكِنْ ، مَتَى أَرْسَلَ بِأَذْنِ بَذَلِكَ ، سَنَعْتَدِرُ إِلَيْهِ ؛ فَعَسَى [أَنْ] يَقْبَلَ رَغْبَتَنَا ، وَلَمْ نَفْتَحْ لَهُ بَابًا فِي إِعْطَاءِ شَيْءٍ إِلَّا يَزِيدَ طَمَعَهُ ! أَكْثَرُ مِنْ تَلَوَّى الْقَوْلَ ، عَسَى مِنْ هُنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ ، [أَنْ] يَأْتِيَ عَسْكَرٌ يُكْسِرُ بِهِ ؛ فَلَا يَبْأُ بِقَوْلِهِ . وَإِنْ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ ، لَمْ نَكُنْ نَقْدِّمُ إِلَيْهِ قَبِيحًا ، فَتَشَقَّى عِنْدَ ذَلِكَ . »

وَدَافَعْنَا الْأَمْرُ عِنْدَ الْبَرْهَانِشْ ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ نَعْطِيَهُ ^(١) شَيْئًا ، * وَاعْتَدَرْنَا بِالْمُرَاطِبِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَزِمْنَا مِنَ النِّفَقَاتِ عَلَيْهِمْ . فَسَكَتَ عَنَّا ٥١ (ب) الْخَنْزِيرُ ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِهِ ، كَالَّذِي يُلْزِمُهُ مِنَ التَّخَدُّمِ لَهُ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُوَجِّهَ لِي رَسُولًا يُطَلِّبُ جِزْيَتَهُ ؛ فَإِنْ أَنْصَرَفَ دُونَ شَيْءٍ ، كَانَ هُوَ الْمُتَنَقِّمَ ١٠ مِنْ جِهَاتِهَا .

٥٩ — التَّزَامُ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى أَدَاءِ الْجِزْيَةِ لِأَلْفُونُشِ السَّادِسِ

وَعَقْدُ اتِّفَاقٍ جَدِيدٍ مَعَهُ

وَتَأَهَّبَ أَلْفُونُشُ إِلَى الْحَرَكَةِ ، وَقَدَّمَ رَسُولَهُ بَيْنَ يَدَيْ حَرَكَتِهِ . فَلَمَّا صَحَّتْ عِنْدَنَا ، أَتَانَا مِنْهَا الْمُقِيمُ الْمُقْعِدُ ، وَلَمْ تَدْرِ أَيْنَ الْخَيْرَةِ : إِنْ كَانَ فِي رَفْضِ الْبَلَدِ وَتَرْكِهِ لِيَعْبَثَ فِيهِ ، أَوْ مُدَارَاتِهِ بِمَا تَيْسَّرُ . وَوَقَعَتْ مِنْ ذَلِكَ هَيْبَةٌ فِي النَّاسِ وَرَجَّةٌ ، حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْجَزْعِ أَنَّنا لَمْ نُصَدِّقْ أَنَّ يَقْبَلَ مِنَّا لِلْمَالِ دُونَ الْمُلَازِمَةِ لَنَا ، طَالِبًا لِإِخْتَارِ لَيْسَطٍ وَمُعَاقِدَةِ الْمُرَاطِبِينَ . وَطَمَعْنَا أَنْ يَقْنَعَ رَسُولُهُ بِالْيَسِيرِ ؛ فَقَالَ لِي : « لَمْ آتِ عَنَ ذَلِكَ كَلٌّ ،

(١) الْأَصْلُ ، « نَعْطُوهُ » .

إِلَّا أَنْ تَعْطِيَهُ مَا فَاتَهُ عَنْكَ مِنْ حِزْبِيَّةٍ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا ! لَا يُنْقَصُ
 مِنْهَا شَيْءٌ ؛ وَإِلَّا ، فَهَا هُوَ مُقْبِلٌ ! وَالَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَأَصْنَعْ ! »
 فَرَوَّيْتُ الْأَمْرَ فِي نَفْسِي ، وَرَأَيْتُ أَنَّ التَّعَاظِيَّ حَاقَّةٌ لَا تَقِيدُ ، وَقُلْتُ :
 « إِنْ أَخَذْتُ هَذِهِ مِنَ الرِّعْيَةِ ، ضَجَّتْ وَشَكَّتْ ، وَيَكُونُ مُقَدِّمُهَا
 بِمَرُوكَشٍ ^(١) شَاكِينَ ، يَقُولُونَ : « أَخَذَ أَمْوَالَنَا وَأَعْطَاهَا لِلنَّصَارَى ! »
 وَلَكِنْ لِهَذَا الْوَقْتُ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ مَا ادَّخَرَ لِيَصُونَهُ بِهِ بَلَدَهُ وَعِرْضَهُ .
 وَأَنَا جَدِيرٌ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ مِنْ بَيْتِ مَالِي ، بِحَيْثُ يَسْلُمُ الْبَلَدُ ، وَبِحَيْثُ
 تَشْكُرُ الرِّعْيَةُ بِمَدَافَعَةِ عَدُوِّهَا دُونَ تَكْلِيفِهَا شَيْئًا ، وَلَا تَقَعُ الشُّنَّةُ ! »
 فَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ الثَّلَاثِينَ أَلْفًا ، لَمْ أَرْزَأْ أَحَدًا فِيهَا دِرْهَمًا .
 ١٠ وَرَأَيْتُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ أَجَدَّ مَعَهُ عَقْدًا أَلَّا يَسْتَرْضَ لِي بَلَدًا ، وَلَا يَغْدِرَنِي
 بَعْدَهَا ، خَوْفًا أَنْ يَغْتَلِبَ عَلَيَّ ؛ فَأَجَابَ إِلَى الْعَقْدِ . وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
 « إِذَا لَا بُدَّ مِنْ دَفْعِهَا ، فَبِالْعَقْدِ أَوْلَى . فَإِنْ حُوجِّجْنَا إِلَيْهِ ، وَجَدْنَاهُ ،
 وَلَمْ يَضُرَّ ؛ وَإِنْ أَسْتَنْعَيْ عَنْهُ ، كَانَ مَكَانَتُهُ مُتَمَرُّ الْقَتَى وَالْبَيْضِ الرَّقَاقِ ، إِنْ
 تَدَارَكْنَا اللَّهُ بِمُسْكِرٍ يَدْفَعُهُ ؛ وَالْحَرْبُ خُدْعَةٌ ! » وَإِذَا لَمْ تَغْلِبْ ، ٥٢ (ب)
 ١٥ فَأَخْلِبْ ! »

فَأَجَابَ إِلَى تِلْكَ الْمُعَاقَدَةِ ، حِرْصًا عَلَى اخْتِذِ الْمَالِ ، وَنَحْنُ لَا نَشْكُ أَنَّه
 يَقْدِرُ ، كَالْخَاطِرِ لِنَفْسِهِ لِلضَّرُورَةِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى سِوَاهَا . وَقَالَ لِي عِنْدَ
 ذَلِكَ رَسُولُهُ : « يَقُولُ لَكَ الْفُونْشُ : « إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ تَخَلُّطَ مَعَ هَذِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، عَرْضُ « مَرَاكَشٍ » ؛ وَلَيْسَ بِتَصْغِيفٍ ، إِذْ عِبَارَةٌ « مَرُوكَشٍ » كَانَتْ

تَسْتَعْمَلُ دُونَ غَيْرِهَا أَيَّامَ الْمُرَابِطِينَ مُؤَسَّسِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ ؛ وَهِيَ الَّتِي انْتَقَلَتْ إِلَى الْفَلَاةِ الْإِسْبَانِيَّةِ دُونَ عِبَارَةِ

« مَرَاكَشٍ » ؛ وَاسْمُهَا بِالْإِسْبَانِيَّةِ إِلَى الْيَوْمِ Marruccos .

- لِلْمُعَادَةِ اسْتِعَانَةً بِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ بِلَادِكَ الَّتِي عِنْدَ ابْنِ عَبَّادٍ ، فَهُوَ يَجِدُ
لَكَ فِيهَا فِي وَجْهِهِ هَذِهِ . « فَأَجَبْتُهُ : « إِنِّي لَا أَعِينُ عَلَى مُسْلِمٍ أَحَدًا !
وَإِنَّ الَّذِي دَعَانِي إِلَى هَذِهِ الْمُعَادَةِ الْمُدَافَعَةُ عَلَى بَلَدِي وَأَهْلِي مِلَّتِي . فَإِنْ
وَقَّيْتُمْ بِذَلِكَ ، فَهُوَ الْمُرَادُ الَّذِي إِلَيْهِ قَصَدْنَا . » وَكَانَ مِنْ نَيْتِهِ أَنْ يَخْطُطَ
الْفِتْنَةَ بَيْنَنَا وَيَبْنِي ابْنَ عَبَّادٍ ، لِيَجِدَ بِذَلِكَ السَّبِيلَ إِلَى بِلَادِهِ ، وَيَقْوَى
عَلَيْهَا بِأَمْوَالِنَا ، وَيَتَسَبَّبَ إِلَى طَلَبِ كَثِيرٍ مِنْ أَمْوَالِنَا ، إِذْ كَانَتْ تِلْكَ
الثَّلَاثُونَ أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الدِّينِ الْمُسَالَمَةِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اسْتِثْنَاءَ عَمَلٍ .
وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يَتَّقِي يَقُولِنَا ^(١) ، وَيَحْسِبُ ذَلِكَ مِنَّا خُدْعَةً . وَقُلْنَا
لَهُ : « إِنَّا مُنْزَرُونَ فِي هَذِهِ الْقَعْلَةِ مَعَكُمْ ، وَنَسْتَدْرِكُنَا تَبَاعُثُهَا عِنْدَ
الرَّابِطِينَ ، وَنُطَالِبُ بِذَلِكَ ! » فَقَالَ ، تَسْهِيلاً لِأَخْذِ مَالِهِ : « مَتَى
أَذْرَكُكُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ طَلَبٌ ، فَقَلَى اللَّبُّ عَنْ مَدِينَتِكُمْ . » فَأَجَبْنَاهُ :
« بَلْ ، هُوَ يَرَى عِزَّنَا ؛ وَقَبُولُهُ وَعِظْفُهُ أَرْجَى عِنْدَنَا مِنْ مَعُونَتِكُمْ . »
فَانْفَصَلَتْ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ [لِي رَسُولُهُ] : « لَا بُدَّ لَهُ مِنْ
تَدْوِيخِ سَائِرِ الْبِلَادِ مِنْ نَظَرِ ابْنِ عَبَّادٍ وَغَيْرِهِ ، إِنْ لَمْ يَنْظُرْ ! » فَقُلْتُ :
« هَذَا أَمْرٌ لَا يَسْأَلُنَا اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! كُلُّ أَحَدٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ !
نَحْنُ قَدْ اخْتَلَنَّا عَلَى مَنْ قَلَدْنَا اللَّهُ أَمْرَهُ ، وَقَدَيْنَا أَرْوَاحَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ! وَمَنْ لَهُ
حَاجَةٌ مِنْ سَائِرِ السُّلَاطِينِ يُقَابِلُ أَمْرَكُمْ حَسَبَ مَقْدَرِهِ ، إِنْ شَاءَ بِفِدَاءِ
أَوْ قِتَالٍ . لَا تَكَلِّمْ نَحْنُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ؛ وَلَا أَنْتُمْ
وَاقِعُونَ تَحْتَ أَوْامِرِنَا ، فَهَاجَمُكُمْ عَنْ * ذَلِكَ . وَنَحْنُ لَمْ نَتَخَلَّصْ مِنْ ٥٢ (ب)
التَّحْصِينِ عَلَى مَا يَخْصُنَا إِلَّا بَعْدَ كَدٍّ ؛ وَمَا كَدُّنَا ، فَشَأْنُكُمْ ! وَأَنَا ٢٠

(١) أصل : « يثيق قولنا » .

بِرِيءٍ ، لا أُنْغِسُ في ذلكَ يَدًا ولا لِسَانًا .
ولم أجدَ وَجْهًا نرجو به بعضَ الدِّفاعِ عن إخواننا المسلمين أَكْثَرَ من
مُخاطَبَةِ الْمُعْتَمِدِ ، نعلمه بِجَلِيَّةٍ حالنا معهم ، وما ذكروه من إبطاءِ بلاده ،
ونُنذِرُه بذلكَ ، لِكَيْ يَقلعَ ، ويَدَّرِعَ الحِزمَ ، ويُقدِّمَ للأمرِ أهْبَتَه .

٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله

عبد الله يبرّر مسلكه

ثُمَّ خَاطَبَنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، نَنصُّ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا وَقَعَ وَمَا دَفَعْتَ الضَّرُورَةَ
إِلَيْهِ ، وَأَنْ الْحَاضِرَ أَبْصَرَ مِنَ الْغَائِبِ ، وَلَوْ الْحَالُ يَقْتَضِي بِمَطْلِبِهَا ، وَلَوْ بِمَقْدَارِ
وَصُولِ الْخُطَابِ بِمَشُورَتِهِ سَلَامَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، لَمْ أَقْدَمْ شَيْئًا فِي ذَلِكَ وَلَا أَخَرْتُهُ
إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ ، كَالَّذِي يُلْزَمُ ؛ غَيْرَ أَنْ الْخَفَرَ كَانَ أَشَدَّ ، لَمْ أَرِ التَّغْيِيرَ
بِالْمُسْلِمِينَ ، وَإِنْ الْإِتِّقَامَ مِنْهُمْ مُدْرِكٌ بِحَوْلِ اللَّهِ عَلَى يَدَيْهِ . وَلَمْ نَشْكُ فِي
أَنْ الْجَوَابَ يَرِدُنَا بِالشُّكْرِ عَلَى مَا نَظَرْنَاهُ وَسَدَدْنَاهُ ، لَا سِيَّمَا إِذْ كَانَ
الْقَدَاءُ مِنْ عِنْدِي وَلَا أَكَلَّفْتُ فِيهَا مُسْلِمًا دِرْهَمًا . فَوَرَدَنِي جَوَابُهُ مَعَ
مَا أُمْلِيتُ نَفْسُهُ مِنَ الطَّلَبِ لِي ، وَصَوَّرَتْ عِنْدَهُ الْأُمُورَ عَلَى غَيْرِ حَقَائِقِهَا ،
بِمَا زَادَ فِي جِزْعِي ، يَقُولُ : « أَمَّا مَدَاهَنُكَ وَقَوْلُكَ الْبَاطِلُ ، قَدْ عَلِمْنَاهُ !
وَسَنَعْلَمُ عَنْ قَرِيبٍ كَيْفَ تَرْضَى الرَّعِيَّةُ ، وَمَا تَصْنَعُ إِذْ زَعَمْتَ أَنَّكَ نَظَرْتَ
لَهَا . وَلَا تُسَوِّفُ : فَإِنَّ هَذَا قَرِيبٌ غَيْرُ بَعِيدٍ ! »

فَلَمْ أَقْطَعْ مَعَ هَذَا ، وَقُلْتُ ، عِنْدَ الْحَقَائِقِ وَتَبْيَانِ مَا وَقَعَ ، عَلَى لِسَانِ
رَسُولٍ : « يَزِيلُ عَنْ بَالِهِ كَلَامَ الْأَعَادِي ! وَهَذَا مِنْ بَغْيِ التُّلَعْنِيِّ »
٢٠ وَأَبَى بَكْرُ بْنُ مُسَكِّنٍ ! فَإِنَّهُمْ لَا يَنْقَلِبُونَ إِلَّا عَلَى شَهَوَاتِهِمْ ! وَكَانَ

- أبو بكر بن مُسَكِّن قد بلغ من طغيانه على ، وسبَّو لي ، ورجائه^(١) في أن يسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قرني أو أكثر ؛ فإنه اتسعى إلى بني زيري ، وجعل يهذي بذلك ويفتخر به ، لا يرى لأحد عليه فضلاً ، ويسعى في نقض ما نبرم من أحوال الدولة ما لا يتم معه ملك ولا أمر . فجعلت الذنب فيه سواه كما في * القلعي ، إذ مقالته لا تطفى^{(١) ٥٣} ما أشغل القلعي لو أراد الخير ، كما أن تركه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك . فجعلت لهم فيهما همًا واحدًا .
- ولما تشددت عليه ، وأمرته بالكف ، أحرق ، وهرب دون نفي ، ومضى قاصداً إلى الرابطة ، يغري في ، ويسعى على ، ويكذب ، ويصور الأمور على غير وجوها . فتكررت مخاطبتي على أمير المسلمين ، نبين له جميع ما وقع ، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفسقة . وهو ، في ذلك كله ، لا يراجعني إلا بالشدّة ، وقبول قولهم على . فقيت تلك الأيام على أسوأ حال ، لا ندرى أين الخير ، ولا كيف التخلص .
- وساء ظن المعتد بي في دخول النصراني إلى بلاده ، وكفه عن بلادنا ؛ واعتقد أن ذلك عن اتفاق ؛ ولو كان عن اتفاق ، لأدبته عليه مالا فوق الجزية ؛ فليس لهم إلا بني الكرى غير منطاعين لقول أحد . ولم يات عسكر الثرابطين إلى إشبيلية إلا والبلد قد أفسد .
- والله تعالى يعلم أني ما واسيت في تلك النصبة ، ولا يسألني الله عن كلمة طعنت فيها على مسلم . فانققت الأفاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب ؛ ولو أني أريد ذلك ، والانحياس إلى النصارى ، كالذي قيل ، لم

يَصِلُ الرُّابِطُونَ إِلَى سَبْتَةَ إِلَّا وَمَدِينَةُ غِرْنَاةٍ مَمْلُوءَةٌ مِنْهُمْ ؛ وَكَانَتْ
 أَسْتَطِيعَ عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَتْ لِي فِي الْمَدَّةِ بَرَهَةٌ وَفَسْحَةٌ طَوِيلَةٌ ؛ إِلَّا أَنْ
 الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَتِلْكَ الْقَالَةُ إِنَّمَا كَانَتْ سَبَبًا لِلَّذِي قُدِّرَ ؛ وَلَوْ أَنَّ قَضِيَّتِي
 تُسْتَوْضَحُ ، كَوَجِدَ فِيهَا مَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ ، وَلَا مَقَالُ يَنْتَهِي ، وَلَا إِسْرَارَ فِي
 مَثِيلٍ عَلَى مُسْلِمٍ ، وَلَا إِدْخَالَ دَاخِلَةٍ . وَكَيْفَ يَصْحُحُ هَذَا قَبْلَنَا ، وَأَوَّلُ
 سَيْفٍ سُلِّ عَلَى الرُّومِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَهِيَ الْوَقِيعَةُ الْمَشْهُورَةُ بِالنَّيْبِلِ ،
 مِنْ طَاعَتِنَا ، فِي حِينَ تَطَرَّقَ النَّصَارَى إِلَيْهَا عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ؛ وَوَافَقَ ذَلِكَ
 أَوَّلَ ظَهْوَرِ الرُّابِطِينَ وَوُصُولِهِمْ سَبْتَةَ ؛ وَوَرَدَنَا إِذْ ذَاكَ* رَسُولُ الْفُونَشِ ٥٣(ب)
 مُعْتَذِرًا مِنَ الْأَمْرِ ؛ فَصَرَفْنَاهُ عَنِ الطَّرِيقِ ، قَطْعًا لَهُ ، وَإِثَارًا لِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ .
 ١٠ وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ !

الفصل التاسع

إمارة الأمير عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب
(٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونُذُر الكارثة

٦١ - ثورة يهود مدينة اليُسَّانة

ولما كُنْتُ في تلك الفترة ، بَدَتْ أُمُورٌ وأسبابٌ دَلَّتْ على ما كان من
الامتثال ومُتَقَدِّماتٍ أَذْنَتْ بِالزَّوَالِ . فأَوَّلُ ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لِمَلَكَةٍ
نَذَرُهَا ، وأَرَقَّ سببٌ لَمْ يُؤَبِّهِ لَهُ . وذلك أَنِّي ، لما أَمَرْتُ بُبْنِيانَ السُّورِ
لِلتَّصُلِ بِالْحَمَاءِ ، ودَبَّرْتُهُ على تلك النَّصْبَةِ الَّتِي أَضْرَبْتُ عَنْ شَرَحِهَا لِاسْتِهَاةِهَا
هَيَأَتِ السَّعَادَةِ أَنْ وَجَدَ الْبَنَّاؤُونَ فِي الْأَسَاسِ قُمْقُومًا مَلُوءًا ذَهَبًا أَغْلُوفِي بِهِ .
فلما وَقَفْتُ عَلَيْهِ ، لَقِيتُ فِيهِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِثْقَالٍ جَعْفَرِيَّةٍ . فاستبشرتُ بِهَا
١٠ وتفاءَلْتُ بِنَجَاحِ الطَّلِبَةِ ، والدُّنْيَا تَسْخَرُ بِنَا كَمَا سَخَرَتْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا . فقلتُ :
« مِنْ أَسَاسِهِ يَكُونُ بُنْيَانُهُ ! »

وكانت دارُ أَبِي الرَّيِّعِ الْيَهُودِيِّ الْخَازِنِ لِلْأَمْوَالِ فِي دَوْلَةِ جُدِّي
— رَحِمَهُ اللَّهُ — مَبْنِيَّةً عَلَى ذَلِكَ الْأَسَاسِ ؛ فَعَلِمْنَا أَنَّهُ مِنْ مَالِهِ لِلدَّفُونِ .
فَأَتَى ابْنُ الْمَرْءِ مُنْصَحًا بِالْأَمْرِ ، وَيَقُولُ : « أَرْسَلُوا عَنْ ابْنِهِ ، يَكْشِفُ لَكُمْ
١٥ سَائِرَ دَقَائِقِهِ » فَخَاطَبْنَا عَنْهُ لِيَرِدَ عَلَيْنَا فِي بَعْضِ الْأَمْرِ . وَكَانَ صِيْهُرُهُ ابْنُ
مَيْمُونٍ ، كُنَّا قَدْ قَدَّمْنَاهُ عَلَى يَهُودِ الْيُسَّانَةِ بِوَجْهِ الْأَمَانَةِ ، وَأَسَدَيْنَا إِلَيْهِ جَيْلًا

من التنويه به ؛ فاستمال بها أقواماً من الغرباء ، يصول بهم على أهل ملته ؛ وكان خبيثاً . فأحسن بالقصة ، ووجست نفسه منها ، واعتذر عن صهره ، وساء لذلك ظنّه ، وخشى أن يُعذّب على مال أبيه .

ووافقَ قبلَ ذلك ، عند انصرافنا من لييط ، أن فرّضنا على أهل اليُسّانة ذهباً كثيراً باسم التّقوية ، لم تجرِ عادتهم به ، وحلّناهم في ذلك على الصّحة والانطباع ؛ فنفرتَ لذلك أنفُسُهم . ووجد ابنُ ميمون المذكور السبيلَ إلى إغرائهم وتحليلهم على النفاق ؛ فأجابوه ، ودخلوا في السلاح ؛ ونادى فيهم أن : « جدّوا ، معشرَ بني إسرائيل ، في حاية أموالكم ! » وافضح بذلك ابن ميمون . وسبّغتَ له جنابةً في قتل * عاملنا ابن أبي لؤلا ٥٤ (١) على المُستخلّص رياسةً وعدواناً . وامتنعت اليُسّانة بالجملة . ١٠

فلما رأيتُ ذلك ، لم أجذّ مُبداً من مُداراة الأمر . واشترطَ مُؤمّلٌ بإصلاحه ، ونهص . ثمّ إنّي علمت رأيي بَعْدَه ، وعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَلْقَى إِلَّا أَحَدَ وَجْهَيْنِ : إمّا طاعةً على غشٍّ ، أو عصياناً ؛ وأيهما كان ، فإرسالُ المسكر إليه واجبٌ ، وشدةٌ وترهيبٌ ، ليعلموا قَدْرَ ما جَنَوْهُ . وخرَجْتُ بنفسى في أثره ، وقد اجتمعت إلى الأنداب . فإذا بمؤمّل قد أُقْبِلَ مُنْصَرَفًا ، وردّنا عن ذلك للذهَب ، وقال لي : « قد أصلّحتُ الأمر مع ابن ميمون . ونهوضك إليه لا يزيد القوم إلّا نفاراً ، وربما استعانوا بعسكر ابن عبّاد ، لا سيّما أَنَّهُ الْآنَ بِمُرْطَبَةٍ ، وليست تُؤخَذُ بِإِحْصَارٍ وَلَا قِتَالٍ ! » على أنّي قد عَلِمْتُ أَنَّ ابنَ عبّاد لا يحبيهم في ذلك الوقت كلّهُ ، ولا اشتهر بذلك إلّا ما كان الناسُ يذكرونه ، وابن ميمون يفتخر به ويُطْمِع به ٢٠ أهل اليُسّانة .

فقبلتُ قولَ ابنِ مؤمِّلٍ ، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة ؛ وقلتُ :
 « خُروجي إلى هنا أو وصُولي إليهم سواء ! إذا أردنا التَّهَيُّب ، فقد
 وصلناه ! » ثمَّ قلتُ لمؤمِّل : « صِفْ عليَّ ما انفصلتَ ! » فقال :
 « إنَّ ابنَ مَيمون زعيمَها عدَدُ أشياء أنكرَها من الإرسالِ في صهره ،
 وهذه الفرضة العظيمة ، وسائر ذلك من الألقاب اللازمة . فضمنتُ لهم
 الصكوك برفع ذلك عنهم ، ولابن ميمون في خاصَّته . » وأمرتُ بعقدِها
 والإرسال بها . وقرتُ الجبالُ قرارها .

ووجستُ نفسي من ابن مَيمون لإظهاره الخلاف والإعلان بذلك ،
 وعلمتُ أنَّ هذه هُدَّةٌ على دَخَنِ ، وأنَّ لاطاعة تصحُّ لي معه ، وسيؤثر
 أمثال هذه . قدَّبتُ إلى المداخلة من اليهود المحمولين في زمانه ، ووعدتهم
 بالإحسان ؛ وتكرَّر في الوساطة ابن سبيق ، حتى أبرمتُ من ذلك
 ما أملتُه . وكان أخذُ ابنِ مَيمون يسيراً ، لا عُصبةَ له ، وهو غافلٌ . وكان
 الوساطة أيضاً ابنُ المَرَّة مع أبي المَباس الحَكيم . وكان * ذلك ممَّا نفعه ٥٤ (ب)
 مؤمِّلٌ لانهياشه عن ذلك ، إلى أن وردوا الحضرة على عاداتِهِمْ ، وأمرتُ
 بثقافه مع ابنه برضاء من الشيوخ ، وأمرتُ أن لا زعيمَ فيهم بعد اليوم
 إلَّا الكلُّ منهم أمتاء مَنوَّه بهم ؛ فشكروا ورَضَوْا . وخاطبتُ عامَّتَهُمْ
 نُفْلِهِمْ بما لهم في ذلك من الصلاح . وتهدَّنتُ الأحوال وقرتُ ، إلى أن
 تلف الكلُّ .

٦٢ - قضية زناة

وقضية أخرى بعد هذه في أمر زناة : إنه ، لما أعلتُ الفكرة في عاقبة الأمر في هذه الفتن^(١) العارضة ، رأيت أن الاهتبال بالمعاقل من آكد ما يجب النظر فيه ، كالذي تقدم ذكره من النظر في عُدِّها وما يُصلحها ، وأن الأولى استصلاح ما قُصد من نفوس قوادِها . وذلك أنه لم يكن يلي لنا متعللاً قط غير صنهاجة والوصفان والتعبيد ، ما خلا زناة : فإنهم كانوا أجناد الحضرة .

وكان الصنف المذكور قد صُغف ؛ واستولى عليه النقصان لطلبات جرت عليهم من قبل وزراء الدولة كاليهودي وغيره ؛ فإنهم كانوا يرون ألا ولاية تنهياً لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إياهم وأنفستهم من تولية مثلهم ، فكانوا يميلون إلى الصنف البراني كله ، ولما جرى على اليهودي ما جرى منهم ، اعتدّها الناية في نفسه ، وخشى مثل ذلك ، فجعل نفسه في مطالبهم ، وتبديدهم ، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة ؛ ومن كان بيده شيء ، تسبب إليه وأزيل عن يده . فأذركم النقصان والقلّة ، وزاد في زناة ، وقويت أحوالهم وإنزالاتهم ، على أنهم كانوا على الحقيقة خيرة جند الأندلس ، والموثوق بهم في الشجاعة والنجدة . وكان الصنف كثيراً ، لا يعدم ضمهم من له مال .

قلتُ في نفسي : « هؤلاء القواد الذين على الحصون ، وإذا كانت أنفسهم فاسدة ، ولا يتذكرون معنا على نعمة طائلة ، فكيف يُمكنون المعاقل ، أو بأيّ قلبٍ يحدّون معي ؟ وإنه لا عِوضَ منهم في الثقة

(١) أصل : « الفتن » .

لِلْحَصُونِ * وَإِنْ زَنَانَةُ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَصِّلِينَ لَا تَقَّةٌ فِيهِمْ لِلْمَدِينَةِ الْفَوْقَى وَلَا ٥٥ (١)
 لِلْحَصُونِ ، أَكْثَرُ مِنْ خِدْمَةِ الْجُنْدِيَّةِ ، لَا يَعْدَمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ . فَأَنَا جَدِيرٌ
 أَنْ أُشْرِكَ مَنْ ضَعُفَ مِنْ صِنَاهَا بِهَؤُلَاءِ الْأَقْوِيَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكْتَهُمُ الْعِنَايَةَ
 وَيُمْسِكُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْزَالَ خَمْسَةَ فُرْسَانٍ وَسِتَّةٍ . ثُمَّ مِنْ قَنَعَ بِمَا يَبْدُوهُ بَقِيَ ؛
 وَمَنْ لَمْ يُبْرِدْ ، لَمْ نَعْدَمْ مِنْهُ الْعِوَاضَ ! « فَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأَشْرَكْتُهُمْ . وَكَانَ فِي
 هَذَا كُلِّهِ تَحْرِيكٌ لِلشَّرِّ وَالْقَالِ :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِقَتَى فَأَكْثَرُ مَا يَجْتَنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ^(١)
 فَلَمَّا رَأَى كِبَارُ زَنَانَةِ ذَلِكَ ، قَلَقُوا ، وَسَاءَتْ ظُنُونُهُمْ ؛ فَكُنْتُ ،
 مَتَى دَعَوْتُهُمْ إِلَى خِدْمَةٍ ، تَحْمِدُهُمْ عَنْهَا عُلَازِينَ : مِنْ أَشْرِكٍ وَمَنْ لَمْ يُشْرِكْ ؛
 فَامْتَحَنْتُ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَقِيلَ لِي : « إِنَّ كِبَارَهُمْ يَفْسُدُونَ صِغَارَهُمْ ! وَلَوْ أَنَّكَ
 تَخْرِجُ غَوَاقِمَهُمْ^(٢) مِنَ الْبَلَدَةِ ، لَصَلَحَ لَكَ سَائِرُهُمْ ! »

فَأَمَرْتُ بِإِخْرَاجِ ثَلَاثَةِ أَنْفُسٍ مِمَّنْ يَتَّبِعُهُمْ مِنْهُمْ . وَكَانَ الْأُمُورَ بِذَلِكَ كَلِيبٌ
 الْخَصِيُّ ، صَاحِبُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَثِقَانَهُ لَتَرْيَقَتَا لَهُ . وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ
 أَقْوَامٌ يَحْسُدُهُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَنْتَقِلُوا طَرِيقَتَهُ السَّيِّئَةَ ؛ فَأَصَابَ الْفُرْصَةَ
 لِلْخَرَابِ ، وَأَرْسَلَ مِنْ قَبْلِهِ إِلَى أَوْلَئِكَ الْمَخْرُجِينَ ، وَإِلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ بَنِي
 عَمَّتِهِمْ ، يَقُولُ لَهُمْ : « إِنَّ الطَّلَبَ قَدْ وَقَعَ فِيكُمْ مِنْ مَجْلِسِ السُّلْطَانِ ؛ وَأُمِرْتُ
 بِإِخْرَاجِكُمْ . فَلَا تَوَهِّنُوا ، وَأَجْتَهِدُوا فِي التَّمَعُّبِ عَلَيْهِ وَتَرْوِيعِهِ ! وَأَنَا مَعَكُمْ !
 فَإِنَّهُ ، إِذَا رَأَى جَمَاعَتَكُمْ ، رَجَعَ إِلَى قَوْلِكُمْ ! » فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ الْأَمْرِ
 بِسَاعَةٍ ، وَإِذَا بِجَمَاعَةِ الْجُنْدِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ ، يَقُولُونَ : « إِنَّمَا أَنْ
 يَبْرُدَ شِرْكُنَا ، وَإِنَّمَا فَالْكَلُّ رَاحِلُونَ عَنْهُ ، مُنْتَقِلُونَ إِلَى غَيْرِهِ ! » وَأَتَى ٢٠

(١) وَرَدَ هَذَا الْبَيْتُ أَعْلَاهُ . (٢) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، عَرْضًا عَنْ « غَوَاقِمِهِمْ » .

الفاسقُ لَبِيبٌ وأصحابُه الْمُتَفَقِّهونَ معه ، يقيمُ حُجَّتَهُمْ ، ويُعَضِدُ قَوْلَهُمْ ، ويخَوِّفُ منهم . فَبَيَزَتْ الأَمْرَ ، وَعَلِمَتْ أَنَّ هَذِهِ جَمْعَةٌ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَّا إِلَى رَأْيٍ ؛ فَأَظْهَرَتْ الشَّدَّةَ ، وَقَلَّتْ : « لَسْتُ بِرَاجِعٍ عَمَّا أَمَرْتُ ؛ فَتَكُونُ نَفُوسُ الَّذِينَ أَشْرَكْتُ مَعَهُمْ مُنْصَرِفَةً * إِلَى مِثْلِ نَفُوسِهِمْ إِنْ قُنْ شَاءَ ، فَلَا يُؤْمَرُ ، وَمَنْ شَاءَ ٥٥ (ب) فَلْيَبْقَ ا » فَلَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ ، خَرَجَ الْكُلُّ .

وَمُؤَمِّلٌ ، فِي هَذَا كَأَنَّ ، عَلَى اتِّفَاقٍ مَعَ لَبِيبٍ ، يَدْخُلُ فِي رُؤُوسِ الْجُنْدِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ : « إِنَّ هَذَا مِنْ قَبْلِ غَيْرِنَا ؛ وَنَحْنُ أَهْلَاءُ ! » وَيُرَوِّهَمُ الشَّقَّةَ مِنَ الأَمْرِ وَالطَّعْنِ عَلَى . وَصَحَّ ذَلِكَ عِنْدِي مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ شُيُوخِ الْعَبِيدِ أَهْبَابِ مُؤَمِّلٍ ، وَعَلِمْتُ حَسَابَ زَنَاتِهِ أَنَّهُمْ لَا يَزُولُونَ بِالْكُلِّ ، وَأَنَّ ذَلِكَ تَرْهِيْبٌ ، وَأَنَّ الرُّجُوعَ عَمَّا أَمَرْتُ بِهِ يَضُرُّهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُحِلُّ بِالرَّأْيِ ١٠ وَيَكُونُ لَهُمُ الضُّلُوعُ وَالْحَاقَّةُ فِي الْمَصِيَةِ ، وَأَنَّ انْقِيَادَهُمْ لِلأَمْرِ وَاسْتِعْذَارَهُمْ بَعْدَهُ أَشْبَهُهُ ، وَلِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ أَعَزُّ وَأَبْهَى .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ آخَرُ ، خَرَجْتُ بِنَفْسِي إِلَى عَرَضِهِمْ كَيْ لَا يُبْطِنَ عَلَيَّ مِنْ تَقَدُّمِ ذِكْرِهِ . فَأَمَرْتُ بِالْبَرِيحِ عَلَيْهِمْ وَإِحْضَارِ الزَّمَامِ ، لِنَعْلَمَ مِنْ صَحِّ مُضِيئِهِ وَقَعُودِهِ . ١٥ فَوَجَدْتُ الْكُلَّ مُجْتَمِعِينَ ، قَدْ انْصَرَفُوا مُتَقَطِّعِينَ لَيْلًا ، لَمْ يَنْبِ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَوْقَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِهِمْ ، وَجَعَلُوا يَعْتَذِرُونَ وَيَتَنَصَّلُونَ . فَقُلْتُ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ! هَذَا أَشْبَهُهُ وَالَّتِيُّ بِالْمَلِكَةِ ! » وَرَأَيْتُ مُؤَمِّلًا وَلَبِيبًا وَغَيْرَهُمَا قَدْ عَزَّتْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُمْ مُؤَمِّلِينَ أَنَّ لَوْ كَانَتْ طَائِفَةٌ لَا تَرْفَعُ .

وَالْعَيْنُ تُبْصِرُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثَهَا إِنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا

٦٣ - انقلاب مؤمل وثورته في لَوْشَة

- ولما قرَّ أمرهم قراره ، جاء مؤملٌ في إثر ذلك يقول : « إنَّ هذا الانطباعَ منهم ليس لرغبةٍ في البقاء معك ! غير أنهم يُدَارونك حتى يحصلوا على فائد إنزالهم ، ويتزوّدوا به ! فلا فائدٌ تُنزل عليه غيرهم ، ولا رجالٌ بقوا معك ؟ » وكنْتُ إذ ذاك ناظرًا منه بِعَيْنِ الثَّقة ؟ فعل قوله في نفسى ، وقلتُ : « لا يَخْلُو هذا القولُ عن وجهين : » إمّا قد اطلَّع على ذلك منهم ، فهى نصيحةٌ ، أو لم يطلَّعْ ، فهو بغالته لا يدَعُهُمْ ، ويدخل هذا في رؤوسهم ، وتكون على في ذلك الخسارة . وإن احتجَّتْ إلى العِوض ، لم يكن لى على ما نُنزله ولا فى بيت المال الكفاية لِمَا نحن بسبيله* من النفقات على سائر الأمم ! » فلم ٥٦ (١)
- يأتينى من هذه الكلمة نعاس . وأمرتُ بإخراج كلِّ من فى رأسه حاقةٌ . فبلغ عدَّتُهُمْ نحو المائة فارس ؛ فخرجوا عن المدينة ، وتصفَّتْ ، ولم يَبْقَ فيها إلا مَنْ ينطاع لكلِّ أمرٍ .
- وعملَ فى نفسى قتلُ كَيْسب وشيوخ العبيد ، وصحَّ عندى منهم وَفِيهِمْ أَنَّهُمْ عَوَّجُوا زَنَانَةً ؛ وكانوا أَشدَّ علىَّ من كلِّ أحدٍ . وجعل زَنَانَةُ يذكرون ذلك ، ويقولون وقتَ اعتذارهم : « لا ذنب لنا ! إِنَّمَا نَحْنُ جُنْدٌ ، ولولا ثِقَاتُهُ وَعَبِيدُهُ الذين حملونا على ذلك ، لم نَجترم^(١) عليه ! » وَجَبَلُوهم فى وقت قيامهم يمشون على الأسواق ، ويأمرُون الناسَ بالقيام ، ويقولون لهم : « لم نَدْفَعْ نَحْنُ ، إِلَّا وهو يُريد إدخالَ النصرى ! » فلم يَلْتَفِتِ الناسُ إلى قولهم ، إذ لم يروا ذلك من ثِقَاتِ الدولة وصِنَاهَا .

(١) أصل : « نَجَرُوا » .

ولما أخرجَ زَنَانَةُ ، أمرتُ بعد ذلك بإخراج اثْنَيْنِ من شيوخ السبيد الذين صحَّ عندي إشْمَالُهم لهذه القضية ، وثَقَقْتُ لَبِيَّيَا . فوافقَ إخراجَهُمُ ومؤمِّلُ خارجَ المدينة ؛ فلعقوا به ، وقالوا له : « قد أخرجنا ! وغدا بك هَكَذَا ! فانظُرْ لنفسك ! » فخرجَ معهم من قُورِهِ ذلك ، فاصداً إلى لَوْشَةٍ ، مع مَنْ اتفق معه مثل ابن البراء الكاتب وغيره .

وكانت هذه تَقَفَّةً قَدِيمَةً بَيْنَهُم مع بنى مالكِ عُمَّالِ لَوْشَةٍ ، أنه ، متى دهمهم أمرٌ ، لَجَؤُوا إليها . فنهضوا من قُورِهِم ذلك فاصدين إلى لَوْشَةٍ ، ولحقوا بها ليلاً . ودخل للمدينة ، ولم يمنعه أَحَدٌ لِمَكَاتِهِ مِتًّا ؛ وحسب القائد ومن فيها أنه رَسُولٌ . فصار في قَصَبَتِهَا ، وجمع الجُنْدَ والرعيَّةَ ، وصرخَ فيهم بالبكاء ، وافعل الكذب ، وقال لهم : « لم أخرجُ من غرناطة إلا كما تَرَوْنَ : » بطَوْقِي على عُنُقِي ! وتركتُ فيها النصارى قد استخوذوا عليها ؛ وكشِفَ عَنِّي ! فاثبتوا معي ونُوجِّهُ إلى كلِّ سلطان : فمن أجاينا ، اعتَصَدْنَا به ! » وخاطَبَ بذلك حُصُونَ القُورِ ، يأمرهم

بالخلاف ؛ وأرسل إلى زَنَانَةَ المُخْرَجِينَ ، ليكونوا معه مُضَيِّقِينَ على * غرناطة . ٥٦ (ب)

١٥ وإنَّ أهلَ الجِمْةِ مع أهلِ الحصون ، لَمَّا سمعوا ذلك ، دَبَّرُوا رَأْيَهُم . وأرسل كلُّ حِصْنٍ من كبارهم إلى الحَضْرَةِ مَنْ يَطْلِعُ صُورَةَ الأَمْرِ ؛ فإن وَجَدَ خِلَافَ قَوْلِهِ ، لم يُخْبِرُوا وجوههم معنا ؛ وإن أَلْفَوْهُ سَحًّا ، نظروا لأنفُسِهِمْ . فأتوني أفواجًا مُعَزِّينَ ومُهَيِّئِينَ على السلامة من النصارى ، ومُسْتَفْهِمِينَ جَلِيَّةَ الحال . فأخبرتُهُم بالأمر على وَجْهِهِ ، ولم يروا شيئاً ٢٠ يَمَّا ذَكَرَ مُؤَمِّلُ . فطابت أنفُسُهُم ، وعلِمُوا أَنَّهُ مُخَالِفٌ مُنَافِقٌ . فبادَرَ الكلُّ إلى مُنَازَلَتِهِ ، وسألوني عَسْكَرَ الحَضْرَةِ .

وَكُنْتُ ، لَمَّا صَحَّ نَفَاقُهُمْ بِلَوْشَةٍ ، قَدْ أَبْلَيْتُ لَهُمْ عُذْرًا ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِمْ كُتُبًا وَرُسُلًا تَأْمَنُهُمْ بِمَا خَافُوا ، وَتَحَذَّرُهُمْ قَبِيحِ الْعَاقِبَةِ فِي إِشَارِ الْفِتْنَةِ ، وَأَنِّي مُطْلِقٌ إِلَيْهِمْ أَهَالِيَهُمْ ، وَيَجْرُؤُونَ عَنِ الْحَصُونِ حَيْثُ شَاؤُوا بِأَمَانٍ وَوَثَاقٍ ؛ وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ ، لَا يَزِيدُونَ إِلَّا طُغْيَانًا وَتَهْدُدًا ، بَيْنَ عَالِي الشَّرِّ ، طَالِبِينَ لِلثَّارِ بِلَا ثَارٍ . فَلَمَّا يَسْتُ مِنْهُمْ ، مَعَ اتِّفَاقِ الْحَصُونِ عَلَيْهِمْ ، أَرْسَلْتُ بِالْعَسْكَرِ ، وَقَوَّدْتُ عَلَيْهِمْ يُوسُفَ بْنَ حَجَّاجٍ ، سَنَدَكُرَ وَجْهَ مُصَاهَرَتِهِ لَنَا بَعْدَ هَذَا ؛ فَهَضَّ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَاعَةً وَصُولِهِ ، وَجَزَعَ مَنْ مَعَهُ فِي الْقَصْبَةِ ، وَخَلَّتْ عَلَيْهِمْ ؛ وَدَخَلَهَا الْعَسْكَرُ ، وَأَمَرَ فِيهَا هُوَ وَكُلُّ مَنْ مَعَهُ . وَأَتَانَا مِنْ ذَلِكَ فَتَحٌ عَظِيمٌ .

١٠ وَأَمَرْنَا بِتَقَافِهَا وَسَوْقَانِ الْأَسْرَى ، وَتَقْنَانِهِمْ مُسْتَفْتِينَ فِي أَمْرِهِمْ ؛ فَأَفْتَتِ السُّنَّةُ أَنَّ قَتْلَهُمْ غَيْرُ جَائِزٍ إِذْ كَانَ نَفَارُهُمْ جَزَعًا ، عَلَى أَنَّهُمْ كَانَتْ لَهُمْ سَعَةٌ فِي الْأَرْضِ غَيْرَ لَوْشَةٍ ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا النِّسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛ وَآخَرُونَ يَقُولُونَ بِقَتْلِهِمْ . فَأَثَرَتِ الْأَلْيَقُ وَالْأَبْعَدُ مِنَ الْأَنَامِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَفُوتُ ؛ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ النَّائِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْفُدْرَةِ . فَأَوْجَبَتْ السِّيَاسَةُ تَقْيِيفَهُمْ وَالشَّدَّةَ عَلَيْهِمْ ، لِئَلَّا تَكُونَ طَرَقَةً لَعِيرِهِمْ ؛ وَهُوَ بَابٌ فَتَحَهُ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ أَضَرِّ الْأَشْيَاءِ ؛ فَلَا غَفْلَةَ لِمَلِكٍ يَقْظَانَ فِيهِ .

وَخَاطَبُوا ، مُدَّةً كَوْنِهِمْ بِلَوْشَةٍ ، كُلَّ رَئِيسٍ بِالْأَنْدَلُسِ ، حَتَّى صَاحِبَ مَالَقَةٍ . فَلَمْ يَجِبْهُمْ * أَحَدٌ . فَلَمَّا يَتَّيَسَّرَ مُؤَمَّلٌ مِنْهُمْ ، أَرْسَلَ إِلَى أَمِيرِ ٥٧ (١) الْمُسْلِمِينَ ، بِزَوْرٍ عِنْدَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، وَبِكَذِبٍ ، وَيَقُولُ لَهُ : « لَمْ تُؤْتِ إِلَّا مِنْ إِنْكَارِي أَمَرَ النَّصَارَى ، وَالْقِيَامَ بِدَعْوَتِكَ » حُجَّةٌ لَا تَقُومُ عَلَى سَاقٍ . وَكَانَ الْعَسْكَرُ إِلَيْهَا مُقْبِلًا مَعَ نَعْمَانٍ ؛ فَانْصَرَفَ لَنَا عَمَّا بِأَخْذِهَا .

٦٤ - وَصَفَ الثَّائِرُ ثُمَّانُ وَسِيرَتُهُ ضِدَّ عَبْدِ اللَّهِ

وكان ثُمَّانُ المذكورُ ممن فَعَلْنَا معه جَيْلاً ، وَأَحْسَنَّا إِلَيْهِ مُحَرِّمَةَ الْقَرَابَةِ
والانقطاع إلينا من الرُّبَاطِينِ ؛ وزال عَنَّا بعد إعماله الدواخِلِ عَلَيْنَا فِي حصُونِنَا
الغُرَبِيَّةِ ، وَعَقْدِهِ مع أَهْلِهَا أَنْ يَصِيرُوا فِي طَاعَةِ الرُّبَاطِينِ مَتَى دُعُوا . وكان
له بِتِلْكَ الْجَمَةِ إِنْزَالٌ ؛ فَتَمَكَّنَ مِنَ الْقُرْبِ وَالْعَمَلِ بِذَلِكَ ، وَخَرَجَ عَنَّا
بَسْرَاحٍ أَدْعَى مِنْ أَجْلِهِ أَنْ لَهُ بِالْعِدْوَةِ مِيرَاثًا وَمَالًا يُرِيدُ اقْتِضَاءَهُ ؛ فَأَجَبْنَا
لَهُ النُّهوضَ ؛ وَإِذَا بِهِ يَسْعَى عَلَيْنَا . وَقَالَ لِلْأَمِيرِ : « نُفَيْتُ مِنَ الْبَلَدِ مَنْ
أَجَلَ نَصِيحَتِي لَكَ وَتَحَبَّبَتِي فِي دَوْلَتِكَ ! » أَمَرْتُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ حَرْفٌ ، حَتَّى
إِنْ أَطَوَّقِي ، إِنْ تَكَلَّمْتُ ، لَسَعَتْ عَلَيَّ ، لِلْقَدَرِ الَّذِي شَاءَهُ اللَّهُ ، عَسَى
لِعَاقِبَةٍ مَحْمُودَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ١٠

فَعَمِلْتُ هَذِهِ الْعَامَ كُلَّهَا فِي نَفْسِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، مع مَا صُوِّرَتْ عَنْده
بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ الْكَذُوبِ عَلَيْهَا وَالتَّوَقُّفِ فِي طَاعَتِهِ وَالْجِهَادِ مَعَهُ لَوْ بَقِيَتْ الْحَالُ .

٦٥ - مَسْأَلَةُ زَوَاجِ الْأَمِيرَتَيْنِ أُخْتَيْ عَبْدِ اللَّهِ

وإِنَّا فِي تِلْكَ الْقَفَرَةِ ، رَأَيْنَا مِنَ الصَّلَاحِ النَّظَرَ لِمَنْ مَعَنَا مِنَ النِّبَاتِ
وَتَزَوَّيَجَهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَ أَمْرٌ ، فَيَكُنَّ عَلَى غَيْرِ عِصْمَةٍ وَلَا كَفِيلٍ . ١٥
فَتَخَيَّرْنَا لَهُمَا مِنْ بَنِي عَمَّتِهِمَا شَاكِلَةَ ، مِنْهُمْ مَعْدُ بْنُ يَعْلَى ، الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ
مِنَ النِّجَابَةِ وَالْعَقْلِ وَالْمَحَبَّةِ ؛ فَصَدَدْنَا عَنْ ذَلِكَ أَهْلُ دَوْلَتِنَا ، وَقَالُوا نَصِيحَةٌ
وَحَسَنَةٌ : « إِنْ أَنْتِ تَصَاهَرْتِ إِلَى بَنِي عَمِّكَ ، سَحَلْتَهُمْ دَالَّةُ الْقَرَابَةِ مع
المُصَاهَرَةِ عَلَى الظُّهُورِ عَلَيْكَ وَفَسَادِ حَالِكَ بِصِلَاحِهِمْ . فَإِيَّاكَ ! وَعَلَيْكَ بِمَنْ

هو دون قِيَمَتِكَ ؛ فِرَاعِي إِحْسَانَكَ ، وَيَرَى هَذَا مِنْكَ كَثِيرًا ، وَيَرَى
عِيَالَهُ بَعِينَ مَوَلَاةً ؛ وَإِنْ هُوَ تَحَرَّكَ إِلَى شَيْءٍ ، قَعَدَتْ بِهِ دَقَّةُ شَأْنِهِ ؛ فَلَا
أَتْبَاعَ يُهَادِدُونَهُ . « قَبَلْنَا ذَلِكَ حَذَرًا * عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَقُلْنَا : « مِنْ صَلَاحِ
مَنْ قَرَابِنَا ، نُذَرِكَ فَعَلَ الْخَيْرِ فِيهِ دُونَ مُصَاهَرَةٍ تُطْفِئُهُ ! »

وكان من بعض خَدَمَتِنَا مَنْ حَضَّنَا عَلَى يَوْسُفَ بْنِ حَجَّاجٍ ، لِعِلْمِهِ
بِأَخْلَاقِهِ مَدَّةَ صَحْبَتِهِ لَهُ ؛ وَوَصَفَهُ بِصِفَاتٍ ظَاهِرُهَا يُشَبِّهِهُ الْمَشَاكِلَةَ . وَذَلِكَ أَنَّهُ
قَالَ : « فِي الرَّجُلِ انْقِبَاضٌ وَاسْتِيحَاشٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَبِذَلِكَ تَأْمَنُ مِنْ
إِجْمَاعِهِ عَلَيْكَ ؛ وَفِيهِ شُحٌّ كَثِيرٌ ، لَا يُخْرِجُ خَيْرَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ ؛ وَفِيهِ غِيَرَةٌ شَدِيدَةٌ
تُؤَافِقُ مُعَاشَرَةَ الْعِيَالِ ؛ وَبِهِ حَرَجٌ وَتَزَقُّ ، لَا تَصِحُّ بِهِ وَلَايَةٌ ؛ وَهُوَ مِنْ
نَقْصَانِ الْبَيَانِ وَعِىُّ اللِّسَانِ مَا لَا يَطْبِئُ بِذَلِكَ النَّاسُ لَتَأَلُّبٍ ، إِنْ شَاءَ

عَلَيْكَ ، وَلَا تَقْضُ لِفَعَالِكَ أَوْ مَقَالِكَ وَالرَّجُلُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ وَمِنْ لَا يَنْتَمِي
إِلَى مَلَكَ ، وَلَا تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمَا لَا أَصْلَ لَهُ فِيهِ . فَهُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ كَالْكَاهَةِ الَّتِي إِنْ
شِئْتَ قَلَعْتَهَا ، لَمْ تَعْتَذِرْ عَلَيْكَ مِنْ أَصْلِهَا ، أَوْ كَالصَّمْغَةِ ، إِنْ شِئْتَ فَرَّقْتَهَا ،
ظَهَرَتْ ؛ وَكَانَتْ لَكَ الْمَنَّةُ وَالْخِيَارُ ! وَالْآخِرُ هُوَ تَرَبُّبُكَ وَنَشَأَتُكَ ، وَابْنُ
وَزِيرٍ جَدِّكَ ، وَلَهُ مِنْ بُعْدِ الْهِمَّةِ وَكَرَمِ النَّفْسِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَالْوَقَارِ عَلَى
حَالِ الْحَدَاثَةِ مَا تُرْجَى بَرَكَتُهُ ؛ وَلَيْسَ بِمُنْقَدٍ قَلْبُهُ . وَإِنْ أَنْهَضْتَهُ إِلَى
أَمْرٍ ، جَدَّ فِيهِ ، وَأَنْتَ آمِنٌ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَنْهَضَ
ابْنَهُ إِلَى دَرَجَةِ يُقَرُّ عَيْنُهُ . وَالْأَوَّلَى أَنْ يَدْعُوكَ صِهْرُكَ « مَوَلَايَ » ،
مَنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلًا ؛ فَتَشْقَى أَنْتَ وَتَحْنُ ، إِذَ الْعَمْدُ لَا يَحْتَمِلُ سَيِّئَيْنِ ،
وَلَا تَدْرِي مَنْ السُّلْطَانُ فِيكُمْ ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَيْتَهُ وَقَدَّمْتَهُ . »

فَقَعَدْتُ لَهَا النِّكَاحَ عَلَى أَيْمٍ مَا يُمْكِنُ ، وَاسْتَعَدَدْتُ فِي سَائِرِ أَمْرِي

- بالأخزم ، ووَكَلْتُ ذلك إلى الأقدار ، وقلتُ : « هذا جُهدُ الاستطاعة ؛ ودون جُهدِك لا تُتَلام . والله أن يقضى بما شاء ! »
- ولمَّا صار وَلَدُ حَجَّاجٍ بَنَكًا لِلنِّزْلَةِ ، شَرِهَتْ نَفْسُهُ إلى وزارة الدولة ، مُتَّطِعٌ مِنْ لَمْ يُمَيِّزُ المذهب . ولم نكن بعد وزارة سِمَاجَةٍ نَسْتَعْمَلُ لذلك أَحَدًا .
- ٥ فَكَأَنَّهُ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ التَّقْصِيرُ بِهِ ، جِهَالَةً مِنَ الْإِنْسَانِ * بِقَدْرِهِ لَهُ مُهْلِكَةٌ ، ٥٨ (١) وَتَرْكُهُ صِيَانَةَ قَدْرِهِ لَهُ فَاضِحَةٌ .

٦٦ — حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله

- وكان أهلُ دولتنا على مَذْهَبِ جِهَالَةٍ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ : إِنْ كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ بِرَأْيِهِ ، وَأَنْ تَجْرِيَ الْأُمُورُ عَلَى هَوَاهُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَّفَقْ ١٠ ذَلِكَ لَهُ ، صَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَلَوْ كَانَ عَلَى مَرْغُوبِهِمْ ، مَا تَّفَقَّ لِرئيسِ عَمَلٍ ، وَلَا تَمَّ لَهُ شَيْءٌ . وَكَانُوا قَلِيلَ أَيْمَانًا قَدْ شَغَلَهُمُ الْخَوْفُ مِنْ صَوْلَةِ رُؤَسَائِهِمْ : مَا كَانُوا يَرَوْنَ السَّلَامَةَ غَنِيمَةً . وَلَمَّا تَمَّ لَهُمْ فِي أَيْمَانِ الْأَمْنِ ، وَأَنْسِيَتْهُمْ مَا مَضَى ، أَدْرَكَهُمُ الْأَشْرُ وَالْبَطَرُ ، إِلَى أَنْ تَطْلُعَ أَنْفُسُهُمْ لغير ذلك . وَكُنَّا نَحْنُ نَظُنُّ أَنْ بِالْأَمْنِ نَسْلَمُ مِنَ اللَّأَمَةِ وَالْعِدَاوَةِ . وَخَانَنَا ١٥ الْقِيَامُ ؛ وَكَذَلِكَ الْعَاقِلُ الْمُتَمَرِّزُ لَا يَجِبُ لَهُ أَنْ يَظُنَّ بِالنَّاسِ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَعْمَلُ حِسَابَهُ وَحْدَهُ . فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلَى مَذْهَبِكَ ، وَلَا هَوَاهُ مُطَابِقٌ لِهَوَاكَ ! وَلَا حِمَالَةٌ أَنْ بِاخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ تَقَعَ الْعِدَاوَاتُ ، وَبِاتِّفَاقِنَا تَكُونُ الْمُصَاحَبَةُ وَحُسْنُ الْمُعَاشَرَةِ . وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَكَ مَنْ يَكَابِدُ مَعَكَ ، وَدِهَاهُ مِثْلُ النَّارِ دِهَاقٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَبَاعِدِ ؛ فَلَا تَسْتَرِيحُ إِلَّا إِلَيْهِ ؛ وَلَا تَشْكُ هَمَّكَ مَعَ مَنْ لَمْ يَفْنِهِ مَا عِنَّاكَ : فَإِنَّمَا سَأَلَ عَنْ حَدِيثِكَ ، وَقَدْ أَكْثَرَتْ

عليه ، وإِنَّمَا مُخَالَفٌ لِمَذْهَبِكَ ، قد استهدفتَ إلى عَدَوَاتِهِ ، وأُحْدِثْتَ في نفسه ما كنت غنياً عنه .

- هذا طبع البَشَرِيَّةِ : فلا تسمع مَن يُرِيكَ التحقيق بكلامه ؛ فَإِنَّ الحقَّ ثَقِيلٌ على النفوس ، والباطلُ إِلَيْهَا أَسْرَعُ ، وعليها أَخَفٌ . وَلَمَّا علم الشيطانُ حِيلَ الإنسان ، لَمَجْرَاهُ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ النَّمِّ ، أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ هَوَاهُ . ٥
- ولا سبيلَ أَنْ تَلْقَى أَحَدًا عَدِيمَ الْعَقْلِ : كُلُّ قَدْ أَخَذَ مِنَ التَّجَرُّبَةِ حِصَّتَهُ ، وحاز اختياره ؛ وَعَرَضُكَ عَلَيْهِ مَا يَبْدُو إِلَيْكَ عَجْزٌ وَكُفَّةٌ : فَإِنْ كَانَ رِيضًا ، فهو بِشَأْنِهِ أَبْصَرُ ؛ وَلَمَّا لَهُ عَذْرًا ، وَأَنْتَ تُلُومُ ؛ فَتَوْلَدَ عَلَيْهِ انْقِبَاضًا مِنْكَ وَتَحَفُّظًا لِنَفْسِكَ الْخِلَافَ حَتَّى يَأْتِيَ بِمَا اعْتَزَمَ عَلَيْهِ . وَإِنْ أَلْفَنِيَّتُهُ جَاهِلًا ، فَمِنْ الْعَنَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرَمِ ، لَمْ تَزِدْهُ أَكْثَرَ مِنْ نَقْلِهِ* عَنْ ٥٨ (ب) وَدَّهْ ، وَلَا يَنْتَقِلُ عَنْ طَبْعِهِ .

- كَيْفَ مَا رَوَيْتُ فِي الْأَمْرِ ، أَجِدُهُ جَهْلًا مِنْ فَاعِلِهِ وَكُفَّةً ، إِذْ لَا تَأْدِيبَ يَحْمِلُ بِالْمَعْلَمِ وَلَا الْمَعْلَمُ . اللَّهُمَّ إِلَّا مِنْ شُورٍ فِي أَمْرٍ ، فَعَلِيهِ أَنْ يَعْطَى مَا عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ الْحَاجِ ، وَلَا يَتَمَرَّنَ فِي انْتِظَارِ طَاعَةٍ ؛ فَيَكُونُ النَّاصِحُ ، إِنْ سُمِعَ مِنْهُ ، تَمَادَى عَلَى صِدَاقَتِهِ وَخُولَفَ فِي غِيْشٍ . فَمَا قَامَ خَيْرُكَ ، يَا زَمَانَ ، بِشَرِّكَ ا ١٥

- لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ بَخْلَافِي يَسِيرُ عَلَى الْقَائِلِ يُنْتَقَلُ إِلَى حِزِّ الْعِدَاوَةِ ، لَمْ أَشَاوِرْهُ فِي أَمْرٍ أَبَدًا : وَأَكُونُ قَبْلَ مُشَاوَرَتِهِ مُخَاطِرًا حَذِرًا الَّذِي تَخْشَى مِنْهُ ، أَسَدًا عَلَى مَنْ عَاقَبَتِ الْأَمْرَ الْمَعْرُوضُ عَلَيْهِ . فَالْعَاقِلُ يُقَيِّسُ عَلَى هَذِهِ الْعَانِي وَيَحْزَنُ بِهَا صَدِيقَهُ . فَرُبَّ عِدَاوَةٍ تَتَوَلَّدُ بِأَرْقٍ سَبَبٍ ، أَوْ عِدَاوَةٍ تَعُودُ إِلَى مُوَدَّةٍ ، عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى التَّعَاوُنِ أَوْ الْإِنْخِرَاطِ فِي سَلَكٍ وَاحِدٍ ٢٠

من عارضٍ يعمُّ أو مرَّغوبٍ يُرامُ ؟ تكون الحاجة فيه سواء .
ولا خَيْرَ في عَقْلٍ لا يتصرَّفُ تارات ؛ وللَّذَهَبِ السَّرمَدِيُّ رَاكِبٌ
طريقةَ الجَهْلِ ، واقعٌ في الورطات . ومن الحقِّ ما يسبح ، فلا تقوم
حلاوته وفرضه بما يعقب من المشقة ؛ والعاقِلُ يتخيرُ الأمور ؛ فيتجنَّبُ معسورها ،
ويتوخَّى ميسورها . ٥

٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرتين أُخْتَيِ المؤلِّفِ

وللقائل ، إنَّ محتجَّ على هذا التَّكاح : ما الذي أُريدَ به ؟ إن كُنَّا
غالبين ، فقد استغنيَّا عنه ؛ وإن كُنَّا مغلوبين ، لم يَفِدْ ذلك ؛ يعترض
هذا بعد تبيان ما وقع !

١٠ وإِنَّمَا أَرَدْنَا اكْتِسَابَ الْحَسَنَةِ مَعَ السُّرِّ ؛ وَإِنَّهُ ، مَتَى عَرَضَ عَارِضٌ ،

كَانَ الْبَعْلُ مُكْتَفِيًا بِأَمْرَاتِهِ ، يُقَلِّمُهَا إِذَا أُخْوَجَ مَا تَكُونُ فِيهِ عِنْدَ ذَلِكَ ،
وَتَكُونُ لَنَا مِنْهُمْ عُدَّةٌ ، وَيُقِلُّ طَمَعُ كُلٍّ مِنْ يَشْرَهُ إِلَى خِطْبَتِهَا . فَقَدْ

كَانَ كَثِيرٌ مِنْ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ رَامَ ذَلِكَ ؛ وَتَوَقَّعْنَا الْعَاقِبَةَ إِنْ فَعَلْنَا :

نَتَشَبَّهْنَا فِيمَا لَا مَرَدَّ فِيهِ ، وَلَا يُنْفَكُّ عَنْهُ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ الْجَسِيمَةِ الَّتِي هِيَ

١٥ أَوْلَى بِالْبَذْلِ فِي إِقَامَةِ أَوْدِ الْمَلِكَةِ وَمَا كُنَّا بِسَبِيلِهِ مِنَ الْجِهَادِ ؛ وَإِنْ أَبَيْنَا ،

وَقَعَ الْخِلَافُ وَالْحَقْدُ مِنَ الطَّالِبِ ، بِمِثْلِ لَا يَوَاقِقُ ؛ عَلَى أَنَّهُ لَمْ نَحْسَبْ

حِسَابَ مَا جَرَى * . وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ . وَكَانَ ٥٩ (١)

زَمَانًا لَمْ نَحْسَبْ فِيهِ حِسَابَ خَيْرٍ خَرَجَ مِنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ، وَلَا قِسْنَا عَلَى

شَيْءٍ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا وَلَمْ نَبْلُغْ مِثْقَالَ مَا يَكُونُ مِنْهُ ، بَلْ يَدْهِي مِنْهُ أَمْرُهُ وَأَفْظَعُهُ .

٢٠ وَلَقَدْ قَالَ الْمَطْلَبِيُّونَ إِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ أَحَقَّ بِهَا ، وَإِنَّمَا فَعَلْنَا

ذلك فراراً منه . وهذا من المُحَال أن يكون أحدٌ يتبع الشرفَ ، ويُدعى إلى ما فيه حياته ، فيأباه ! ولو أنني أشعر بشيء من ذلك ، ونزى أن المذهبَ في هذا ، لكنتُ أشدَّ الناس اغتباطاً بالأمر ، وإليه مُسارعةً ، وعليه حرصاً .

٥ ولم يكن من أُلح في ذلك أكثر من المعتصم — رحمه الله — ؛ فبادرتُ إلى ما تقدّم ذكره ، خوفاً من كلِّ ما ذكرناه . وإنه ، لما تواترتُ على أمير المسلمين هذه الأنباء ، وصورتُ عنده على غير ما هي ، عملتُ في نفسه .

١٠ وانقطع رجاء مؤملٍ بلوثة من أن يجيبه سلطان من الأندلس ؛ وعند ذلك ، خاطبَ أميرَ السُلمين ؛ فلم يصل الخطاب ، وهياً المسكر إليها مع نُعمان ، حتّى انقضى خبرها ، على ما وصفتناه .

٦٨ — تدخل عبد الله في مسألة مُرسية وغضب المعتد

واعتقد المعتد دخول النصارى بلده ومخاشاتهم لجهاتي ، مع ما كان في نفسه من أمر مُرسية . فإن ابن رشيقي قال لي مشافهةً ، ونحن على لييط : « أريدُ أن أكون صديقك وأدخل في مجلتك . » وقال لي رسولُه بعد ثقافه : « لو أنك تقبل من تخلف فيها ، لأقام الخطبة باسمك ، وكانت في طاعتك ! تجدهُ ويمدك ! فأبيتُ هذا القول جُملةً ، وقلتُ في نفسي : « هذه نصبةٌ لم يكذب أصحابنا يتخلصون منها إلا بعد المرام الشديد والكذب العظيم ! ردَّ منهم هذه المشقات ! فلا يفتريها هذا الوقت إلا جاهلٌ بالزمان ! وليت لو سلطنا من هذا كله ! وإنه من أمل

أَنْ يُبْقَى بَلَدَهُ يِيده ، فقد شره إلى كثير ، فكيف لفضول العمل الذي كنت أرى وأميز ؟

ولما قامت علينا اليُسَّانة ، على ما قدّمنا ذكره ، كان ابن الأحمر يداخلها ، ويعدهم ويأمرهم بالتثبت ، حتى تبدو إليهم الأحوال ؛ ويبلغني * ٥٩ (ب) من ذلك ما يُقلِقُ . فأردتُ بعض المكافأة على ذلك ، وأن نوجّه إلى مُرسِيّة مَنْ يعقد ما ابتدأني به رسولهم ابنُ يَكُون ، المتصرف في خدّمتهم ، ويقول لهم أن يُبَيِّنُوا كيف يريدون مُحاولَة هذا الأمر : إن أرادوا القيام بدعوتنا لِمِلَّةٍ متى كانت ، نغيثهم فيها بأموالنا ورجالنا ؛ وما فائدة ذلك وثمرته فيما نَشترط نحن به ؟

١٠ ولما توجه من ثقاتنا لذلك مَنْ أنفذه ، اعتقدها المُعتمدُ في نفسه ؛ على أننا لم نكن نغرم على ذلك أبداً أكثر من طلب التعلّلات عليه آخر ذلك بأن نسمع منه ما لا يوافق ؛ فينقض العمل بسببه ، أو تُوقَف الحالُ إلى أمديّما ؛ كالذي يقع بين الملوك من المداخلات والأعمال : فنها ما لا يتم ، أو يمدّى إلى حين .

٦٩ — إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين

١٥

بسبّة من قبل عبد الله وإيقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها

وإن أمير المسلمين ، لما أتى سبّة ، وهو قد أحشد وأعدّ ، قاصداً إلى جهتنا ، لا يريد غيرَها ، أرسلنا إليه رسلاً مقدّمةً ، بعد عتاب (١٠)

كبير جرى بيننا وبين المعتد على خبر مرسية ، لم يرد به مفاسدة أكثر مما وصفناه .

وحان وصول أمير المسلمين إلى سبته ، وقدم رسلنا عليه ، وهم : ابن سهل القاضي المتقدم ذكره ، المستعمل للعملة الموصوفة ، وباديس بن وازوي من تلكاتة ، يهتونه على سلامته ويتلقون بالرحب قدومه ومسارعتنا إلى ما يذهب إليه في جهاده ، وما أشبه ذلك .

فانصرف الرسولان المذكوران ، يعلماني أن أمير المسلمين قابل لكل ما ذكرناه ؛ قد أعرض عليهما من الجليل ولطيف القول ما لا شك في تحبته . فسرنا ذلك . وكان فيما قال لهم : « يصنع ما شاء ! لست ممن يكلف أحدا إلا طاقته ! » فكان ذلك منه دهاء وحذقا ، مع ما نبه عليه قبل ، من قبل ابن سهل بالمخاطبة وغيره ، أن نفارنا عنه إنما كان من خشونة الكعبة الواردة من عنده ، وأن للدارة بالقول أولى ، حتى يظهر ما شاء ويمهد لعمله بذلك .

وإن ابن سهل* . لما رأى من خلاف الجند ، واطلع عليه من أنف (١) ٦٠
 ١٥ أهل البلد ما اطلع ، قدّم لنفسه ، ورأى ألا يخلّي من عمل يقرّبه فيمن تقرب . وأعلمه أن البلدة ليس عليه فيها مختلف ، ونفث بذلك باديس المذكور . وصحّ عندي وقت انصرافهما أن ابن وازوي قال : « أرسلنا للخدمة له في زعمه ، ولم نصنع غير أني كتفته ، والقاضي ضرب عنقه ! » إلى أن وصل أمير المسلمين قرطبة .

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٦) استسلامه للسلطان المرابطي . مسجنه .

إخراجه من الأندلس ونفيه

٧٠ — عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

وبدء مقاتلته إياه

[وعند وصوله قرطبة ،] اجتمع [أمير المسلمين] بالمعتد ، وسأله عما لِهَجَ الناسُ به من مُدَاخَلَةِ الرومي ؛ فشهد بذلك ، للذي كان في نفسه من كلِّ ما وصفناه . وأرسل أمير المسلمين إلينا كتاباً يقول فيه : « اقبل إلينا ، ولا تتأخر ساعة واحدة ! »

١٠ فرأيت ذلك ، وهو موضعُ الانقياض ، لِمَا تقدّم من الطلب ، وأنَّ بمَحْضَرِهِ جميعُ أعدائنا ، وإلحاحُهُ علينا في الوصول . واعتذرتُ إليه بتوجيه رُسلٍ : أحدهما وَلَدٌ حَجَّاجٌ ، والآخر ابنُ ما شاء الله . فساعة وصولهما ، قرَّعَهما بكلِّ ما نُقِلَ إليه ، وأمر بثماقهما في الحديد على المقام ؛ وقال لهما : « بالله ! إنِّي غَزَوْتُه كما نَفَزُوا الْفُونُشَ ! والذي يقدر عليه ، فَلْيَصْنَعْ ! »

١٥ وأتاني بعضُ الفرسانِ الناهضين مع الرُّسل على أسوأِ حالَةٍ ، مضروبين

ملهوفين ، أطلقهم قَرُورٌ لِيُعْلِمُونِي بِالْقِصَّةِ ، ويقول : « بالله ! أن أطلقهما الأميرُ حتَّى ينطلق مؤمِّلٌ وأصحابه ! » فذهمني من هذا الأمر ما لا مَرَفَع فيه ولا حيلة . ولا ظَنَنْتُهُ أن يجري على هذه الرتبة .

وأرسلَ على المقام كُتُبًا إلى اليُسَانَةِ — فأول ما طاعتَ له — وإلى جميع حصون الغرب ، على يدَي ثُمانٍ للذكور ، الساعى في مُداخَلَتِها قديمًا .
 ٥ وكان من كُتُبِهِ إليهم : « أما بَعْدُ ، فقد جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ^(١) » . إن لم تُطَوِّعُونَا ، فَادْنُوا بِحَرْبٍ مِنْ أَهْلِ وَرَسُولِهِ ^(٢) . وإن خِطَابَهُ لم يَرِدْ على مَعْقِلٍ منها إِلَّا وأَلْقَى بِيَدِهِ ، وقام أَهْلُهُ على إخراج فائِذهم ، حتَّى تَنَاقَرَتِ الْمَعَاقِلُ كُلُّهَا كَانْتِشَارِ الْعِقْدِ ؛ إلى أن وصل الأمير إلى بَيْلِيشْ ؛ ومن امتنعَ منها ، قَاتَلْتُهُ الرعيَّةُ معهم ، حتَّى يَلْقَى يَدَهُ .

فلم نَدْرِ ما * نصنع ، « واتَّسعَ الْخَرْقُ على الرَاقِعِ » ؛ وقلتُ : ٦٠
 « لا طاقةَ لى بجميع أهل البلاد ، إذ غلبوا وخرجوا عن الطاعة ! فَيَمْنُ نُمَسِّكُ الْخِصْرَةَ ؟ ليس فيها خلقٌ من غيرِ جِنْسٍ مِمَّنْ كان في الْمَعَاقِلِ .
 ١٥ « ولا يَتِمَكَّنُ لِلْخِجَاءِ أَنْ يَتَيَفَّ دُونَ أَوْتَادِ ! » ولا في الأمر من مُدَارَاةٍ ولا حيلةٍ مع الرَّجُلِ أَكْثَرَ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي خَلْعِنَا ! ولا نَمُّ غَيْرُهُ يُسْتَنْدُ إِلَيْهِ ، فَتَسْتَرِيحُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدَاهِيَةِ الْعُظْمَى وَالطَّامَّةِ الْكُبْرَى ! ولا في الْمُمَكِّنِ أَنْ نَوَجَّهَ إِلَى الرُومِ ، فيكون ذلك فسادًا في الدين ، واستعجالًا لِلْمَكْرُوهِ ؟ وإن شعر بذلك أَهْلُ حَضْرَتِنَا ، كانوا أوَّلَ مَنْ يِقَاتِلُنَا قَبْلَ

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٩ .

المُرَابِطِينَ ! ما دام السُّتُرُ يَنْتَنَّا وَبَيْنَهُمْ ، فَيَكْشِفُونَ لَنَا الْقِتَاعَ عَلَى بَصِيرَةٍ ! «
فَمَا عَهْدُنَا أَيَّامًا وَلِيَالِي كَانَتْ أَفْجَعَ لِقُلُوبِنَا ، وَأَذْهَى لِنَفُوسِنَا مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ .

٧١ - وصول الجيش المُرَابِطِي قِبَالَةَ غِرْنَاطَةِ

وقدَّم أمير المسلمين عَسْكَرًا إِلَى غِرْنَاطَةِ ، مَا دَامَ مُحَاوَلَتُهُ لِلْحَصُونِ ،
٥ يَحْرُسُونَهَا مِنْ دُخُولِ عَسْكَرِ بَرَّانِيٍّ ، إِلَى أَنْ يَرِدَ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ . وَأَرْسَلَ
الْقَوَادُّ إِلَيْنَا أَنْ نُبَيِّحَ لَهُمُ الْقُوتَ وَالْمَلَفَ بِالْمَدِينَةِ ؛ فَأَجَبْنَاهُمْ ، لَثَلَا يَقَعُ
مِنَّا شَيْءٌ مِنْ الْخِلَافِ ، يَتَسَبَّبُ بِهِ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ .

وَأَرْسَلْتُ آخَرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِمَالٍ ، وَيُطْلِمُونَهُ أَنِّي
ابْنُهُ ، وَغَيْرُ مُخَالِفٍ عَلَيْهِ ، وَالطَّاعَةُ مِنِّي لَهُ عَلَى مَرْغُوبِهِ ، دُونَ أَنْ يَحْجُجَ
١٠ إِلَى هَذَا التَّعَبِ كُلِّهِ . فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا النَّقِيبَ ابْنَ سَعْدُونَ ، يَقُولُ لَنَا : « لَا طَاعَةَ
وَلَا صُلْحَ إِلَّا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ ! وَهَذَا أَمَانُهُ : كِتَابٌ بِخَطِّ يَدِهِ ، يَتَضَمَّنُ
الْأَمَانَ فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ دُونَ الْمَالِ . » فَأَيَقَنْتُ بِالْفَرَضِ . وَكَانَ فِي آخِرِ
كِتَابِهِ لَنَا : « إِنْ كُنْتَ اسْتَوْحِشْتَ مِنَ النُّزُولِ إِلَيْنَا ، فَخَيَّرْ مِنْ بِلَادِكَ
مَوْضِعًا تَصِيرُ فِيهِ ؛ وَلَتَكُنْ غَيْرَ غِرْنَاطَةِ ، لِتَرَى فِيهَا رَأْيَنَا ! عُدَّةٌ فَاتِرَةٌ
١٥ لَا تَتِمُّ ! »

فَرَوَيْتُ هَذَا الْأَمْرَ ، وَعَلِمْتُ أَنِّي بِمَالٍ وَمَكَانٍ لَا اخْتِيَارَ لِي فِيهِ ،
وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِيَّ إِلَّا أَلِيَّ مَعْقِلًا ، وَأَنَّهُ لَا مَهْرَبَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ . فَقُلْتُ :
« مِنَ السَّخْفِ يَكُونُ أَنْ أَقُولَ : « قَدْ اخْتَرْتُ مَوْضِعَ كَذَا ! » فَإِنْ
كَانَ لَهَا كَارِهًُا ، لَمْ أَلْبِثْ أَنْ أُرَدَّ مِنْهُ بِتَعَلُّلٍ وَحُجَّةٍ لِقُوَى عَلَى الضَّعِيفِ !
٢٠ وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ الْعِوَضُ ، فَيَخْرُجِي إِلَيْهِ يُرَبِّي مَا يَمْتَنِدُهُ * مِنْ إِحْسَانٍ . ٦١ (١)

ولا حيلة غير الخروج والتَّراعى عليه ؛ فإن كان قد أجمل وقبل ، فَلَهُ الْفَضْلُ ،
وعلى الشُّكْرِ آخِرَ الدَّهْرِ . وإن كان قد غدر ، كُنَّا وَاتِّقِينَ بِالْقَدَرِ ، وَأُبْلَيْنَا
عند الله وعند الناس العَذْرَ ! »

٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة

٥ ولما التَقْنَا إلى أهل مدينتنا ومَذاهِبِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ ، اطلَعْنَا على أُمُورٍ
دليّةٍ على الاتِّقال ، مؤذنةٍ بالزَّوال ؛ وَقَسَمْنَاهم أَصْنَافًا على القياس والرتبة ،
مع المُعَايَنَةِ لما عَمِيَ قَبْلُ ، وإظهارٍ ما خَفِيَ ، إذ لا حَرَجَ ولا هِيبةَ ولا
صَوْلَةَ تَتَّقَى . أمَّا الْجُنْدُ من البربر ، فكانوا مُتَعَبِّطِينَ بهم ، طامعين في
الزِّيَادَةِ على أيديهِم لِلجِنْسِيَّةِ . واتفق رأيُهُم على ألا يلقوه بِحَجَرٍ ، وقَدَّمُوا
١٠ كُتُبَهُم بالطاعة ؛ وراجَعَهُم عليها ، يَمْدُحُهم بأن يُبَيِّقَهُم في أَمَّاكِكِهِم على
أَفْضَلِ ما كانوا عليه ؛ فمن كان منهم بالمدينة الفوقَى ، تَقَلَّعَ إلى الشُّقْلَى
بأَهْلِهِ وماله ، وبقي هو بِنِسْمَتِهِ مُنْقَرِداً مُتَاهِبًا للشرِّ ، إمَّا بالخروج إليه من
الطاعة ، أو بِإِسْلَامِنَا إِلَيْهِ والتَّبَرُّؤِ^(١) مِنَّا .

١٥ ومن كان من التَّجَّارِ وأهل البلد ، فكانوا على نِيَّةٍ أَنَّهُم مع مَنْ سَبَقَ ،
ولا طاقَةَ لَهُم بالحرب ، ولا هُمْ أَهْلُهُ ؛ وَأَكْثَرُهُم خرج من البلدة يقول :
« لَأَيِّ وَجْهِ نَحْتَمِلُ الحِصَارَ ؟ تاجِرٌ هُنَا وصانعٌ كَمَا فِي غَيْرِهَا ! » وأمَّا
الرعيّةُ ، فبَنَحَ بَنَحٍ ذلك ما كانت تبغى ، طمعًا منها في الحُرِّيَّةِ ، وأنها
لا يُلْزِمُها غير الزكاة والعُشْرِ .

وَأَمَّا الرَّقَاصَةُ من المغاربة ، الذين كانوا عِمَادَ الحضرة ، وبهم كُنَّا

نُصِيكَ الحِصُون ، قَهْمٌ أَوَّلُ من طاع ، وَأَعَيْنُ مَنْ بِالْحَضْرَةِ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ :
« مَا الَّذِي خَالَفَ بَنَا عَنْ صَنِيعِ بَنِي عَمْنَا ؟ » فَلَمْ نَجِدْ فِي صِنْفٍ مِنْهَا
رَاحَةً يُرْجَى مَعُونَتُهَا !

وَأَمَّا الْعَمِيدُ وَالصَّقَالِبَةُ ، فَالْعَمِيدُ الْأَعْلَاجُ ، أَوَّلُ من عصا ، كَمَا ذَكَرْنَا ،
بَلَوْشَةُ ، رَجَوْنَا أَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي أَعْلَى مَرْتَبَةٍ ، وَلَمْ يَفْكُرُوا فِي عَاقِبَةِ
أَنْ يَخْطُؤُوا عِنْدَهُ ، فَيَقُولُ : « مَا نَصَحُوا مَوْلَاهُمْ رَبَّ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ !
فَكَيْفَ غَيْرُهُ ؟ » إِلَّا أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ بِشَهْوَتِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، لِلَّذِي شَاءَهُ
اللَّهُ — لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ !

حَتَّى الْعُذَمَةُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْخِصْيَانِ : كُلُّ طَامِعٍ فِي إِقْبَالِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ ،
وَالْخُرُوجِ عَنْ تَقَافِ الْقَصْرِ إِلَى رَاحَةٍ* التَّسْرِيجِ ، وَالْإِسْتِهْتَارِ بِالرِّجَالِ ، وَمَا ٦١ (ب)
أَشْبَهَ ذَلِكَ . فَجَعَلُوا الْخِصْيَانُ مِنْهُمْ وَلَبِيبٌ كَانَا زَعِيمِي الْمُدَاخَلَةِ وَرَأْسَ
الْقَتَكِ ، يَقُولَانِ : « نَحْنُ لَا وَلَدَ لَنَا وَلَا تَلَدَ ! فَعَلَى أَيْ شَيْءٍ نَصِيرُ عَلَى
الْقِتَالِ ؟ وَمَا عَسَى نَطْمَعُ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْهِ : هَلْ يَجْعَلُ بَنَا سُلْطَنَةً أَوْ قِيَادَةً
أَوْ قِضَاءً أَوْ قِصَّةً ؟ إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ الْعِيَالِ : مِنْ سَبَقَ اسْتَمْتَعَ بِنَا ، وَكُنَّا
عِنْدَهُ مِنْ جِلَّةِ الْقَتَرِ ، نَرْزُقُ كَسَائِرَ الْكَسْبِ ، فَلَا نَضِيعُ ! تَعَالَوْا بَنَا !
نُقَدِّمُ لَأَنْفُسِنَا ! » فَوُرِدَتْ عَلَيْهِمْ كُتُبُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِنْزَالِ الْقَوِيَّةِ ،
وَالثَّقِيلِ ، وَالْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ ، يَبْدُوهُمْ بِذَلِكَ عِنْدَ إِكْمَالِ حَاجَتِهِ وَإِسْلَامِهِمْ لَنَا ،
حَتَّى اتَّفَقَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

٧٣ — لَا يَجِدُ عَبْدُ اللَّهِ مَخْرَجًا إِلَّا بِالنَّسْلِ

وَلَا اتَّقَى لَهُ مَا أُمِّلَ ، وَعَلِمَ بِمَا مَعَهُ فِي الْبَلَدَةِ ، بَعْدَ تَقْدِيمَةِ عَسْكَرِهِ ، ٢٠

كما ذكّرنا ، إلى فَخْص غَرْناطة ، وكان أهلُ البلد يتقلّعون من المدينة إلى البادية ، ويخرجون منها^(١) أفواجا ، رأينا إمارة الشرّ وعلامة السوء . فإذا بأمر المسلمين في أثر ذلك العسكر مُقْبِلًا إلى الحضرة . فهاج الناسُ وجزعوا . واتفق رأي ، مع مَنْ نصحنى ، أنْ الخروجَ إليه أوّلَى ، والتزامى عليه ٥ أنجأ من هذه النار الموقدة . فلعلّه ، إذا رأى براءتنا ممّا قله العدو ، ولم يَجدْ في المدينة نصارى كما قيل ، فلا بُدَّ له من وَجْهَيْنِ : إمّا صَرَفْنَا إلى أوطاننا ، وإمّا إخراجنا . فلنْ نعدم معه جيلا ، إذ لم نُهْجْ عليه حَرْبا ، ولا اتَّعَبْنَاهُ في أمرٍ .

- وَكَمْ عَسَا الْعَيْشُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ! وَالنَّجَاةُ بِالنَّفْسِ فِي دَارِ الدُّنْيَا ١٠ وَتَخْلِيصُهَا مِنَ الْأَوْزَارِ فِي الْآخِرَةِ ، لَا يُبَالِغُ ذَلِكَ شَيْءٌ وَلَا يَعْدِلُهُ ! فَاسْتَمَعْنَا الْقَتْلَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ أَمِيرًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَكُلُّ قُوَّةٍ لَا يَتَأَنَّى الْقَتْلُ ضَعْفٌ وَسُكْرٌ ، مع سوءِ العاقبة . ولا سيما أننا بحال لا بُدَّ من إسقاط الرُّومِ بِإِرْضَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، أو إسقاط المسلمين بِإِرْضَاءِ الرُّومِ ! فَالآنَ يَرِثُهَا الْمُسْلِمُونَ أَوَّلَى وَأَجَلٌ لِلْعَاقِبَةِ ، إِذْ هِيَ نُسْبَةٌ لَا مَلْجَأَ مِنْهَا إِلَّا بِمَا ذَكَرْنَا .
- ١٥ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَوْ امْتَسَكْنَا فِيهَا بِنَفَقَةِ الْأَمْوَالِ ، وَلَا يُمْكِنُ اسْتِبْدَادُ دُونِ اسْتِظَارِ قُوَّةٍ مِنَ النَّصَارَى ، ثُمَّ أَتَى الرُّومِيُّ ، فِينَحَاشَ عَسْكَرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْجَزِيرَةِ أَوْ إِلَى قُرْطُبَةٍ ، * مُرْتَقِبًا لِمَا يَكُونُ مِنْهُ ، فيقول لى الرُّومِيُّ : « قَدْ أَقْلَعْتُ عَنْكَ مِنْ أَرَادَكَ ! هَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا نَسْتَحِقُّ مِنَ الْمَكَافَأَةِ ! » فلو قلتُ له : « اتركْ عَسْكَرًا مَعِيَ ، وَابْقَ أَنْتَ لثَلَا يُعَاوِدُنَا ! » ٢٠ مَا كَانَ يَفْعَلُ ، وَيَخْشَى عَلَى عَسْكَرِهِ الْبَوَارِ بَيْنَ أَهْلِ الْبَلَدَةِ وَالْعَسْكَرِ الْخَارِجِ .

(١) أصل : « يخرجونها » .

ولو انصرف دون أن يترك قوّة ، فساعة انصرافه وإقبال المرابطين ، لم ترتفع لهم ساعة ، وينقطع الرجاء عن معونة أخرى : فهناك النكال الأكبر ، وصحّ لهم قتلنا بالكتاب والسنة .

- ولو أن عند إقبال الرّوميّ ، يقول لنا : « إن كنت تتقي من المرابطين ، ولا يمكننا السكنى معك من أجلهم ؛ فخلّ لنا عنها ، وتصير إلى كل ما تحبّه مع النجاة بنفسك وحشيك وذخايرك ، كالذي صنعت بجفيد ابن ذى النّون ، إذ عاوضته بلفسية ؛ وإلا ، فلا استيطان لك عندنا ، إذ لا تقيدنا بالبلدة ، وما يغنى بخروجك إلينا وتركك لمدينتك مطيبة للمرابطين ؛ فيدخل علينا الحزم منها . » فلو أطعناه ، لارتكبتنا من الأوزار والخروج عن الدين ما يلعبنا الله عليه والناس أجمعون ، وكُنّا نترك غرناطة حبساً للرّوم ، يُضربون منها المسلمين ؛ فلا دماء تُسفك منها ، ولا داخلة تُدخل إلّا وكانت في صحائفنا . ولا خير في أثرة الدنيا على الآخرة !
- ولو أن يتربّص المرابط عند إقبال الرّوميّ ، ولا ينحاش له ، كما وصفنا ، ويبقى على لقائه^(١) ، فلو التقت الفِئتان ، فلا بُدّ من أن يكون للطائفة الواحدة على الأخرى ؛ فلو أنها على الرّوميّ ، ففي إثر ذلك ، لم يقدم على قتلنا شيئاً بالحجة أنّنا أجلبناه ؛ ولو أن الرّوميّ يغلب ، فبقي بعد ذلك في الملك ما شاء الله ، لم يطب لنا مُلك ، ولا مستحينا من الله والناس أن يكون ذلك بيّوار المسلمين وهلاكهم ؛ ثمّ إنه لا يصحّ لنا ثبوت معه ، وأيّ شيء كان يحجره عنّا ، ولا شيء نرتجى به نزع أنفسنا منه ، ولا بمن
- ٢٠ نتنصر لو همّ بأخذ الكلّ .

كَيْفَ مَارَوْتُ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ ، لَا خَيْرَ فِيهَا مِنْ تَعَقُّبِ الْأَمْرِ
وَتَذَبُّرِهِ ، إِلَّا مَا صَنَعْنَاهُ مَعَ حَكْمِهِ* الْأَقْدَارُ الَّتِي لَا تَجْرِي عَلَى إِهْمَالٍ ! فَخَرَجْنَا
إِلَى الرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا نُسَاقُ إِلَى اللَّوْتِ ، لَا نَذَرِي مَا نَتَلَقَى ، إِلَّا كَالْخُلَاطِرِ
بِنَفْسِهِ ، مَتَوَكِّلِينَ عَلَى الْقَدَرِ .

٧٤ - تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله

وَلَمَّا لَقِينَاهُ ، سُرَّ بِذَلِكَ ، وَأَقْسَمَ لَنَا عَلَى الْأَمَانِ فِي أَنْفُسِنَا وَأَهْلِنَا ، وَلَنَا
مِنَهُ الْمُرَاعَاةَ وَالْكَرَامَةَ مَا بَقِيَ . ثُمَّ أَشَارَ عَلَى قُرُورٍ بِالْتَرَقِيبِ عَلَيْنَا ، إِلَى أَنْ
يُثَبِّتَ خَبَرَنَا ، وَيَقِفَ عَلَى أَمْوَالِنَا .

فَاتَّعَدْتُ [قَبْلَ ذَلِكَ] أَهْلَ دَوْلَتِنَا ، يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُودَعَ
عِنْدَهُ شَيْئًا ؛ فَلَمْ تَفْعَلْ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هُوَ لَا يَطْلُبُونَ مَا يَزِيدُونَهُ
بِهِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيَّ ! وَلَيْسَ تُخْلِي مِنْ دَفْعِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ مِنْ
وَجْهَيْنِ : إِمَّا فَاسِقٌ يَسْتَأْثِرُ بِهِ دُونِي ، فَتَكُونُ حَسْرَتُهَا فِي نَفْسِي ، وَلَا تَقْبَلُ
بِهَا عَنْ وَجْهِ ؛ وَإِمَّا مُتَبَشِّلٌ بِبَعْضِهِ ، يَحْمِلُهُ إِلَى الْأَمْرِ لِيَتَهَيَّأَ بِهِ مَا يَبْقَى
لَهُ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ تَفْتَضِحُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَقْبَلُ لِي صَرَفًا وَلَا عَدْلًا ؛ وَرُبَّمَا
يَمْنَحُنِي عَلَيَّ ؛ فَيُؤَدِّي بَعْدَ الْأَمَانِ ، مَعَ حُبِّهِمْ فِي الْمَالِ . وَإِنَّهُ لَا شَيْءَ نَرْجُو
بِهِ بَعْدَ اللَّهِ التَّعَرُّبَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ ؛ وَلَوْ أَمَكْنِي أَنْ أَزِيدَ فِيهَا ، فَضْلًا
أَعْيُنُهُمْ ! وَأَنَا لَا أَبْتَغِي إِلَّا الْعَيْشَ خُلَاصَةً نَفْسِي وَأَهْلِي . وَقَدْ خَفَّفَ اللَّهُ
عَنِّي بَقِيَّةَ الْعِيَالِ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي التَّرَرِ بِمَالٍ لَا أَدْرِي إِنْ يَبْقَى مَعِي ، مَعَ
اِخْتِلَاطِهِ وَكَثْرَةِ شُبُهَاتِهِ ؛ وَكَثْرَةِ الْمَالِ إِنَّمَا يَحْتَاجُ لِلْمَمْلُوكَةِ وَالْأَجْنَادِ . فَالآنَ
قَدْ أَزَاحَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنِّي ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا طَلَبُ السَّلَامَةِ بِخُشَاةِ النَّفْسِ ،

وهي غنيمة في مثل هذا الوقت الحاد !

- فخرجتُ إلى الرجل بعد ثقاف القصر ؛ ولا خوفَ عليه ذلك الوقتَ ،
إذ كان الناسُ بينَ يأسٍ وطمعٍ في الرجوع ؛ فلا جرأةَ من أحدٍ في
اعتراض شيء من ساقَتينا . ولما أنزلتُ بتولي قُرُور الأمر ، جعل الحرص
على الخباء ، وأمر بطرد الداخل والخارج ؛ وحيلَ بيننا وبين عبيدنا
وصنائعنا : كلُّ يُفتش عليه ويُبحث على ماله من مالٍ كسبه في ولايتنا .
ثمَّ أنا الفقيهُ ابنُ سعدون من عند أمير المسلمين ، يقول : « أخضر
الأموال والأزمنة بها ! فإن مؤملاً قد أخبره أنه ليس عندك دِرْهمٌ إلا بزمامٍ
وذكر . » فقلتُ له : « نعم ! كان * ذلك ، قد تركته في داري ؛ ٦٣ (١)
١٠ فإن أباح لي السيرَ بنفسى لاستخراج الكلِّ ؛ وإلا ، فهذه أمي ، تتولى
ذلك مع ثقائه حتى لا يفادركم منه خيطٌ ! »

- وكان ، عند خروجي ، قد وقع في نفسى من خوف الثقاف ما خشيتُ
الفرقةَ منها إن تركتها في القصر ؛ فخرجتُ معها ، ولم ألتفتْ إلى ماسواها .
وأنا مع ذلك في حيرةٍ لا أدرى لما يصير أمرى ؛ قد أشرب قلبي من الخوف
والجزع ما لم أعهده قطُّ ، ولا كان فيه عزاء . فإن الأمور التي ينبغي لها
الاستنباطُ والصبرُ ما كان من أمر دون أمر ؛ وإن جلَّ خطبٌ ، يُرجى
في غيره الراحة ؛ وبعضُ الشرِّ أهونُ من بعضٍ ؛ وإنما هذه النصبة لم
يكن لها عزاء ولا استراحة إلى أملٍ ورجاءٍ يُنسى ، إلا بحيث يُحتسب .
فأذهلني ذلك من كلِّ مالى فيه صلاحٌ من تقدمة النظر في مالٍ أو غيره ؛
٢٠ بل ، كانت نفسى آكدَ على ، لم تعمل حساباً من يعيش ، لا سيما من
لم تجر عليه قبل ذلك نحنةٌ ، ولا أكرهه الدهرُ برزينةٍ . فجاءتُ بجله ،

أُبْهِتَتْ وَخَانَتْ الْقِيَاسَ ، وَحَادَتْ عَنْ سَبِيلِ الْمَعُودِ .
 وَقَدْ كَانَ أُرْسِلَ إِلَى قَرُورٍ يَطْلُبُ خَطًّا يَدِي بِإِسْلَامِ الْمَدِينَةِ وَإِخْرَاجِ
 مَنْ لِي فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ . فَبَادَرْتُ عَلَى الْمَقَامِ ، إِذِ الْاِلْتِوَاهِ عَنْ ذَلِكَ مِمَّا
 لَا يَنْفَعُ ؛ وَلَوْ فَعَلْتُ ، لَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْمَوَانِ ، وَلَمْ يَفِدْ شَيْئًا ، وَأَنَا
 ٥ قَدْ حَصَلْتُ فِي الْقَبْضَةِ .

وَكُنْتُ أُخْرِجْتُ مَعَ نَفْسِي أَسْبَابًا مِنْهَا سَقَطُ ذَهَبٍ فِيهِ عَشْرَةُ عُقُودٍ
 مِنْ أَنْفُسِ الْجَوْهَرِ ، وَذَهَبًا مَبْلَقُهُ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ مُرَابِطِيَّةٍ ، وَخَوَاتِمَ ؛
 وَتَأَوَّلْتُ فِي إِخْرَاجِهَا مَعِيَ أَنْ قُلْتُ : « إِنْ كَانَ الْأَمْرُ يَسْدُو مِنَ الْأَمِيرِ
 بِشَقَايَ ، فَهَذِهِ حَاصِلُهُ لَا تَنْفَعُ ، تُجَمَلُ كَسَوَاهَا ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ، وَرُبَّمَا تَأَخَّرَ
 ١٠ فِي الْأَمْرِ بَعْدَ قَضَاءِ غَزْوَتِهِ ، دَارَيْتُ مِنْهَا وَأَعَدَدْتُهَا لِمَا يَنْوِبُ عَلَى الْعَسْكَرِ
 وَمُتَاحِفَةِ الْمُرَابِطِينَ . »

وَلَمْ يُتْرَكْ لَنَا خَادِمٌ إِلَّا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا . وَقُتِّشَ عَلَيْهِمْ أَلَّا تَكُنْ
 فِي أَوْسَاطِهِمْ خَيْثَةً . وَجَمَلُ قَرُورٍ يَقُولُ لِي وَلِأُمِّي : « اكشِفَا لِي عَنْ
 نِيَابِكَا . * » فَقَدْ أَخْبَرَ السُّلْطَانُ أَنَّ خَيْرَةَ الْجَوْهَرِ عَلَى أَوْسَاطِكُمَا . « فَتَبَرَّأْنَا ٦٣ (ب)
 ١٥ لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَنَزَعْتُ لَهُ عَنِ الثِّيَابِ . ثُمَّ جَعَلُ يَنْفُضُ الْخُدَّاتِ عَنْ
 الصُّوفِ ، وَيَفْتَشُ بَيْنَهَا ، وَيُقَلِّبُ التَّوَايِيتِ عَلَى وَجُوهِهَا ، وَيَحُلُّ طَيَّ
 الثِّيَابِ ، فَتَشَا لَمْ يُعْهَدَ مِثْلُهُ قَطُّ . ثُمَّ أَمَرَ بِحُفْرِ الْأَرْضِ الَّتِي عَلَيْهَا الْخِلْبَاءُ ،
 خَوْفًا مِنْ أَنْ نُدْفَنَ فِيهِ شَيْئًا ؛ وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَقُولُ لِي : « إِنْ سَلِمَتْ
 بِرُوحِكَ ، فَمَا فِي الْأَرْضِ أَوْجَهَ مِنْكَ ! »

٢٠ وَصَارَ الْكُلُّ فَيْئًا مِنْ خَادِمٍ وَغُلَامٍ ، مَا خَلَانِي وَأُمِّي . وَكُنْتُ وَقْتُ
 خُرُوجِي قَدْ أُخْرِجْتُ مَعَ أُمِّي صَبِيَّةً طَمَعْتُ أَنْ أَنْجُو بِهَا ، فَلَا يُؤَبِّهَ لَهَا ،

أَلَّا أَنْفَرِدَ دُونَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِي ، لِتَكُونَ لِي عُدَّةٌ لَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَاتَى قَرُورَ ، وَأَلْقَى يَدَهُ فِيهَا ، وَأَخْرَجَهَا ، وَقَشَّ ثِيَابَهَا عَلَى الْقَامِ ، وَتَحَمَّلَهَا . ثُمَّ أَتَى إِلَى أَثَاثِ الْخِلْبَاءِ كُلِّهِ وَقَشَّهَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، فَكُلُّ ثَوْبٍ أَوْ حَاجَةٍ اسْتَحْسَنَهَا ، أَخَذَهَا لِنَفْسِهِ . وَكَادَ أَنْ يُعَرِّبَنِي مِنَ الْكُلِّ . وَأَصَابَ الدَّنَانِيرَ لِلذِّكْرَةِ ؛

٥ قَالَ لِي : « مَا أَرَدْتُ بِإِخْرَاجِهَا ؟ » قُلْتُ : « لِأَتَأَخِّفَ بِهَا الْأَمِيرَ ! » فَهَدَدَنِي وَأَدْخَلَنِي تَحْتَ وَعِيدٍ ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِاتِّقَالِهَا عَلَى الْقَامِ ، وَأَخَذَ السَّفَطَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْجَوْهَرِ وَالْخَوَاتِمِ : هُوَ مِنْ جِهَةٍ ، وَرَبِيبُهُ مِنْ أُخْرَى ؛ وَأَنَا فِي هَذَا كُلِّهِ لَا أَرْجُو شَيْئًا إِلَّا السَّلَامَةَ فِي الرُّوحِ ، وَلَمْ نَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَكُونُ بَعْدَ هَذَا إِلَّا الْقَتْلُ .

١٠ ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ وَالِدَتِي بِالطَّلُوعِ إِلَى الْقَصْرِ لِاسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ . فَتَكَدَّرْتُ لَذَلِكَ أَيَّامًا ، مَا مِنْهَا يَوْمٌ إِلَّا وَنَظُنُّ أَنَّهُ لَا تَرْجِعُ إِلَيَّ ، حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيْهِمُ الْكُلَّ بِالْأَزِمَةِ ، لَمْ يُغَادِرْهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ ، حَتَّى أَنَّ الْحَاجَةَ الْيَسِيرَةَ رُبَّمَا كَانَتْ عِنْدِي فِي الْخِلْبَاءِ ، فَيُسَدَّدُ فِيهَا عَلَى الْوَالِدَةِ ، فَتَأْتِي عَنْهَا وَتَحْمِلُهَا إِلَيْهِمْ . وَلَمْ يَتَّبِعْنِي لِي خِلَافُ أَهْلِ بَلَدِي ، إِلَّا وَالْأُمُرُ قَدْ فَاتَ ، مِنْ النَّظَرِ

١٥ فِي الزَّمَامِ أَوْ غَيْرِهِ . وَلَمْ يَتَقَدَّمْنِي أَحَدٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا ، فَنَأْخُذَ حِذْرِي وَنَتَأَمَّبَ لَهُ ؛ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِذَا أُعْطِيَ ، فَلَا مَانِعَ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْهَيَّا ، مَعَ مَا سُلِبَ وَضَاعَ ، ثُبُوتٌ وَلَا بَقَاءٌ ، وَلَوْ رُفِعَ إِلَى أَعْنَانِ السَّمَاءِ .

فَلَمَّا تَقْصَوْنَا* الْجَمِيعَ ، وَتَبَيَّنَ الْحَقُّ ، جَاءَنِي قَرُورُ بِوَصِيَّةِ السُّلْطَانِ ، مَعَ ٦٤ (١)

أَبِي بَكْرٍ بْنُ مُسَكِّنٍ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ عَلَى مُنْتَقِمٍ شَانِيٍّ ، وَهُوَ يَقُولُ لِي :

٢٠ « الْأَمِيرُ يُنْهَى إِلَيْكَ أَنْ لَا يَبْقَى لَكَ عِنْدَ أَحَدٍ وَدِيعَةٌ ؛ وَإِنَّ مَا فِي قَصْرِكَ قَدْ نَزَلَتْ عَنْهُ بِالْأَزِمَةِ ؛ وَمَا فِي خِيَابِكَ قَدْ صَارَ إِلَيْنَا وَقَشَّنَاهُ ؛ وَبَقِيَ لَنَا

أَنْ تَذَرِي مَالَكَ مودُوعًا ؛ وَإِذَا ، لَا عَهْدَ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ ، إِنْ خَرَجَ
قَبْلَكَ دِرْهَمٌ عِنْدَ أَحَدٍ ؛ وَلَا تَكُونِ عُقْبَكَ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَكَ فِي
الصَّخْرَاءِ بِحَيْثُ لَا تَرْمَحُ ذَلِكَ لِلَّالِ ، وَيَبْقَى عِنْدَ مَنْ أَوْدَعَتْهُ . « فَرَجَعْتُ
إِلَى نَفْسِي أَنْ نَعْلَمَ لَهَا عِنْدَ أَحَدٍ دِرْهَمًا وَدِيعَةً ؛ فَلَمْ أَجِدْ . وَأَقْسَمْتُ
٥ لَهُ عَلَى حَقِّي .

وَرَجَعْتُ إِلَى الْوَالِدَةِ ، أَعْظَمُهَا ، وَأَقُولُ لَهَا : « أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ ! إِلَّا
مَا أَشَقَّقْتَ عَلَيَّ ؟ قُرْبَانًا قَدْ أَخْرَجَنِي شَيْئًا لَا أَعْلَمُهُ ؛ فَيُظْهِرُ بَعْدِي ،
وَيَكُونُ فِيهِ هَلَاقِي ، وَهَلَاكُكَ ! وَالْدُّنْيَا أَقْلٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! وَالْقَوْمُ ، كَمَا
تَرَيْنَ ، مُتَعَلِّقُونَ بِشَعْرَةٍ ، يَطْلُقُونَ مَعَنَا أَرْقَى سَبَبٍ إِنْ بَاتَكَ أَنْ تَشْتَقِيَ بِي !
١٠ وَإِذَا تَبَرَّأْنَا لَهُ ، لَا يُمْكِنُ لَهُ تَضْيِيعُنَا . وَلَيْسَ يُدْخِرُ الْمَالُ إِلَّا لثَلَاثٍ :

سُلْطَانٌ يَجُورُ ، أَوْ فِتْنَةٌ تَدُومُ ، أَوْ عُمرٌ يَطُولُ . وَنَحْنُ فِي نَفَرٍ يَسِيرُ ! «
فَلَمَّا تَمَيَّسْتُ ذَلِكَ ، بَكَتْ وَقَالَتْ : « نَحْشَى أَنْ نَبْقَى فُقَرَاءًا وَلِلْوُتْ
أَهْوَنُ مِنَ الْفَقْرِ ! » فَسَهَّلْتُ عَلَيْهَا الْأَمْرَ ؛ وَقَالَتْ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ
مَنْ خَلَقَ ! » فَكَتَبْتُ تَسْمِيَةً بِمَا أَوْدَعْتُ مِنْ مَتَاعِهَا ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي
١٥ حَانَ خُرُوجِي فِي غَدِهَا : ذَكَرْتُ أَنْ لَهَا عِنْدَ لَذَّةِ خَادِمِ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ

كَاتِبِنَا سَيِّئَاتٍ لِبَعْضِ جَوَارِيهَا ، وَلَهَا عِنْدَ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ الْقَرْوِيُّ أَرْبَعَةُ
آلَافٍ مِثْقَالٍ ، وَحَلِيًّا أَرْسَلْتُ فِيهِ عَلَى الْقَامِ : نَحْوُ خَمْسَةِ عَشَرَ عِقْدًا ؛
فَأَمَّا الْحَلِيُّ ، فَأَتَانَا وَأَعْطَتْهُ لِقَرْوَرٍ ، وَلَمْ تَوْخَرْ بِهِ سَاعَةً ؛ وَأَمَّا النِّهْبُ ،
فَأَنهَا ، لَمَّا جَلَبَتْهُ مِنْ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ ، بَادَرَ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ وَتَحَمَّلَهُ لِنَفْسِهِ .

٢٠ وَكَذَلِكَ قَعَلْتُ خَادِمُ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ ، وَأَتَتْ إِلَى قَرْوَرٍ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ * ؛ ٦٤ (ب)
فَوَقَعَ إِلَيْنَا الْخَبْرُ ، وَزَادَنَا ذَلِكَ هَمًّا أَنْ بَدَرُوا بِهِ لِلشَّرْطِ الَّذِي اشْتَرَطَ عَلَيْنَا ؛

فأخذتُ على المقام تلك التسمية ، وأرسلتها إلى قرُور ، قبل أن يبدأ بنا ؛ فقال : « قد أخرجوه لنا . فإياكم أن يبقى لكم شيء عند غيرهم ! » فاستفهمتُ والدتي ثانية ، وبكيتُ لها ؛ فقالت : « مالي شيء عند أحدٍ أكثر ! » فأخذنا المصاحف ، وحلقنا فيها لقرُور أنه مالنا شيء أكثر ، لا مؤذعٌ ولا مرفوعٌ . « فأعلم السلطان بما أقسمنا به ، وجعل مع هذا يبحث ويستقصي . فما وجد لنا أكثر كما قالت الوالدة .

ولما لم يجد شيئاً ، أتانا قرُور ثانية ، وقال : « أنه قد ظهر أنه لا وديعة لكم أكثر . ولكن آياك أن يكون لكم مالٌ مدفون ! » فقلتُ : « ما علمنا قطٌ بدفنٍ ، ولا حسبنا هذا الحساب ؛ ولا كان الدفنُ شأننا ! وغيرُ متعذرٍ على الأمير أن يحفر القصر كله ، حتى يرى ! » فقال لي : « إياك بالمنكب ! » فقلت : « مالي بالمنكب إلا شيء من الأثاث عددته لنزولي فيها : جميع ذلك يزمام بخطّ يدي . يُرسل فيه الأمير ويأخذ به ! » فقال لي : « هاتِ خطّ يدك بإخلاء المنكب ! » فبادرتُ على المقام . وأصاب الزمام بالمنكب على الصفة التي وصفتُ . وكان الجندُ بها قد ترَبَّصوا ، وقامت الرعيّة ؛ فطلب خطّ يدي بالإخلاء .

ولما صحَّ عنده براءتنا من جميع الأشياء ، أتانا قرُور لتحصيل ما بقي . والعجبُ منه في تلك المدة أنه أتاني بسفيرٍ كبيرٍ ، وقال لي : « أقرأه ! فإن فيه جميع الأعلام التي رأى الناسُ لنا بملك الأندلس ، وفيه عباراتها ! » ولا أدري ما أقرأ ، [ولا أسمع] ، أكثر من قوله لي بهذا اللفظ : « ليس كذا هو ؟ فجيت الأموال ، لا [بقى لك] منها شيء ! » ولما وقف على جميع ما في الخلاء من وطاء وثياب ،

رفع بذلك كتاباً إلى الأمير ، وأعاد الفتنش ؛ يجِدُ غيرَ ما رآه * أولاً . ٦٥ (١)

٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلما خبر بما في التسمية أنه لا غنى للإنسان عنه ، سوَّغهُ لنا مع ثلاثمائة دينارٍ وثلاث خَدَمٍ ، أمرَ لنا بها ، وأَعَارَنَا دَوَابَّ^(١) خمسةً لنقلان الأثاث كله ، وأمرنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء ، وقال : « تَنْتَظَرُوا بها السلطانَ حتى يَرِدَ عليكم . » وأعطانا من المُرابطين مُشَيِّعينَ مَنْ يُؤْتَسُّنا ويتكفلُ أمورنا . فشكرنا له ذلك ، وتمحَّركنا على المقام ، إذ كان الحفرُ منه في ذلك شديداً .

وَكُنَّا طَوَلَ طَرِيقَنَا جازعين ، لا ندرى ما يذهب إليه بنا ، ولا ما الإشارة فينا . ولقد كنتُ أرى المُرابطين ينزلون بمتزِلٍ ، أو يَحْتَلُّون في موضعٍ ، فأقول : « إِنَّ ذَلِكَ لشيءٌ أُمِرُوا به ! » فكنتُ طريق ذلك تحت جزعٍ وهلعٍ ، أسألُ الله أن يُكَفِّرَ بها السيئات ، ويجعلها آخِرَ مصائبنا بمرزئته ؛ إلى أن وَصَلْنَا الجزيرة .

فأرسلنا إلى سبتة ؛ ودَخَلْنَا البَحْرَ في يومٍ عاصِفٍ ، أدركتنا فيه أهوالٌ لم نَكُنْ نَسلم منها إلَّا بالأجل الذي لم يحضر ؛ حتى خرَّجنا إلى سبتة ، بعد أن قيل لنا : « فيها تنتظروا الأمير ! » كما قيل عن الجزيرة . فرادنا ذلك قلقاً .

ثمَّ نُقِلْنَا إلى مكناسة الزيتون . وتلقانا الأميرُ سيِّدٌ ، وأنسنا ، وأخبرنا أن مُقامنا عنده إلى أن يَرِدَ السلطانُ من الأندلس . وأرسل إلينا مائة دينار . وعند حلولنا بها ، أبقنا بالمقام فيها . وبقينا على تلك الحال ، قد

(١) أصل : دواباً .

فَقَدَ مَا كَانَ بِأَيْدِينَا ، وَأَحْوَجْنَا إِلَى بَيْعِ ثِيَابِنَا الَّتِي مُرِكَتْ لَنَا بَعْدَ أَنْ
اسْتَحْوَذَ قَرُورٌ وَحَاسِيَّتُهُ عَلَى أَكْثَرِهَا (فَكُلُّ يَدٍ وَمَا نَهَبَتْ !) ، لَمْ
يَتْرَكُوا لَنَا إِلَّا مَا لَا نَظَرَ لَهُ عَلَى نِزَارَةِ مَا أُبْقِيَ . وَالسُّلْطَانُ — أَيْدُهُ اللَّهُ ! —
غَافِلٌ عَنْ ذَلِكَ ، لَمْ يُمْكِنَ الشُّكْوَى إِلَيْهِ ، إِذْ كَانَ قَرُورٌ وَاسِطَةً ، وَمَا كُنْتُ
أُنَشِّقُ مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ . ٥

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ أَنَّهُ ، عِنْدَ حُلُولِي بِمَكْنَسَةِ ، [كَتَبَ إِلَيَّ] يَقُولُ
لِي : « أَخْبِرْنِي عَنِ الْخَاتَمِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ ! » [وَقَدْ كُنْتُ] أَخْرَجْتُهُ
مِنْ إصْبَعِي وَبَعْتُهُ بِعَشْرَةِ دِينَارٍ ؛ فَرَأَجَعْتُهُ نَعْلَهُ * بِمَاجَتِي إِلَى تَمَنَّهُ . وَإِنَّمَا ٦٥ (ب)
أَرَادَ أَخْذَهُ لَثَلًا يُبْقَى لَنَا شَيْئًا ، وَيَتَقَصَّى الْجَمِيعَ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ
لِي غَيْرُهُ . ١٠

نَهَمَ إِنَّهُ وَافَانِي مِنْ عِنْدِ السُّلْطَانِ ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ أُخْرَى ، وَأَنَا بِمَكْنَسَةِ ؛
وَخَاطَبَنِي بِكِتَابٍ يَعِدُّنِي بِكُلِّ جَمِيلٍ ، وَيَقُولُ لِي : « لَا أَنْسَاكَ مَا بَقِيَْتَ ! »
فَسَرَّنِي ذَلِكَ — أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَهُ ! — ؛ فَلَقَدْ كَانَ أَرْفَقَ بِي بَعْدَ اللَّهِ
مِنْ كُلِّ أَحَدٍ . وَأَعْلَمْتَنِي أَنَّهُ ، إِذَا وَرَدَ مَرْثُوكُش^(١) ، أَكُونُ مَعَهُ حَيْثُ
مَا كَانَ ، إِكْرَامًا لَنَا وَإِنْشَارًا . فَمَلِمْتُ أَنِّي مُنْتَقِلٌ عَنْ مَكْنَسَةِ ، إِلَّا أَنْ
الرُّوعَ كَانَ أَفْتَرًا ، إِذْ لَمْ يُمْكِنَ أَنْ تُؤَخَّرَ الْعُقُوبَةُ إِلَى ذَلِكَ الْأَمَدِ . وَقَرُورٌ ،
مَعَ هَذَا ، لَا يَدْعُ طَلَبِي عِنْدَ السُّلْطَانِ ، عَلَى إِحْسَانِي إِلَيْهِ ، جِبِلَّةٌ قَدْ جَبَلَهُ اللَّهُ
عَلَى بُغْضِي ، مَعَ قَلْبِهِ رَحْمَتِهِ ، وَقِسَاوَةِ قَلْبِهِ ، وَدَنَاءَتِهِ وَلَوْ مِهِ .

(١) راجع أعلاه ص ١٢٥ .

٧٦ — عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله . ففيه

وَبَلَّغْنَا فِي طَرِيقِنَا ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ثِقَافِ أَخِينَا نَعِيمٍ بَعْدَنَا ، وَأَنَّهُ ،
لَمَّا كَانَ فِي مَدَّةِ كَوْنِنَا بِغَرْنَاطَةِ لِإِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ ، وَنَحْنُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ
مُرْقَبِينَ فِي الْخَبَاءِ ، كَانَ تَمِيمٌ الْمَذْكُورُ يَزُورُنَا ، وَيَتَكَدَّرُ عَلَيْنَا لِلَّذِي يَلْزِمُ
مِنْ حُبِّ الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ . وَكَانَ قَرُورٌ ، فِي هَذَا كُلِّهِ ، يَرْمِقُهُ بِبَصَرِهِ ،
وَيَعْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ لَذَلِكَ شَرًّا ؛ وَصَوَّرَ عِنْدَ السُّلْطَانِ أَنَّ مَا لَا أَخْرَجْنَاهُ مِنَ الْمَالِ
مَوْدُوعٌ عِنْدَهُ ، لَيْسَلِمَ لَنَا بِسَلَامَتِهِ ، مَعَ مَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الطَّلَبِ ، أَنَّ قِيلَ
لِلْسُلْطَانِ : « تَقَفَّتْ صَاحِبَ غَرْنَاطَةِ ؛ وَأَخُوهُ مِنْهُ ! وَإِنْ تَرَكْتَهُ يَنْصَرِفُ
إِلَى بَلَدِهِ ، طَلَبَكَ بِالنَّارِ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ مَا تَرْجُو صِلَاحَهُ ، مَعَ شَرِّهِ وَحِدَّتِهِ !
فَهُوَ بِذَلِكَ مَرْسُومٌ مَعْرُوفٌ ! فَعَاجِلٌ بِتَقَافِهِ ، يُصْنِفُ لَكَ مَا تَوْمَلُ ! »

وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَلَى مَا أَعْلَمُنِي أَخِي الْمَذْكُورُ ، قَدْ أَنْسَهُ السُّلْطَانُ ،
وَوَعَدَهُ بِصَرْفِ بِلَادِهِ إِلَيْهِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيْ ، وَقَالَ لَهُ : « لَسْتَ مِنْ
أَخِيكَ [بِالْمَسْئُولِ ؛ وَأَنْتَ أَظْهَرْتَ لِي] الطَّاعَةِ ، وَأَجَلْتَ الْمُعَاشِرَةَ ،
وَإِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّرَاهِمَ [الْمُرَابِطِيَّةَ] . وَالْآنَ تَسْتَحْمِدُ عَاقِبَةَ رَأْيِكَ ،
وَنَجْعَلُ لَكَ بِتِلْكَ الْمَزِيَّةِ عَلَى أَقْرَانِكَ ! » فَطَمَعَ الصَّبِيُّ بِذَلِكَ ، وَشَرِيَهُ إِلَيْهِ :
كُلُّ ذَلِكَ خِذْلَانٌ [اغْتَرَّ بِهِ] * مُلُوكُ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَسْعَدُ مِنْ أَجَلِهِ الْمُرَابِطُونَ ؛ ٦٦ (١)
فَعَمِيَّتِ الْبَصَائِرُ ، وَقَوِيَّتِ الشَّهَوَاتُ ، وَامْتَدَّتْ الْأَمَالُ بِحَيْثُ يَبْتَغِي لَهَا
أَنْ تَقْصُرَ .

فَلَمَّا هَمَّ بِهِ ، أَخَذَ فُجَاءَةً لَثْلَا يَشْعُرُ ، فَيَغِيبُ الْمَالُ الَّذِي أَتَمَّهُ بِهِ ،
وَيَفِرُّ . وَنَالَ مِنْ قَرُورٍ هَوَانًا كَثِيرًا ؛ وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ سَقَطًا ؛ وَبِعِثَتْ أَسْبَابُهُ

في موضع محَلَّتِه : قِيمَ لَهَا قَمَمٌ سَوْقٌ . وَأُلْقِيَ فِي الْحَدِيدِ ، وَأَمَرَ بِهِ إِلَى
السُّوسِ . وَلَمَّا كَانَ طَرِيقُهُ عَلَى مِكَنَاسَةِ ، لَقَيْنَاهُ ؛ فَأَخْبَرَ بِهِوَل مَاقَاسِي ،
وَبَصُرْنَا بِهِ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ قَدْ شَقِيَ بِالْكَنْبِلِ لِعِظَمِهِ ، لَا يَقْدِرُ أَنْ
يَتَحَرَّكَ بِهِ . فَأَوْجِبَ ذَلِكَ مَا وُصِمَ بِهِ مِنَ الشَّرِّ ؛ وَأَنَّ أَهْلَ مَالَقَةِ رَفَعُوا إِلَيْهِ
هـ حِينَئِذٍ أَفْعَالًا قَبِيحَةً ، وَأَبَازِي سَيِّئَةً أَسَدَاهَا إِلَيْهِمْ ، عَلَى مَا ذُكِرَ ؛ فَانْفَقَتْ
الْأَسْبَابُ . فَلَمْ يُرِدِ الْأَمِيرُ أَخْذَهُ إِلَّا بَيِّنَةً ؛ إِلَى أَنْ وَصَلَ السُّوسَ ،
وَوَصَّى بِهِ أَمِيرُ السُّلَاسِينَ إِلَى بَزْلَفَ ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ . وَكَانَ مَعَهُ فِي عَافِيَةٍ
وَرَغَدٍ مِنَ الْمَيْشِ . وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى وُلاَةِ السُّوسِ بَعْدَ بَزْلَفَ .

الفصل الحادي عشر

عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

٧٧ - موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة

وَحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بالعِدْوَةِ ، بعد أن أَكَلَ ما شاءه من أمر بني عِبَاد وصاحبِ الرِّبَةِ :

وَنَحْنُ ذَاكِرُونَ منها ما بَلَقْنَا منها ، بِمَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، لا بِتَخْلِيْطِ النَّاسِ ؛ وَنُخْتَصِرُ مِنَ الْوَصْفِ مَا يُغْنِي عَنْهُ الْإِكْتَارُ : فَإِنَّهَا أُمُورٌ لَمْ نُشَاهِدْهَا ، فَتُخْبِرُ عَنْ يَقِيْنٍ وَإِطْنَابٍ ؛ وَلَا غَابَتْ عَنْهَا كُلُّ الْغِيَابِ ، فَتُجْهَلُ مَصْدَرُهَا وَمَوْرِدُهَا ، أَنَّ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ أَشْغَلُ وَأَكْرَبُ مِنَ الْغِيَابِ مَا حَدَثَ بَعْدُنَا لِقَلَّةِ الْمَبَالَةِ بِمَا لَا يَغْنِينَا مِنْهَا ، وَلِشُغْلِ خَوَاطِرِنَا بِمَا دَهَيْنَا بِهِ ، عَلَى أَنَّ ذِكْرَ مَا سَمِعَ ، وَنَحْنُ قَدْ أَمِنَّا مِنَ الْمَوْتِ ، أَيْسَرُ مِنْ ذِكْرِ مَا عَيْنَاهُ ، وَنَحْنُ جَازِعُونَ مِنْهُ . فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَذْهَلَ عَنْ عِلْمِ جَلِيَّتِهِ بِالْمَعَانِيَةِ ، وَعَنْ وَصْفِهِ بَعْدَ الْأَمَانِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ ذِكْرِ الْهَوْلِ ، فَكَأَنَّهُ فِيهِ .

وقد كان أمير المسلمين ، قَبْلَ تَحْيِيَّتِهِ إِلَى غرناطة ، قد وَعَدَ الْمُعْتَمِدَ بِهَا . ، وَقَالَ لَهُ : « أَنَا رَجُلٌ مَغْرِبِيٌّ ؛ وَلَيْسَ قَدَمَتِي أَخْذُ مَالٍ وَلَا

بلاد! * وقد ترى ما رُفِعَ على صاحب غرناطة؛ وتوقع عليها من الروى. وليس ٦٦(ب) غرضي أكثر من تخليصها؛ فإذا صارت في يدي، ولا يُمكنني إمساكها لِيَيْنِ بلاد الأندلس من العدو، وضعتها عند ذلك في يدك: فتكون أعلم بما تصنع بها، وأقعد لما يصلح للمسلمين. »

٥ فلم يشك المعتد أن ذلك منه كائن؛ وعمل حساباً آخر أن قال في نفسه: « إن لم يهتأ له أخذها بعود صاحبها عن الخروج إليه، فليست مما تؤخذ من وقعة واحدة! ستجر الحال من أجلها، وتشيع عليها للحلات، كما صنع بليط؛ وتدخل الشتوة، فيحتاج إلى الانصراف، وتبقى هذه الماقل التي طاعت للأمير أكون زعيمها. وفي خلال ما يتلوى أمر غرناطة، اختبج إلى، وكان لي بذلك الصولة على الفريقين، ولا نخلى من يركتها! »

وكان الحبيب إليه أن تثبقي على ما ذكرناه، إذ لا يعلم، عند حصوله عليها، ما تكون قرعته معه، كالذي كان. وسكت عني في الأمر؛ ولم ير الانكشاف بسرّه إلى رئيس يفسى عليه، غير رموزات، إذ ذاك لا تنفع. ولو قال لي: « امتسك! » فأنا أحوط على حالي، أو: ١٥ « اخرج! » لم أطمع ما تهمة؛ ولا يمكن أن يعطيني تقوية، فيفتضح عند الم رابط. إنما كان صنع الأمير أن يطّلع ويرى، عسى يهتأ له في النصبة شيء، أو يسلم من معرفته؛ قد تنسب، ولم يجد تحيصاً غير ما كان بسبيله. وكذلك ابن الأفتس معه على تلك الحال. وصاحب المربة في المربة ٢٠ لم يتحرك: كل أحد منهم إلى ما ينقض من أمر غرناطة؛ قد أبهتهم أمرها. وأقلقهم.

ولما بصرتُ تَأْلِبَهُمْ عَلَى مع الأمير، خَاطَبْتُ كُلَّ واحدٍ مِنْهُمْ بِكِتَابٍ
أَقُولُ لَهُمْ : « هَذَا الْأَمْرُ مُنْجَرٌّ إِلَيْكُمْ ! وَالْيَوْمَ بِي وَعَدًا بِكُمْ ! » فلم
يُمْكِنُ قِرَاءَةُ الْكُتُبِ دُونَهُ ، وَعَرَضُوهَا عَلَيْهِ . فَخَنَقَ عَلَى ؛ وَكُتِبَتْ
الْأَجُوبَةُ بِإِمْلَائِهِ ، يَقُولُونَ : « إِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَلْطَخُنَا بِأَفْعَالِكَ ، * وَنَحْنُ قَدْ
٥ بِرَأَا اللَّهَ مِنْهَا ! » وما أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْوَعِيدِ وَالتَّذْنِيبِ : فَعِلُّ مِنْ قَدْ
وَحِلَّ ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَكْثَرِ مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، مَعَ الطَّمَعِ وَعَمَى الْبَصَائِرِ ،
كَمَا وَصَفْنَا قَبْلَ :

وَكَانَ رُسُلُهُمْ إِلَى قَبْلِ ذَلِكَ يَحْضُونِي عَلَى الْإِمْتِسَاكِ وَالتَّجَلُّدِ . وَقَالَ
ابْنُ الْأَفْطُسِ : « أَنَا أَعْتَذِرُ عَنْهُ ! » وَلَمْ يَرَوْا كَتَبَ كِتَابٍ خَوْفًا مِنْ
١٠ أَنْ يَكُونَ ظَهِيرًا عَلَيْهِمْ ، غَيْرَ إِهْدَاءِ ذَلِكَ عَلَى الْأَلْسِنَةِ . فَعَلْتُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ
قَدْ أَسْلَمُونِي إِلَى طَائِقِي ؛ فَإِنْ كَانَتْ لِي ، لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِمْ دَاخِلَةً ؛ وَإِنْ
كَانَتْ عَلَى ، لَمْ يُفْسِدُوا وَجُوهَهُمْ مَعَ الرُّابِطِ ؛ وَحَسْبُهُ اجْتِهَادُهُمْ مَعَهُ
بِأَنْفُسِهِمْ وَرِجَالِهِمْ .

فَرَأَيْتُ حَالِي فِي هَذَا كُلِّهِ تَالِفَةً ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ ، طُولَ مَدَّةِ امْتِسَاكِ
١٥ لَوْ امْتَسَكْتُ ، لَكَانَ سُلَاطِينُ الْأَنْدَلُسِ أَجْمَعُ مُتَأَلِّبِينَ عَلَى فِتْنَتِي مَعَ رَعِيَّتِي ،
لِأَنَّهُمْ يُلْزَمُهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ لِلرُّابِطِ وَالطَّمَعِ ، عَسَى يَحْضُلَ لِأَحَدٍ مَزِيدٌ فِي بِلَادِهِ ،
وَلَا تُمْكِنُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مَعُونَتِي وَلَا الْاسْتِفْسَادَ مِنْ أَجْلِي . فَتَحَنُّنٌ لَمْ يُعِنَ
بَعْضُنَا بَعْضًا عَلَى الرَّؤْيَى ! فَكَيْفَ عَلَى الْمُسْلِمِ ، مَعَ حَرْبِ الْكَافِرِ وَقِيَامِ
أَهْلِ الْبَيْتِ ! هَذَا مَا لَا طَاقَةَ بِهِ لِمَنْ عَقْلٌ ! وَلَمْ نَظُنَّ نَحْنُ أَنَّ الْأَمْرَ يَنْفَتِقُ
٢٠ إِلَى هَذَا كُلِّهِ ، وَلَا نُعَاجِلُ هَذِهِ الْمُعَاجَلَةَ . وَلَوْ عَلِمْنَا ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ
يَقْدُمُنِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، إِذْ مَا سِوَى ذَلِكَ عَلَى هَذِهِ الرِّتْبَةِ لَا يَنْفَعُ .

وإنما طمعنا بما قصصناه قبْلُ ، وحسبك !
وإنه، لَمَّا آلت الحالُ إلى ما لم يُجَرَّ على قياس، خرَجنا إليه، ولم نَلتَوِ ساعة .

٧٨ — حركات المرابطين على المريّة

ولم يُقدِّم أميرُ المسلمين شيئاً، وقتَ خروجي إليه ، على إرسال جيشٍ
إلى صاحب المريّة ، قَبْلَ ابن عبيّاد ، إذ كان بتخلُّفه مَوْسُوماً بالنفاق ، ولأنّه
مُعَايِدِي على ذلك ، وأنّه تَحَلَّفَه لا يكون إلا عن اتِّفاق .

فلم يُحرِّك منها مَوْضِعاً إلّا وأجاب . وتناثرت مَعَاقلُه أجمع ، حتى بلغ
العسكرُ إلى باب المريّة . وكان الرَّجُلُ — رحمه الله — ساعةً ورود الخبر
عليه بخرُوجنا ، انطبق له ، واعتلّ لما رأى من هَوَلة وسوء عاقبته . وقضى
عليه وصول العسكر إلى الباب ، وهو على تلك الحال ؛ فأقْرَعَ لها ومات .

* وولّى بعده ابنُه مُعِزُّ الدولة ، الناهِضُ إلى قلعة حمّاد على ما نصِّفه بعد هذا . ٦٧ (ب)
وقد كان ، لَمَّا رأى من طَلَب [المرابط لبلاده] ، قد وجّه إليه ابنه
الآخر ، يَعْظُه ويُعلِّمه بوجّه الحقِّ فيه ، إذ كان يَنْتَحِلُ قِتْعَهَا ؛ وذلك مما
ذَكَّرْنَا من قِلَّةِ المَيْزِ بالأحوال ، إذ يَرَى هذه الأمورَ مشتتةً ، ويطمع
إطفاءها بالوعظ ! فساعةً وصوله ، أمر الأمير بثقافه على المقام في الحديد . وتحيل
أبوه في انطلاقه ، حتى انصرف إليه فارّاً من الرُّابط : اختلَّسه من مَوْضِعِهِ
رَجُلٌ له شَبَابٌ ، قذف به في البحر حتى سَلِمَ إلى والده .

وفتر الطَلَبُ على المريّة للشغل بما حدث بأمر ابن عبيّاد ، وأنّه أوكد
الأشياء . وإنَّ ابن صمّادح ، لما حضرته الوفاة ، وصّى ابنه هذا المستخلف ،
٢٠ وقال له : « أمتسك في هذه القصة طولَ مقام ابن عبيّاد في مُلكه

بِإِشْبِيلِيَّةَ مَا اسْتَطَعَتْ ! فَإِنْ رَأَيْتَ ابْنَ عَبَّادٍ قَدْ خَرَجَ ، فَلَا تَتَرَبَّصْ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَأَنْتَجُ بِنَفْسِكَ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَأَدْخُلِ الْبَحْرَ بِمَا قُدْرَتُهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِكَ ، إِذْ لَا مَطْمَعَ لَكَ فِي الْبَقَاءِ بَعْدَهُ ! »

فَحَفِظَ وَصِيَّةَ أَبِيهِ ؛ وَسَاعَةً مَا انْقَضَى فِي إِشْبِيلِيَّةَ مَا انْقَضَى ، تَخَيَّرَ قِطْعَةً أَشْحَنَ فِيهَا جَمِيعَ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِهِ ، وَكَتَمَ أَمْرَهُ ، وَخَرَجَ بِاسْمِ أَنَّهُ نَاهَضٌ إِلَى أَمِيرِ السُّلَيْمِ بِهَدِيَّةٍ لِيَهْدِنَا بِذَلِكَ أَهْلَ الْمَرِيَّةِ ؛ فَسَرُّوا بِفِعْلِهِ ، وَقَالُوا : « هَذَا هُوَ الصَّوَابُ ، قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكَ مَا حَلَّ بِغَيْرِكَ ! » حَتَّى تَوَسَّطَ الْبَحْرَ ، وَأَعْطَى لِلنَّوَاتِيَّةِ مَالًا جَسِيًّا ، وَأَخْبَرَهُمْ غَرَضَهُ . وَخَرَجَ بِالْجَزَائِرِ ، وَأَكْرَمَهُ صَاحِبُ الْقَلْعَةِ ، وَأَمَّنَهُ فِي ذَخَائِرِهِ ، وَأَكْرَمَ ضِيَاقَتَهُ ، وَخَيْرَهُ حَيْثُ يَحِبُّ السُّكْنَى ؛ فَاخْتَارَ تَدَلُّسَ ، لِأَنَّهَا عَلَى الْبَحْرِ ، وَلِيُغَيِّبَ عَنْ عَيْنِ السُّلْطَانِ ، خَوْفًا مِنَ الطَّلَبِ . وَانْخَمَلَ فِي ذَاتِهِ ، وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ بِالْأَرْجَحِ فِي أَكْثَرِ أَخْوَالِهِ .

٧٩ - تَوَثُّرُ الْعَلَاqَاتِ بَيْنَ الْأَمِيرِ الْمُرَابِطِيِّ وَالْمُعْتَمِدِ

وَإِنَّ الْمُعْتَمِدِينَ عَبَّادَ ، لَمَّا بَصُرَ بِدُخُولِ الْأَمِيرِ غَرْنَاطَةَ ، وَأَسْتَنْجَزَ وَعْدَهُ ، فَلَمْ يُلْتَفَتْ ، وَرَأَى تَقَافَهَا بِالْمُرَابِطِينَ وَإِخْرَاجَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ وَكُلِّ مَنْ طَمَعَ بِالْبَقَاءِ عَلَى حَالِهِ ، جَزَعَ جَزَعًا شَدِيدًا ، وَخَافَ أَنْ يَثْنَى بِهِ ، إِذْ رَأَى الْأَمِيرُ مَذْهَبَهُ فِي الْبِلَادِ وَاسْتَصْرَاحَهُ . * وَلَمْ يُمْكِنَ لِلْأَمِيرِ أَنْ يَأْخُذَهُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ : ٦٨ (ب) فَيَقْبَحُ ذِكْرَهُ . وَأَشَارَ إِلَيْهِ الْمُرَابِطُونَ بِتَقَافِهِ ؛ فَأَبَى حَتَّى يُلَوِّحَ قَبْلَهُ ذَنْبٌ يَوْخُذُ بِهِ . مُنْ إِنْهُ ، بَعْدَ أَنْ نَهَضَ وَاتَّبَعَهُ قُرُورٌ يَقُولُ لَهُ : « الْأَمِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى تَذْكَارِكَ بَعْضَ الْأَمْرِ ! » فَأَبَى ، وَمَضَى لَوِجْهَتِهِ ، فَارًّا بِنَفْسِهِ ؛ وَأَطْوَى الْمَرَاوِجَ ، حَقَّقَ وَصَلَ قُرْطُبَةَ . وَقَالَ فِي طَرِيقَةِ إِلَى ابْنِ الْأَفْطَسِ : « أَنْجُ

بَنَفْسِكَ ! قَدْ تَرَى مَا حَلَّ بِصَاحِبِ غَرْنَاطَةِ ، وَغَدَا بَنَا !
 ثُمَّ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ لِلْأَمِيرِ نُفُورُهُ ، وَجَّهَ إِلَيْهِ يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ،
 وَيَقُولُ لَهُ : « نُرِيدُ الْاجْتِمَاعَ بِكَ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ . » : لِيَقُولَ : « لَا ! »
 فَيَجِدَ السَّبِيلَ ، كَمَا فَعَلَ . فَرَاجَعَهُ ابْنُ عَبَّادَ : « إِنْ ذَلِكَ كَانَ وَقْتُ
 ه كُنْتَ ضَيْفًا ، وَتُرِيدُ النَّزْوُ ؛ فَلَزِمْتَنِي مَعُونَتِكَ بِنَفْسِي وَجَمِيعِ أَمْوَالِي ! وَالْآنَ
 إِنَّمَا أَنْتَ لِي جَارٌ مِثْلُ بَادِيَسٍ وَحَفِيدِهِ ؛ وَأَنْتَ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى الشَّرِّ بِمَجْنُونِكَ !
 فَلَا يُمْكِنُنِي التَّغَرُّبُ بِنَفْسِي ، عَسَى أَنْكَ تُرِيدُ أَخَذَ بِلَدِي ، إِذْ لَا تَصُحُّ لَكَ
 غَرْنَاطَةُ إِلَّا بِمَا يُضَافُ إِلَيْهَا مِنَ الْأَنْدُلُسِ ! » فَشَرَطَ عَلَيْهِ أَمِيرُ السَّالِمِينَ أَنْ
 يَلْتَزِمَ الرِّبَاطَ ، وَيَقْطَعَ الْقِبَالَاتَ ؛ وَتَحَامَلًا كَثِيرًا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْضِيهِ ؛ وَفِي تَرْكِهِ
 ١٠ أَوْ فَعَلَهُ قَطْعُهُ . فَامْتَنَعَ ابْنُ عَبَّادَ جَهْدَهُ ، وَبَنَى عَلَى الشَّرِّ .

وَبَدَأَ [الرِّبَاطُ] بِمُدَاخَلَةِ مَعَاظِلِهِ ؛ فَانْتَشَرَتْ ، كَمَا جَرَى لِنُفُورِهَا ؛ وَقَامَتْ
 عَلَيْهِ الرِّعَايَا بِكُلِّ قَطْرِ . فَأَرْسَلَ إِذْ ذَاكَ إِلَى الرَّومِيِّ ، يَسْتَعِيثُ بِهِ ؛ فَقَعَدَ عَنْهُ ،
 خَيْفَةً مِنَ التَّغَرُّبِ ، وَهِيَ حُجَّةُ أَمِيرِ السَّالِمِينَ عَلَى ابْنِ عَبَّادَ ، أَنْ قَالَ لَهُ :
 « ظَهَرْتُ بِكِتَابِكَ إِلَى الرَّومِيِّ وَإِسَالِكَ عَنْهُ ! » فَقَالَ الْمُتَعَيِّدُ : « لَوْ قَعَلْتُهُ
 ١٥ قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذَ بِلَادِي بَطْرًا وَأَشْرًا ، كُنْتُ أَلَامٌ ! وَأَمَّا بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ
 طَلَبِي فِي الرُّوحِ ، اضْطَرَّتَنِي الضَّرُورَةُ إِلَى ذَلِكَ لِلدَّفَاعَةِ ، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا ! »
 وَهِيَ كَانَتْ عِلَّةَ الْجَمِيعِ ؛ وَبِذَلِكَ هَلَكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ ، وَمِنْهُ أُتِيَ .

٨٠ — الْأَسْتِيلَاءُ عَلَى قُرْطُبَةَ وَإِشْبِيلِيَّةِ وَتَقَى ابْنُ عَبَّادَ

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلْأَمِيرِ خِلَافُهُ وَقَعُودُهُ عَنْهُ ، شَاوَرَ الْقَهَّاءَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَأَشَارُوا
 ٢٠ عَلَيْهِ بِغَزْوِهِ . فَكَانَ غَزْوُهُ بَعْدَ إِبْلَاءِ عُذْرٍ ؛ وَلِهَذَا مَا أُخِّرَ^(١) بِهِ لِيُهِلِكَ

(١) أصل : « وخر » .

من هلك عن يَنَفَةٍ ولتكون له الحُجَّة على من يُريدُ إخراجَه . فأمرَ الأميرُ
سير* بالخروج إليه . ونَهَضَ ، ونَحْنُ بِمَكْنَسَةٍ . ونَازَلَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً ؛ ٦٨ (ب)
ومَعَاظِلُهُ قد ذهب أَكْثَرُهَا بالطاعة .

٥ وافتتح الأميرُ بجلال هذا مدينةَ قُرْطُبَةٍ ، واستشهدَ فيها ابنُه اللأمون
ووزيراهُ ابنُ زَيْدُون وابنُ بَكْرٍ - رحمهم الله - بِمُدَاخَلَةٍ من أَهلِ
البلَدِ ، مع انخراق المدينة ، وأنه لم يَمكن ضَبْطُهَا إِلَّا بِأَهْلِهَا . وكان المَعْتَمِدُ
حَذِيراً على قُرْطُبَةٍ ، يرجو بقاء حاله بثبوتها ، ويوصى ابنَه بالصبر ، ويقول
له : « لا تجزع ! فالموتُ أَهْوَنُ من الدَّلِّ ! وَلَيْسَ السُّلْطَانُ إِلَّا من
القَصْرِ إلى القَبْرِ ! »

١٠ فلَمَّا أُخِذَت قُرْطُبَةُ ، انقطع الرجاء . وضاقَتِ إِشْبِيلِيَّةٌ ؛ وفقد ما كان
بيده من أَجْلِ النفقات ، إلى أن دخلها الأميرُ سيرَ عُنُوةً بِمُدَاخَلَةٍ من بَعْضِ
أَهْلِهَا . وهلك فيها عَالَمٌ ، وانكشف الحَرَمُ ، إِذْ للجَيْشِ مَعْرَةٌ لا تُمَلِّكُ
بَعْدَ صَبْرِهِمْ على مَلِكِهِمْ . وظهر لِسِيرٍ من اجتهدهم فى القتال ما أعجبه
ذلك ، وقال : « لو أَنَّى أَقْصَدُ^(١) مدينةَ الشُّرْكِ ، لم تَمْتَنِعَ هذا
١٥ الِامْتِنَاعُ ! »

وكان دخولها من ناحية الوادى ، وهو أَمنهَلُ الأَمَاكِنِ . ولولا صَبْرُ
أَهْلِهَا وكَثْرَةُ أَقَارِبِ ابنِ عِبَادٍ ، لم يَسْتَطِيعَ [المَعْتَمِدُ] على شَيْءٍ ؛
فكَانَتْهُ غُلِبَ بالِنَفَقَاتِ الَّذِينَ كانت الأبوابُ بأيديهم ، ووَكَّلَهُمْ بَيْنَ سِوَاهِمُ ،
إلى أن لم يَكُنْ مع القضاء مَدَقِّعٌ . وكان دُخُولُهَا يوم الأحد فى [٢٢]
٢٠ رَجَبِ [سنة ٤٨٤] ، فى التَّارِيخِ الَّتِى دُخِلَتْ فِيهَا غَرَنَاطَةُ بَعْدَهَا بِعامٍ كَامِلٍ .

(١) أصل : « نَقَصَدُ » .

وَدُخِلَتْ قَبْلَهَا قَرْمُونَةٌ ؛ ومات فيها عالمٌ كثيرٌ . ثُمَّ التَوَى أَمْرُ
رُنْدَةٍ ؛ ونازلها قَرُورٌ ، إلى أن ظفر بالراضى ، وخدَعَهُ ، وحصل على
أمواله ؛ ثُمَّ قَتَلَهُ ، خَوْفًا من أن تفتضح تلك الأموال ؛ وقيل إن ذلك
لم يكن عن رأى السلطان . وأمرَ بِقَتْلِ كلِّ من ظفر به في رُنْدَةٍ
المذكورة من الأحرار والجنود القاتلين . وقُتِلَ فيها رَجُلٌ من العرب يُعرف
بأبي الصنصنام ، جرأةً على الله ، ليأخذَ بنتَهُ ؛ ونكحها من بعده ،
وحصل على ماله . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ ^(١) . وانتسك بالعبيد ، وصيرهم
إلى السلطان .

ولما ظفر بابن عباد ، قياً الأميرُ سيرُ خدمته وعبيده ، حاشى أمهات
الأولاد . وأمره أميرُ المسلمين بإرساله إليه . فقدم إلينا بمكناسة مع دخلته ؛
* وبقى فيها إلى أن سيقَ معنا إلى أغمات .

٦٩ (١)

٨١ - ققول يوسف بن تاشفين إلى مراکش

وإنَّ أميرَ المسلمين ، لما فتح الله له في هذا كله ، أخذَ في الانصراف
إلى مرُّوكش ؛ وقد بلغ من آماله غايته ، وامتَلأتْ يداهُ بالأموال ؛ وقسم
على أجناده بعض من الفئ ، وأهدى إلى الصَّحراويِّ عمه من تلك الذخائر .
وأمرنا أن نستوطنَ أغمات ؛ فأَينناها ، ولقينا من أمير المسلمين كلَّ
جميل ، وأنزلنا بداره الصَّغرى في الحريم ، ولم يزلَ يَمْتَقِدُنَا من إنعامه ،
كَيْفَ ما هَيَّأَ الله على يديه ، ووَجَدْنَاهُ بعدَ الله أَرْفَقَ بنا ، وأَحْسَنَ
مَذْهَبٍ فينا من الناس أجمعين ، ومن كلِّ من سبقَ إليه مِنَّا إحسانٌ .

٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطلينوس ومهلكه

وَبَقِيَ ابْنُ الْأَفْطَسِ يَتَخَذَمُ أَمْرَهُ ؛ وَكَانَ يُدَارِي ابْنَ الْأَحْسَنِ ، وَيَنْفَعِلُ
لَهُ فِي كُلِّ مَا أَرَادَ ، طَبْعًا مِنْهُ فِي الْبَقَاءِ لِحَيِّهِ ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ،
يُنْهَشُ ، وَيُرَى آيَاتُ تَدُلُّ عَلَى الشَّرِّ ، وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِي أَخْذِهِ . وَدَاخَلَ
عَلَيْهِ ابْنُ الْأَحْسَنِ فِي بَلَدِهِ ؛ فَشَعَرَ بِذَلِكَ ، وَتَيَقَّظَ لَهُ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْمُرَابِطِينَ ،
وَدَاخَلَ الرُّومِيَّ ؛ فَخَفَّتْ عَلَيْهِ الْمُطَالَبَةُ ؛ وَسُئِيَ عَلَيْهِ جَهْرًا ، بَعْدَ السَّغَى سِرًّا ؛
وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، مِثْلُ السَّمَكَةِ الْعَاجِزَةِ الْمَوْصُوفَةِ فِي « كِتَابِ دِمْنَةِ » :
لَمْ تَزَلْ فِي تَقَلُّبٍ وَتَرَدُّدٍ ، حَتَّى أَخَذَهَا الصَّيَّادُ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ يُرِيدُ
أَنْ يُخَلِّطَ : يُخَاطِبُ الْأَمِيرَ بِإِظْهَارِ الطَّاعَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي أَمْرِ الرُّومِيِّ ،
وَيُخَاطِبُ الْقُنُوشَ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى مُلِمَّةٍ ، إِنْ دَهَتُهُ مِنَ الْمُرَابِطِينَ . وَكَانَ
ابْنُهُ الْمَنْصُورُ دَاهِيَةً بِالْأُمُورِ ، قَدْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ الْحِذْرَ وَالْخَوْفَ ، وَقَدْ
رَأَى طَرِيقَةَ ابْنِ الْأَحْسَنِ ، وَسَعْيَهُ عَلَى أَبِيهِ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ سَحِيلٌ مَائِيٌّ
فَقِيهٌ ، مُتَصَرِّفٌ فِي أُمُورِ الْأَمِيرِ ، اسْتَوَظَلَ بِطَلِّيُوسَ ، وَاكْتَسَبَ فِيهَا
مَالًا ؛ يَرَى أَنَّ كَوْنَهُ فِي الثَّغْرِ لِمَا يَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ يَعْمَلُ فِي خَلْعِ
صَاحِبِهَا .

وَكَانَ ابْنُ الْأَفْطَسِ الشَّيْخُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ ؛ لَوْ سَأَلَهُ رُوحُهُ مَا لَا يَحِلُّ
عَلَيْهِ ، [عَمَلٌ] بِهِ ، مُتَوَقِّعًا لَشَرِّهِ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْذَرُهُ الْإِنْسَانُ وَيَكْرَهُهُ
بِقَلْبِهِ ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ بِالْخِيَارِ ، فَهُوَ مُتَوَرِّطٌ لَا تَحَالَةَ ، فِيهِ ؛ فَإِنَّ الْمُدَارَاةَ
فِيهِ مِمَّا لَا تَنْفَعُ ، وَالِاسْتِمَالُ مُنْقَطِعٌ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي مُجَاوِرَةِ عَدُوِّكَ عِنْدَ

* الحاجة إليه ، إلا أن تدرى عند ذم العاقبة معه أنك مستغن عنه بغيره ؛ ٦٩ (ب) وإلا ، فانت له طعمة .

فقال له ابنه المنصور : « هذا التردد لا يجزئك ، ولا يغنى عنك ما ترى من إظهار الطاعة للمرابط ! ولا طاعة أهل بلدك لك ومحبتهم التي كانوا يمرضون عليك ! فلو أنهم يرون بعض حقيقة في عزيمة ، كما أبقوا عليك ؛ كالذي رأيت صنع بغيرك ! فإما أن نضفي للمرابط ، فلن تبلى رضاه إلا بالاخلاع له ووضع البلد في يديه ؛ ونقنع بأن تكون متحرراً ، متخلياً عن الرياسة ؛ فمأجل ذلك ، نجد عنده الأمان ! وإن فرت نفسك عنه ، فلا تتأخر عن القرار منه بنفسك وأهلك وجميع أموالك ! يجعلك الرومي في أي بلدة شئت ؛ وربما سوغها لك ، كما فعل بابين ذي النون في بلنسية ؛ وترك مدينة بطليوس ، لا تدخل على المسلمين داخله ؛ فيحصل لك النجاة بمهجتك ، وسلامة البلد للمسلمين ! » فقال له أبوه ، وسقته رأيه : « لا أترك موضعي ! وعسى أن تهني الأقدار ضد ما تظن ! » فخرج عنها ابنه ، وتجا بماله وأهله ، وأخذ لنفسه بالرأى الذي أشار به على أبيه . وبقي الشيخ لحينه ، حتى نفذ أمر الله فيه .

وإن الأمير سير ، لما أراد من التخدم لأمر بطليوس والحيلة فيها ، لم يثق بنفسه في ذلك ، لحدوث ولايته الأندلس ، ورأى أن الداء لا يعانى إلا بدوائه ، ولا يلقى أحداً إلا بحجره ؛ فتخير لذلك ابن رشيقي ، لأنه أندلسي ، عالم بالمكايد في الفنون ، مع ما كان له عليه من الأيادي قبل في لييط ، وأن ثقافته ذلك الوقت لم يكن إلا على رغم منه بمصادرة قروور

له . فأنهز القُرْصَةَ في إطلاقه ، والكُفَّاءَ له على صَنِيعِهِ بما يأمره من
أمرِ بَطْلَيْوَس .

وخطبَ السلطانَ في أمره ، بعد أن أظنَّبَ في صِفَةِ حاجته إليه . فقبل
قَوْلَه ، وأمرَ بإرساله ، وألطفَ له القول ، واعتذر إليه بما جرى ، وأمر له
بمالٍ جسيم . ونَهَضَ ، بعد أن حَدَّ له الوقوف عندَ أوامرِ سِير ، وأنه
مُسْتَعِجِيهِ ؛ ففَضَى . ونحى* الناسَ من انطلاقه* ما تعَجَّبُوا منه وخطَّطوا القول (١) ٧٠
في ذلك ، كلٌّ أَحَدٍ على مِقْدَارِ عَمَلِهِ أو شَهْوَتِهِ .

فلَمَّا وصل ، تَخَدَّمَ أمرُ بَطْلَيْوَس بكلِّ وَجْهٍ من المُدَاخَلَةِ لأهلِ البلد ومن
معه في القَصْبَةِ من الحرس وغيرهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها لَيْلًا ،
١٠ ويفتحون له [الباب] . فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلَّقوا بالشُّورِ عند
الإمارة التي كانت مع من دَاخَلَهُ . وتُقبِضَ على الشَّيْخِ وابْنَيْهِ الفضلِ
والعبَّاسِ ، واحتُورَى له على أموالٍ جسيمة . وأمرَ سِيرُ بإخراجه للقتل ،
بعد أن رأى في نفسه هوانًا عظيمًا ، وشَدَّةً على المال ، ونقمَ عليه ما كان
من عَمَلِهِ مع النصاري والمعاقل التي أعطاهم ؛ فأمرَ بقتله مع ابْنَيْهِ الفضلِ
١٥ والعبَّاسِ — رحمهم الله — .

وطاعَ جميعُ ذلك الثَّغَرِ المُرَابِطِينَ ، كأنَّهُ لم يكن قطُّ لغيرهم . وفي
أَهْلِهِ وبناته ، وجميعُ ما تَرَكَه . ثم صار ابْنُهُ المنصورُ في مُجَلَّةِ الرُّومِ ، حَقِيقًا
لما جرى على أبيه ، يطلب الثَّأْرَ ، ويتطَرَّقُ معهم بلادَ المسلمين .

٨٣ — نشاط المرابطين ضدّ النصارى .

استيلاء « السيد » لُدْرِيق على بِلَنْسِيَّة

وصرف المرابطون وجوههم إلى فتنة الروم ومقاصاتها ، بعد إكمالهم لأخذ سلاطين الأندلس ؛ يقولون : « إنّه لا ينبغي لنا قتال الروم ، وترك وراءنا^(١) الأعداء ، يَمْنُ يَبْرَأِي عَلَيْنَا مَعَهُمْ ! » فكلُّها نَهَيَّاتٌ بلا مَشَقَّةٍ غير إِنْشِيطِيَّةٍ ؛ فوقع فيها بعض التندُّر ، كما قدَّمنا ذِكْرَهُ . فسُبْحان المقدّر الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كُنْ ! » فيكون . هذا نصٌّ ما كان ولا نعلم ما يكون ، كما قال بعض الشعراء :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمِ
ثم نشأ بعد ذلك من أمرِ بِلَنْسِيَّةِ ما لم يَنْبَلِجْ بها ما يوصف ؛ فإنَّ الحديث لا يَحْسُنُ ذِكْرُهُ إِلَّا بَعْدَ تَقْضَى آخِرِهِ ؛ والقوسُ لا تُكَبَّدُ إِلَّا بِقَبْضِ طَرَفَيْهَا ؛ فإذا استكمل الخبر ، طابَ إرادُهُ وحَسُنَ مَوْقَعُهُ ، ونُقِ بَعْضُهُ بَعْضُ . ولو أننا ندعُ هذا التأليف إلى مُدَّةٍ يَتِمُّ فيها خبر بِلَنْسِيَّةِ ، لَأَتَيْنَا بِهِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الظَّهْرُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَتُرِكَ* هذا الديوان مخروماً ، ٧٠ (ب) انتظاراً لِمَا يَكُونُ فِيهِ أَمَلٌ بَعِيدٌ . ١٥

واستئنافُ تاريخ له فصولٌ لا يُعْنَى ، لا سيما أننا أخذنا اتَّقُسْنَا في حَيْزِ تَمَامِهِ بما يليق بالزمان ، ورَضْنَاهَا بما تستمرُّ عليه من تَرْكِ الشَّرِّ والتَّعَزُّهِ عَمَّا فَاتَ ، وإعمال قَطْعِ اليأس عَمَّا قِيلَ ؛ واليأس عَمَّا فَاتَ يُمْتَقَبُّ رَاحَةً ؛ وَلَرُبَّ مُطَمَّئَةٍ تَعُودُ دُرَّاحًا .

(١) أصل : « وَتَرَكَوْا وَرَأَا » .

فإذا كان ذلك كذلك ، فأول ما يجب أخذ أنفسنا به إخلاصُ النية
 لأمر المسلمين — أيدهُ الله ! — وتمنى الخير له ، لأنَّ صلاحَ المسلمين
 بصلاحه . ومن الديانة اعتقاد ذلك ، لما أمر به من طاعة الأئمة والنصح
 لكلِّ مسلم ، لا سيما أنه مُحسِنٌ إلينا . ثمَّ اقتصرنا على النظر فيما يخصُّنا
 ٥ وأنزلنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قطُّ إلَّا على هذه الحالة ، واعتبرنا بمن كان
 قبلنا ، ونظرنا لمن هو دوننا .

٨٤ — تأملات في قلب الأقدار

وما حلَّ بابن الأفطس ، فشكرنا الله على ما نجانا منه ، وصرَّفنا وجهه
 اهتبالنا إلى ما ننتفع به ، وعَلَّبتنا النفسَ الناطقةَ على الحيوانية ؛ فإنها
 ١٠ تحمل على الفضائل والإنصاف ، ومعرفة حقائق الأشياء ، كما أنَّ الحيوانية
 تحمل على الغلبة ، وإثارة الشهوات ، والحيدة عن سبيل المعرفة .
 ورأينا أنَّ شغل البال بما مضى لا يَرُدُّ شيئاً غير الهمِّ والكرب اللذين
 يُنحلان الجسمَ ويذهبانِ اللَّبَّ ، وأنَّ الحرجَ على ما لا يكون نصبٌ للبدنِ
 ومُسْقَةٌ للإنسان ؛ لأنَّ قولُ الفلاسفة : لا يُلتدُّ بما مضى ، ولا يُدرى
 ١٥ ما يكون فيما بَقِيَ ؛ وإنما له لذةُ ساعته التي هو فيها ، أو عمله الذي يجده
 لِمَعاده . فإنَّ أعقبَ اللهُ بخير ، فلنَّ نَحْصِرَ ما سَلَفَ من أيامنا ، فنَهْرَمَ
 قَبْلَ أوانِ الهرمِ ؛ وإن كان الذى يأتى أشدَّ من هذا ، فيحقُّ اغتنامُ
 ما نحنُ فيه ، ونَعُدُّها أعياداً ، ونُحَدِّثُ اللهَ عملاً يَرْضاهُ ؛ وإن كُنَّا أبداً
 على هذه الرقية بلا انتقال (وغير متمكِّن من ذلك) ؛ فتوطينُ النفس
 ٢٠ على ما يَعْلَمُ أنها عليه دائمةٌ ، أخرى وأرواحُ البالِ .

- ثم إِنِّي اعتبرتُ جميع ما في الدنيا ، التي إليها يَسْعَى الناسُ ؛ فوجدتُ
نفسِي مُبْلَغَةً منها كلَّ أَمَلٍ ؛ * وإن انْقَطَعَتْ ، فلم نصحبها ، ونحنُ منها ٧١ (١)
على يقينٍ بِتَخْلِيدِهَا . بل ، لكلِّ شيءٍ مُدَّةٌ ، ولا بُدَّ من تَرْكِهَا .
والخروجُ منها في مُدَّةِ العُمُرِ خيرٌ من مَيِّتَةٍ على فِتْنَةٍ أو غَرْقٍ ، عَسَى
بذلك أَنْ يُعْظِمَ اللهُ الأَجَرَ ، وَيُكَفِّرَ السيِّئَاتِ . ويكون ذلك للإنسان زاجراً
عن الآثامِ ، ويعتبرُ قَدْ مَالِهِ كَأَنَّهُ لم يَكْتَسِبْهُ بِرَزِيَّةٍ نفسه إذ حان حينُهُ ،
فَيُقَدِّمُ لها النظرَ ، بتوفيقِ اللهِ تعالى ، قبل الموت وحلولِ القوت . والله
المُسْتَعَانُ ! لا شريكَ له !
- سُئِلَ النَّبِيُّ — عليه السلام — عن علامةٍ انْشِراحِ القَلْبِ للإسلامِ ؛
١٠ فقال : « هو التَّجَافِي من دارِ القُرُورِ ، والإِنَابَةُ إلى دارِ الخُلُودِ ، والاستِعْدَادُ
بالموت قبل لقاءِ القوت . »

الفصل الثاني عشر

تأملات أخيرة بعد النفي

٨٥ - المؤلف والشعر

وَإِذْ قَدْ أَتَيْنَا عَلَى وَصْفِ بَعْضِ الْحَادِثَاتِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَرَبِّهِ دَوْلَتِنَا ،
وَمَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ فِيهَا أَحْكَامُنَا ، حَسْبَا سَاعَدَتْنَا عَلَيْهِ أَذْهَانُنَا ، وَنَالَتُهُ
٥ مَقْدُورَتُنَا ، إِلَى انْصِرَامِ الْأَمَدِ ، فَلَنَرْجِعَ الْآنَ إِلَى ذِكْرِ بَعْضِ مَا يَتَعَلَّقُ
بِذَلِكَ مِنْ شِعْرِ نَظَمْنَاهُ وَقْتَ فَرَاغِ الْبَالِ وَجَهِمِ النَّفْسِ ، مَعَ مَا أَعَانَ عَلَى
ذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ إِلَى كُلِّ مُسْتَحْسَنِ ، وَالشُّرُورِ بِطَيْبِ كُلِّ خَبَرٍ .
عَلَى أَنَّي لَمْ أَنْتَحِلْهُ قَبْلُ ، وَلَا كَانَ مِنْ شَأْنِي الْأَخْذُ بِهِ ، إِلَّا عَلَى
سَبِيلِ الْإِسْطِرَافِ وَالْإِطْنَابِ فِي وَصْفِ شَيْءٍ أُرِيدُ نَفْتَهُ . قَرَّبًا صَنَعْتُ
١٠ فِي الْبَيْتِ أَوِ الْبَيْتَيْنِ آيَاتًا ، أَحْضَرْتُ لَهَا ذِهْنِي ، وَأَحْدُثُ فِكْرِي ؛ فَتَصَدَّعَ
بِدَكِّهِ ، وَمَا أَكَادُ ، كَالشَّيْءِ الْمُسْتَعْرَبِ مِنْ غَيْرِ مَعْدِنِهِ . فَيُنْشِدُهَا
الْكُتُبَةُ فِي مَجَالِسِ الْإِحْتِفَالِ لِلرَّاحَاتِ ، تَقْطَعُ بِذَلِكَ الزَّمَانَ عِنْدَ الْفَرَاغِ
مِنَ الشُّغْلِ ، كَالَّذِي يَأْخُذُ بِهِ الْمُلُوكُ أَنْفُسَهُمْ فِي سَاعَاتِ الدَّعَةِ ؛ وَنُضِيفُ
مَعَهَا لَمَعًا مِنْ آدَابٍ وَسِيَرٍ مُخَضَّرِي ، مِمَّا يَخْتَلِجُ فِي الْخَاطِرِ وَيُجَرِّبُهَا الْإِنْسَانُ
١٥ بِصُحْبَةِ الزَّمَانِ وَتَنَقُّلِهِ فِي الْحَالَاتِ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ : « مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا
الْعِلْمُ ؟ » قَالَهُ : « قَلْبًا عَقُولًا ، وَلِسَانًا سَوَوُلًا ! »

٨٦ — استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره

وكلُّ شيءٍ إنما يَنْطَبِعُ في النشأة وحين المولد . ولقد طالعتُ من مَوْلَيِ
 أشياء مَيَّزْتُهَا من طبائعي وأخلاق ، على أَنَّ واضِعِيهِ أَلْفُوهُ وَتَحَنُّ في حالِ
 الطفوليَّة ، * لم يُوصَلْ إِذْ ذَاكَ إلى معرفة شيء من أحوالي . وكتَمْتُ ٧١ (ب)
 عَنِّي مِمَّا جَعَلْتُ مُدَّةً ، حتَّى وَقَعَ السَّعْرُ إلى يَدِي على غَيْرِ ظَنٍّ ؛ فَشَقَّ ذَلِكَ
 عَلَيَّ ، خَوْفًا عَلَىَّ مِنَ الْعُجْبِ بما كَانَ فِيهِ مَنْصُوصًا مِنَ السَّعَادَةِ . فَطالَعْتُ
 مِنْهُ عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ ، إِذْ كَانَ الْمَوْلَدُ رَصْدِي ؛ وَكَانَ الطَّالِعُ الْحَوْتَ
 بِأَرْبَعِ دَرَجٍ ، وَصَاحِبُهُ الْمُشْتَرَى فِي الْحَادِي عَشَرَ مِنَ الزُّهْرَةِ ؛ وَسَقَطَتْ
 الشَّمْسُ فِي الدَّلْوِ مَعَ عُطَارِدِ ؛ وَانْفَقَتِ النَّحْسَانِ فِي الثَّوْرِ بَيْتَ الْأُخُوَّةِ
 وَالْقَرَابَةِ ؛ وَصَارَ الْقَمَرُ هَيَلَاجًا إِذْ كَانَ فِي السَّابِعِ مِنَ الْبُرُوجِ ، فَصَلَحَ ١٠
 لِنَاكَ لِأَجْلِ سَقُوطِ نَيِّرِ التَّوْبَةِ ؛ وَالزُّهْرَةُ كَدَخْدَاهُ ، دَلَّتْ بِمَكَانِهَا
 — وَاللَّهُ أَعْلَمُ — عَلَى قَوْلِهِمْ ، عَلَى سِنِّيهِا الْوُسْطَى خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً
 يَزِيدُهَا الْمُشْتَرَى سِنِّيهِ الصَّغَرَى اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا ؛ فَجَمِيعُ ذَلِكَ سَبْعَةٌ
 وَخَمْسُونَ عَامًا . وَاللَّهُ بَنِيهِ أَعْلَمُ !

١٥ وَتَكَلَّمَ (الطَّالِعُ) عَلَى أَرْبَابِ مُثَلَّثَاتِ النَّيِّرِ الدَّالَّةِ عَلَى تَقْسِيمِ
 السَّعَادَةِ لِلْمَوْلُودِ ؛ فَكَانَ رَبُّ الْمُثَلَّثَةِ الْأُولَى زُحْلًا ، وَمَعَهُ الْمَرْيُخُ فِي
 بَيْتِ غُرُوبِهِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الثَّلَاثَ الْأَوَّلَ فِيهِ بَعْضُ التَّقْدِيرِ وَالتَّنْغِيصِ
 وَالتَّكْدِيرِ ؛ وَمِثْلُهُ الثَّلَاثُ الثَّانِي الَّذِي لِعُطَارِدِ ، إِذْ كَانَ فِي بَيْتِ الشَّقَاءِ
 وَالْهُمُومِ ، مُحْشُورًا بَيْنَ النَّحْسَيْنِ ؛ فَدَلَّ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَأَشَدَّ ،
 ٢٠ كَالَّذِي تَبَيَّنَ الْآنَ ؛ وَالْقِسْمَةُ الثَّلَاثَةُ لِلْمُشْتَرَى ، وَهُوَ فِي بَيْتِ الرَّجَاءِ

وَالسَّعَادَةِ ؛ فَذَلِكَ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَطْنَبَ فِي وَصْفِ السَّعَادَةِ فِيهِ ، لَا أَدْرِي كَيْفَ هُوَ ، إِذْ هُوَ بَعِيدٌ فِي الْقِيَاسِ ، قَرِيبٌ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ .

٥ ثُمَّ وَصَفَ خَيْرَ الْأَمْرَاضِ ؛ فَذَلِكَ عَلَى الْأَمْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ السُّودَاءِ وَحِدَثَانِ النَّفْسِ بِأَشْيَاءٍ تُخَوِّفُهُ .

وَذَكَرَ خَيْرَ الْبَنِينَ ؛ فَقَالَ : بَحِثْ شَهِيدَ شَاهِدٍ ، يَكُونُ الْوَالِدُ ؛ وَشَهِيدَ آخَرُ بِأَنْ لَا وَلَدَ . وَذَكَرَ عَلَى الْقِلَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْنَاهُ دَلِيلًا عَلَى قِلَّتِهِمْ ؛ وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي نِصْفِ الْعُمُرِ . فَظَهَرَ ذَلِكَ بِنَشَأَتِهِمُ الْآنَ .

١٠ وَذَكَرَ خَيْرَ الزَّهَادَةِ فِي الْحَرَامِ كُلِّهِ ؛ وَحَقَّ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ ، غَيْرَ أَنْ الَّذِي يَتَّبِعُهُ فِي نَصْبَةِ الْمَوْلِدِ أَغْلَبُ عَلَى الطَّبْعِ ؛ ثُمَّ نَظَرَ فِي وَجْهِ التَّعَفُّفِ ، وَابْتَحَثَ عَلَى مَا أَوْجَبَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ تِلْكَ الزَّهَادَةَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ مَعَ سَلَامَةِ الْمُتَعَدِّ ؛ فَإِنَّ الزُّهْرَةَ ، إِذْ كَانَتْ فِي أَحَدِ بَيْتِ زُحَلٍ ، ظَهَرَ عَلَى الْمَوْلُودِ قُبْحُ ذَلِكَ الشَّرِّ ؛ فَتَعَفَّفَ . وَقَالَ إِنْ حِكْمَتُهُ فِي يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي لِسَانِهِ .

وَرَأَى صَاحِبَ بَيْتِ الْعُرْسِ ، وَهُوَ عَطَارِدُ ، فِي بَيْتِ زُحَلٍ ؛ فَذَكَرَ عَلَى الْمَيْلِ إِلَى الصَّغَارِ ذَوِي الطَّبَائِعِ الْمَطَارِدِيَّةِ ، مَعَ مُنَافَرَةٍ لَا تُبْعِثُ الشَّرِيعَةَ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ صَاحِبِ الْعُرْسِ وَصَاحِبِ الطَّالِعِ مُوَاصَلَةً وَلَا مُشَاكَلَةً .

٢٠ كُلُّ هَذَا قَدْ عَلِمْنَاهُ مِنْ أَنْفُسِنَا ، كَأَنَّهُ حَاضِرٌ مَعَنَا ، وَمُطْلَعٌ

علينا . فلم نَشْكُ في صحَّته بإذن الله ، فسُبْحَانَ مُصَرِّفِ الْآيَاتِ وَجَّزِي
الْأَفْلَاقِ !

(الْفَلَكَ مَا اسْتَدَارَ مِنَ الْأَشْيَاءِ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون » ^(١) . وَسَمَّاها سَمَاءً ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ تَدْعُو كُلَّ مَا ارْتَفَعَ سَمَاءً ؛
هـ فهي ، لارتِفاعِها علينا ، سماء ؛ وَهَيَّئْتُهَا : فَلَكٌ ، لَا سَمَاءَ .)

٨٧ — آراء المؤلف في التنجيم

وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ الْقُلُوبِ مِنْهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا هِيَ
دَلَالَةٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا يُعْلَمُ بِهَا الْجَلِيَّةُ ، كَالْقَيْثِ الْمُنْزَلِ دَلِيلٌ
عَلَى نَبَاتِ الزَّرْعِ بِهِ ، أَوْ كَالنَّارِ الْمُشْتَعِلَةِ بِمَكَانٍ عَلِمَ أَنَّهَا مُخْرِقَةٌ . وَيَحْتَجُّونَ
١٠ بِحَدِيثِ الرَّسُولِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فِي قَوْلِهِ : أَقْبَلْتُ بِمَجْرِيَةٍ ، فَتَشَاءَمْتُ ،
فَتَلَكَ عَيْنٌ غَدِيقَةٌ . وَمُعَانَاةُ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ دَلِيلٌ عَلَى بُرْهَانِهِ ، يَرْجَى لَهُ
ذَلِكَ إِنْ أَخَّرْتَهُ الْمُدَّةَ . وَجِئْتُ بِطَبِيبٍ عَالِمٍ إِلَى أَحَدِ الْعُظَمَاءِ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ،
فَلَمَّا شَكَاهُ الْمَرِيضُ إِلَيْهِ ، قَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : « قَدْ بَرِيتَ بِحَوْلِ اللَّهِ ! » فَلَمَّا
أَعْلَمَهُ التَّرْجُمانُ بِقَوْلِهِ ، قَالَ الْعَلِيلُ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » ، فَأَجَابَهُ الْحَكِيمُ :
١٥ « إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَدْ شَاءَ : لَمْ يُسْقِنِي إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَّا وَقَدْ قَضَى
بِصَحَّتِكَ ! »

وَقَدْ أَغْلَى ^(٢) أَهْلُ الْهِنْدِ فِي هَذَا الْعِلْمِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًا ، حَتَّى

(١) سورة الأنبياء : ٢٣ = سورة يس : ٤٠ .

(٢) أصل : « اغلوا » .

إن فيهم من لا يؤلّي تملكتهم إلّا من شاكل طالع الدولة ؛
 وهم يزعمون أنّ طالع الملك ، إن لم يكن وتدًا من أوتاد المملكة ،
 أو كان منها ثلثي عشر أو سادسًا ، وأمكنة الكواكب غير متفقة* ٧٢ (١)
 لملك ، فإنه ينحسها ، ولو بلغ الجهد من الاحتياط عليها : إمّا تهلكه ،
 أو يهلكها ، ضرورة تسوقه الأقدار إليها . فكانوا يتخيرون الطوالع قبل
 اختيار العقول والمذاهب ، يزرون أنّ القدر أغلب من الرأي ، ويقولون :
 « لك سعادة الدولة ومساعدة الأقدار هيأت لنا هذه الآراء لطول
 المدد . »

ثمّ إنهم يزعمون أنّ العمر الطبيعيّ مائة وعشرون عامًا ، وأنّ القواطع
 التي تكون قبله إمّا هي من أحداث داخلية على الإنسان ، عرضية ،
 إمّا من فساد المزاج ؛ فتخور الطبيعة ، إذ جعلوا الأربع طبائع التي في
 الإنسان قوامه كأركان البيت ، فتتفسد منها طبيعة ، اعتلّ
 الجسم ؛ وإن تغيرت كلها ، مات . وجعلوها مشاكلة للأزمنة : فالدم
 ربيعيّ ، والبلغم شتويّ ، والصفرار صيفيّ ، والسوداء خريفيّ ؛ فنّ
 عالج كلّ زمانٍ منها بضده من الأغذية والأدوية ، فقد أصاب . ولا
 باقى مع الله !

و[لما] احتجّ عليهم بالذى يموت فجأة ، أو في زحمة ، أو بآرق
 سبب ، وهو يظهر صحيح الجسم ، أضافوا إلى الطب من علم النجوم ،
 واتفق رأيهم أن لا فلسفة تتمّ حتى يجمعها ، وأنّ لا قوام لأحد العليّن
 دون الآخر ؛ قالوا : إمّا ذلك من الهياليج الساقطة ؛ فإنّ المولود ، إذا
 كانت هياليجه ساهرة ، صغّر ارتباط نفسه بجسمه ؛ فلا تخرج إلّا عن

مَشَقَّةٌ مع تمامِ المَدَّةِ التي تدُلُّ عليها العَطِيَّةُ . وإن كانت هَيَالِجُهُ ساقِطَةً كُلَّهَا ، عرض الموت بأَرْقٍ سببٍ . فَإِنْ لم يكن له هَيَلَجٌ ، سَيَّرَتْ المَطْلَعِيَّةُ وَعُدَّتْ لها أعوامٌ ؛ ويكون القَطْعُ عند تَمَامِهَا ، وقد يكون في تَحَاوِيلِ السَّيْنِ ؛ وَإِنْ تَمَّ العَطِيَّةُ عند انْتِهَاءِ صَاحِبِ حَدِّ الدَّرَجَةِ إلى موضعٍ نحسِّ ، قَطْعٌ أو شبه القَطْعِ ، إِنْ لم تُسَاعِدْهُ النُّجُومُ السَّعِيدَةُ .
وَسَمَوُهُ الجَانِّ بِخَتَانٍ ، وهو دليلُ الحَيَاةِ بِإِذْنِ اللَّهِ .

ومِنْهُمْ مَنْ رَأَى ذَلِكَ قُوَّةً لِنَفْسِهِ* ، وَرَضِيَ بِمَا قَسَمَ لَهُ الْبَارِئُ — عَزَّ ٧٢ (ب) وَجَلَّ — ؛ فَلَا يَنْقُدُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَعِيشُ طَيِّبَ الْعَيْشِ ، يَدْرِي أَنَّ لَا قَاطِعَ يَقْطَعُ بِهِ فِي تِلْكَ المَدَّةِ ، وَيُسَجِّعُ لِقَوْلِ عَلِيٍّ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ —
١٠ لِرَجُلٍ قَدْ أَسَنَّ : « آيَةُ شَجَاعَةٍ قَدْ فَاتَتْكَ ! » يَعْنِي : لَوْ أَنَّكَ قَبْلَ الْيَوْمِ تَدْرِي أَنَّ هَذَا يَكُونُ عُمُرُكَ لَمْ تُبَالِ .

وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّهُ تَأْنِيسٌ مَا لَمْ تَقْرُبِ المَدَّةُ ، وَزِيَادَةٌ فِي أَلَمِ اللَّيْثَةِ إِذَا اقْتَرَبَتْ . وَلَا يَكُونُ الطُّبُّ إِلَّا لِيُصَحَّ الْبَدَنُ مُدَّةَ الْحَيَاةِ لِكِرَاهِيَةِ الْعَيْشِ فِي نَكَدٍ . وَأَمَّا لِدَفْعِ أَجَلٍ ، فَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ .

٨٨ — آراء طِبِّيَّةٍ فِي الْأَغْذِيَةِ وَالنَّبِيدِ

١٥

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : « النَّاسُ يَعِشُوا^(١) لِأَنْ يَكُلُوا ، وَتَحْنُ نَأْكُلُ لِنَعِيشَ ! » فَتَأَمَّلْ مَعْنَاهُ .

وَجَمَعَ أَحَدُ الْمُلُوكِ أَطِبَّاءَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : « أَعْلِمُونِي بِالْإِدْوَاءِ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ ! » فَكَأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا عَلَى الْأَدْوِيَةِ وَالْمُعَانَاةِ بِهَا ، غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَانَ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ .

أَكْبَرَهُمْ سَنًا ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَنْ : « لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلَكُمْ الْأَمِيرُ ! وَلَكِنَّهُ
يَأْذَنُ لِي فِي الْكَلَامِ ؟ » قَالَ : « قُلْ ! فَأَنْتُمْ مَعْدِنُ الْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ ! »
قَالَ « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ! إِنَّ الدَّوَاءَ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ أَنْ تَكُونَ ، عِنْدَ
أَخْذِكَ لِلغَدَاءِ ، تَتْرُكُ مِنْهُ بَقْدَرٍ مَا تَمُّ بِهِ الشُّبْعَةُ ، وَلَوْ لُفِّمَتَيْنِ ، وَلَا
تَمَلًّا ! فَذَاكَ دَوَاءٌ لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى طَيِّبٍ ! » ٥

وَذَكَرَ هَذَا عَنِ الرَّشِيدِ ، إِنَّهُ قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ قِصَّةُ بَطْعَامٍ ؛ فَلَمَّا أَكَلَ
قَالَ : « هَذَا غَدَاءٌ وَدَوَاءٌ ! فَمَا زِيدَ عَلَيْهِ كَانَ دَاءٌ ! » وَعَلَى أَنَّهُ لِكُلِّ
أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَ .

وَقَالَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبُرُودَةُ ، وَأَصْلُ
كُلِّ دَوَاءٍ الْحُمَّى ! » وَقِيلَ : « أَقْلِلْ طَعَامًا ، تَحْمَدُ مَنَلًا ! » وَقَالَتْ
الْحُكَمَاةُ : « إِنَّ الْكَثْرَةَ وَالْقَلَّةَ عَدُوَّ الطَّبِيعَةِ . » ١٠

قَدْ نَرَى ^(١) فِي الْخَمْرِ مَا ، إِذَا اعْتَدَلَ مَزَاجُهُ مِنْهُ بِالْكَثِيرِ ، لَمْ يَجِبْ أَنْ
يُقَالَ لَهُ : « قَلِّلْ ! » وَلَا مِنْ شَارِبِ وَاقْتَهُ الْقَلِيلُ ، أَنْ يُقَالَ لَهُ :
« ازْدَدْ ! » غَيْرَ أَنَّ الْعَاقِلَ يَرَى ذَلِكَ بِحُسْنِهِ ، وَيَعْلَمُ مَا لَمْ يُوَافِقْ طَبْعَهُ ؛
فَلَا يَزِيدُ عَلَيْهِ شَيْئًا . ١٥

وَسُئِلَ حَكِيمٌ عَنِ الْخَمْرِ ؛ فَأَعَابَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا أَخَذْتَ
كَيْفَ يَنْتَبِغِي وَمَعَ مَنْ يَنْتَبِغِي ، فَلَا بَأْسَ بِهَا : تَفْرِجُ النَّفْسَ ، وَتَذْهَبُ
بِالْهَمِّ ، وَتَشْجَعُ ، وَتَحْمِلُ عَلَى الْفَضَائِلِ . وَالتَّزِيدُ مِنْهَا شَرٌّ كَثِيرٌ ،
* كَمَا أَنَّ التَّقْلِيلَ مِنْهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ ! »

(١) ٧٣

وشبهوا كثيرها في الأبدان مثل الترموس الذي إذا أُكثِرَ عليه بالماء وطل مَكثُه ، استحال وذهب نوره .

وقيل فيها :

سَأَلْتُ الشَّيْخَ بُقْرَاطًا وَبُقْرَاطٌ لَهُ عَقْلٌ
فَقَضَّلَ مَا لَهُ شَيْئًا وَطَبَّ مَا لَهُ مِثْلُ
قُلْتُ : الْحَمْرُ تَعْجِبُنِي ! قَالَ : كَثِيرُهَا قَتْلُ !
قُلْتُ : كَمْ تَقْدُرُ لِي ! قَالَ ، وَقَوْلُهُ فَضْلُ :
وَجَلْتُ مِنْ طِبَائِعِ أَرْبَعَةٍ هِيَ الْأَصْلُ
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رِطْلُ

٥

١٠ هذا ما قاله الناس . ولا خيرَ فيما لا تبيحه الشريعة . ولا بأسَ
يعلم الشيء عند الحاجة إلى وضعه ؛ وبعضُ الشرِّ أهونُ من بعضه لمن
ابتلي بها أن يأخذها على حَقِّها .

وقالوا إنه مما يؤلِّد فرحَ النفس الشربُ بآنية الذهب وشمُّ الزَّجِجِ ،
كما أنَّ الشربَ بآنية القَزْدِيرِ وشمُّ البَنْفَسَجِ مما يؤلِّدُ الحزنَ .

١٥ وقالوا إنَّها من أكبر أدوية السَّوداءِ في تلك الساعة ؛ وتعقبُ سَوْدَاءُ
أشْرَ من الأولى إن أُكثِرَ منها . والعلةُ في ذلك أنه لا خيرَ فيها إلَّا
مارقٌ منها ، وحالٌ عليها الحولُ ، وعطرت رائحته ، وهي حارَّةٌ يابسةٌ ،
ثمَّ تستحيلُ إلى البردِ عن شربِ الماء للضرورة ، وتجدُّ الرطبة منها ،
كبديَّةِ اللَّوْنِ ، غليظةِ الرَّوْتِ ، مَوْلدةٌ لِلدَّمِ والنَّوْمِ ؛ وهي الموافقةُ
٢٠ لزمان الشتاء . ولتتخذَ منها لكلِّ زمان ما يوافقُ طبيعته ، ويخالفُ هواه .

ورأوا أنَّ أخذها بعد النَّدَاءِ بساعةٍ ، لينامَ الإنسانُ قبلها ويُرَوِّى

من الماء أَنْجَعُ لَهُ وَأَنْفَعُ . وكذلك الْجَمَاعُ أَنْفَعُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ سَكُونِ
الأعضاء وتَوَدُّعِهَا بالنوم بعد الطعام ، في صبيحة تلك الليلة ، عند تملئ
الأعضاء ، واحتياجها إلى إخراج الفضول ، ونشاطها . ولا يكون ذلك عن
*تَكَلُّفٍ ، حَتَّى تَمِيلَ الطَّبِيعَةُ إِلَيْهِ ، لَا سِيَّامًا إِنْ سَاعَدَتْهَا النَّفْسُ ؛ وَيُؤَافِقُ ٧٣ (ب)
٥ ذلك الشَّخْصُ هَوَاَهَا ، إِذِ النَّفْسُ وَالْجِسْمُ شَكْلَانِ مُرْتَبِطَانِ : مَتَى اعْتَلَّ
أَحَدُهُمَا ، تَضَعُضَعُ الْآخَرُ ؛ وَمَتَى صَحَّأَ جَمِيعًا ، قَوِيَّتِ الْمَنَّةُ وَتَكَامَلَتِ
الصَّحَّةُ . وَيَكُونُ ذَلِكَ أَسْرَعَ فِي الْبَاهِ ، كَمَا أَنَّ الْمَعِدَّةَ مَتَى اشْتَهَتْ
شَيْئًا ، قَدْ ضَمِنَتْ هَضْمَهُ .

قال جَالِينُوسُ : « إِنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي يَشْتَهِي أَرْجَى مِنْهُ لِلصَّحِيحِ
١٠ الَّذِي لَا يَشْتَهِي ! » أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّيِّبَ الْمَاهِرَ ، إِذَا عَانِيَ الْعَلِيلَ ،
وَقَامَ بَيْنَ دَوَائِيْنِ يَكُونُ نَجْعُهُمَا وَاحِدًا ، قَصَدَ إِلَى الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ
عَلَيْهِ أَقْبَلُ فِي حَالِ الصَّحَّةِ ؛ فَيَعْتَمِدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ شَرَابَ السَّقَرَجَلِ
وَشَرَابَ السَّكَنْجَبِينَ فِعْلُهُمَا وَاحِدٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ شَرَابَ السَّقَرَجَلِ أَلْيَقُ بِالنَّفْسِ ،
وَهِيَ إِلَيْهِ أَشْوَقُ ؛ فَيَرَى الْحَكِيمُ تَوَقَّاتَهُ إِلَيْهِ زَائِدًا عَلَى فِي النَّوَاءِ ، وَيَنْجَحُ
١٥ فِيهِ بِالشَّهْوَةِ .

وَلَمْ يَزَوْا لَشَرْبِ الْخَمْرِ عِنْدَ الْعَطَشِ شَيْئًا أَنْفَعَ مِنْ شَرْبِ الْمَاءِ ،
لِلتَّوَقُّانِ وَإِطْفَاءِ الْحَرَارَةِ وَقَمْعِ الْأَبْخَرَةِ .

وَلَيْسَتْ فِعْلُ مِنَ الطَّعَامِ مَا خَفَّ ، وَلَوْ عَاوَدَهُ فِي النَّهَارِ مَرَّاتٍ ؛ فَهُوَ
أَسْرَعُ لَهُضْمِهِ ، وَأَشْهَى لِمَعِدَّتِهِ ، وَأَخَفَّ عَلَى جَوَارِحِهِ . قَالَ بَعْضُ
٢٠ الْحُكَمَاءِ : لِأَنَّ أَمَلًا شَرَابًا أَحَبُّ عَلَى مَنْ أَنْ أَمَلًا طَعَامًا ! فَإِنْ
النُّخْمَةُ ، إِنْ تَقَدَّتْ ، قَتَلَتْ ؛ وَإِنْ تَحَلَّلَتْ ، أَسْقَمَتْ . « قَالَ بَعْضُ

الْقَلَّاسِفَةُ : « خَفِّقُوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ مِنْ أَوْقَارِ الشَّهَوَاتِ ، لِتَصْعَدَ إِلَى عَالَمِهَا الْأَكْبَرِ ؛ فَتَأْتِيَكُمْ بِجَانِبِ مَا هُنَاكَ ! »

وقالوا في الشراب إنه يُسَلِّي الهموم . وأنا أقولُ إنها تَهَيِّجُ الهموم ، إنما هو ما نزل عليه : إِنْ أَلْفَتْ سُرُورًا ، حَرَّكَتْ مِنْهُ مَا سَكَنَ الْإِنْسَانُ عَنْهُ ؛ وَإِنْ أَلْفَتْ هُومًا ، ذَكَرَتْ بِمَا هُوَ فِيهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ ، وَفَقَّتْ إِلَى طُرُقِ السُّوءِ . وَالْهَمُّ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا بِنْتَظِرُ الْإِنْسَانُ مِنْ سُوءٍ ؛ فَذَاكَ الَّذِي لَا يُسَلِّوْهُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَأْتِيهِ مِنْهُ نَعَاسٌ ؛ وَالنَّعْمُ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا مَضَى ؛ فَرُبَّمَا سَلَّتْ أَلْخَمُ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ . وَلَا شَيْءٌ يُولِّدُ النَّوْمَ مِثْلَ النَّعْمِ بِتَذْكَارِ مَا خَلَفَ ، أَوْ النَّظَرِ فِي كِتَابٍ لَا يَنْبَغِي مِنْهُ تَكَلُّمًا أَكْثَرَ* مِنْ مِطَالَعَةٍ ٧٤ (١) ١٠ مَا مَضَى .

وَمِنَ الْجُهَالِ مَنْ يَتَقَنَّدُ أَنْ الْعِشَاءَ قَرِيبَ النَّامِ يُوَلِّدُ الرِّقَادَ مِنْ أَجْلِ التَّمَلُّيْءِ ؛ وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ يَمْنَعُهُ ؛ فَإِنَّ الْحَرَارَةَ تَصْعَدُ إِلَى السَّمْعِ مِنَ الْأُبْخَرَةِ وَكُلُّ حَارٍّ مَانِعٌ لِلنَّوْمِ ، كَمَا أَنَّ الْبَرْدَ فِي السَّمْعِ مُوَلِّدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْأَدْمِغَةَ الْبَارِدَةَ كَثِيرَةُ الزَّلَازِلِ مِنَ الرُّطُوبَاتِ ، وَتَوَلَّدُ التَّسْيَانُ ؟ وَالسَّرِيعُ الْخَفْظُ قَدْ يَكُونُ فِي دِمَاغِهِ مَرَارَةٌ وَيُؤْسَةٌ ؟ وَقَلَّ مَا تَرَاهُ يَنْزِلُ ، وَإِنْ كَانَ ، فَلَا يَدُومُ ذَلِكَ بِهِ ؛ فَإِنَّهَا مِنْ فَضَلَاتِ السَّمْعِ . وَكَذَلِكَ الْجَاخِظُ الْعَيْنَيْنِ يُعْرِضُ عَنْ ذَلِكَ ، وَقَلَّمَا يَسْلَمُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالتَّعَرُّقِ . وَالنَّائِرُ الْعَيْنَيْنِ عِنْدَهُمْ أَصَحُّ بَصَرًا ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ ، إِذَا قَالُوا : « هُوَ النَّائِرُ الْعَيْنَيْنِ ، الْأَسِيلُ الْخَلْدَيْنِ ، الْمُشْرِفُ الْحَاجِبَيْنِ »

٢٠ كَذَلِكَ قَوْلِي ، وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ لِأَحَدٍ جَمَالٌ إِنْ خَشِنَتْ أَطْرَافُهُ وَامْتَلَأَتْ خَدَّاهُ . وَكَانَتِ التَّرَبُّ تَمْدَحُ فِي الْإِنْسَانِ كِبَرَ رَأْسِهِ ، وَتَقُولُ إِنَّهُ عَلَامَةٌ

الشُّؤْدُدُ . وَيَمْدَحُ الْغُلَامَ الْأَبْلَهَ الْعُقُولَ .

وقيل : الجمال في اللسان ، ما كان ناطقاً بالصواب ، ولا خيراً في
النُّهْورِ والإِكْثَارِ بما لا يحتاج . ووَصَفَ بعضُ الشعراء رجلاً فيما رُئِيَ
به ؛ فقال :

لَقَدْ وَارَى الْمَقَابِرُ مِنْ شَرِّكَ كَثِيرَ تَحَلُّمٍ وَقَلِيلَ عَابِ ٥
صَمُوتًا فِي الْمَجَالِسِ غَيْرَ عَيَّ جَدِيرًا حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوَابِ

٨٩ - رجع الكلام إلى التنجيم

وَمَا وَصَفْنَاهُ مِنْ عِلْمِ التَّجِيمِ ، احْتَجَبَتْ يَوْمًا بَعْضَ النُّجُومِ أَنَّهُمْ
على غير شيء ؛ قال : إِنْ كُنْتَ تَقِمْتَ بَأَنَّا نَزَعْنَا أَنَّ الْكَوَاكِبَ فَاعِلَةٌ
أَوْ يَعْلَمُ أَحَدُ الْغَيْبِ ، فَمُحَالٌ ذَلِكَ ، لَا يَدَّعِيهِ أَحَدٌ ، غَيْرَ أَنَّا قَوْلُ بَأَنَّا ١٠
مُصْرَفَةٌ . أَلَسْتَ تَقُولُ فِي الشَّمْسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا ضِيَاءً ؟ فَكَذَلِكَ أَقُولُ
فِي النُّجُومِ السَّعِيدِ أَوْ النَّاجِسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ لَذَلِكَ ؛ ثُمَّ لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ
السَّعَادَةِ وَصُورَتِهَا غَيْرَ الْحَمَلَةِ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْهَيَّا مِنْهَا .

« وَلَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا مُوَافِقٌ لِلشَّرَائِعِ إِذِ النَّصْبَةُ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مُدَبِّرٍ
وَاحِدٍ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ؛ فَتَنَى كَانَ فِي الْعَالَمِ دَوْلَةٌ أَوْ مِلَّةٌ ، لَمْ تَدُلَّ النُّجُومُ
على غَيْرِهَا ، إِذِ الْحُكْمُ مِنْ لَدُنِ الْوَاحِدِ* . فَأَوَّلُ مَا نَبْتَدِئُكَ بِهِ أَنَّهُ ٧٤)
مَا مِنْ طَالِعِ الْقِرَانِ مِلَّةٍ وَمَوْلِدِ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ شَا كُلَّ ، وَاتَّفَقَتْ لَهُ مِنَ
السَّعَادَةِ فِي الْهَيْئَةِ مَا خَرَجَ بِهِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ .

« وَأُخْرَى . أَلَيْسَ تَقُولُ الْيَهُودُ إِنَّهُمْ زُحَلِيُّونَ ؟ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ !

٢٠ أَلَا تَرَى اتَّخَذَهُمُ السَّبْتُ عِيدًا ؛ وَهُوَ لَزُحْلٍ ، وَأَخْلَاقُهُمْ كُلُّهَا مُطَابِقَةٌ لِمَا

يدلُّ عليه زُحَلٌ من البُخْل ، والقَدَّارة ، والخُبْث ، والمَكْر ، والخَدِيعَة ؟
 ثُمَّ الرُّومُ من بَعْدِهِمْ تَمْسِيُون ، لا امْتِرَاء في ذلك ! أَلَا تَرَى أَنْ يَوْمَ
 الْأَحَدِ جُعِلَ لَهُمْ عِيداً ، وهو يَوْمُ تَمْسِي ، وطبائِعُهُمْ موافقةٌ للشمس ،
 وَصُورُهُمْ فيها : البَيَاض والخُمْرة والشُّقْرة ، والرَّهْبَانِيَّة في عُبَادِهِمْ لِقَمِّ
 الشمس ؟ ثُمَّ المسلمون : أَلَيْسَ هُمْ زُهْرِيَّين ؟ والزَّهْرَة دَالَّةٌ على الدين ،
 والنظافة ، والمَرْوَة ، والضوء ، والطهر من الجَنَابَة ، وإِبَاحَة النكاح ، والإماء ،
 والطيب والزينة ؟ ثُمَّ أَمَرْنَا بِاتِّخَاذِ الْجُمُعَةِ عِيداً ، وهو يوم الزَّهْرَة !

« ثُمَّ انْظُرْ إِلَى بَرْوجِ الْفَلَكَ . تقولُ إِنَّ السَّابِعَ بَيْتُ الْعُرْسِ .
 وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمِلُ النَّاسُ التَّكْلَاحَ في شَهْرِ رَجَب ، وهو السَّابِعُ من أَشْهُرِ
 ١٠ الْعَامِ الْمَوْزَنِ بِهِ ، الَّذِي أَوَّلُهُ الْمُحَرَّمُ ؛ والثَّامِنُ من البروجِ بَيْتُ الْمَوْتِ
 وَالْمَوَارِيثُ ، وشَهْرُ شَعْبَانَ الثَّامِنُ من الْأَشْهُرِ الَّذِي تُنْسَخُ فِيهِ الْأَجَالُ ؛
 وَالثَّلَاثُ من البروجِ بَيْتُ الدِّينِ وَالسَّفَرِ ، وشَهْرُ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ ، تَاسِعُ
 أَشْهُرِ الْعَامِ . وَجِبَ فِيهِ الصَّوْمُ وَمُحَافَظَةُ الشَّرْعِ ؛ وَالْعَاشِرُ بَيْتُ الْمُلْكِ
 وَالسُّلْطَانِ . وَاتَّخِذَ الْعَاشِرُ من الْأَشْهُرِ عِيداً يَظْهَرُ فِيهِ بَهَاءُ الدِّينِ وَعِزُّهُ .
 ١٥ » وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ^(١) . وَأَقْسَمَ

﴿ بِالْخُلَسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ ^(٢) وَهِيَ الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ . وَيَزْعُمُونَ
 أَنَّ زُحْلَ هُوَ النَّجْمُ الثَّاقِبُ . لِأَنَّهُ يَفْتَقُ بِضَوْئِهِ سَبْعَ سَمَوَاتٍ . وَأَنَّهُ أَعْظَمُ
 مِنَ الْأَرْضِ سِتَّةً وَتِسْعِينَ مَرَّةً ؛ وَغَيْرُهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ قَدْ وَصَفُوا قِسْمَتَهَا
 مِنَ الْعَظَمِ عَلَى الْأَرْضِ . غَيْرَ الْقَمَرِ وَعُطَارِدِ ، فَإِنَّهَا أَصْغَرُ مِنَ الْأَرْضِ . وَأَنَّ

(١) سورة البروج : ١ .

(٢) سورة التكويد : ١٥ - ١٦ .

الشمس أعظم من الدنيا مائة وثمانون ضعفاً. ولكل كوكب منها مدة*
يقطع فيها الفلك. وربنة هيأها له بارئته — عز وجل — ؛ وإن العالم ٧٥ (١)
السفلى متعلق بالعلوى. مؤثر به بإذن ربّه . «

ومنها من قال : لأى شيء تُنسب إلينا الرزقة ؟ ولم تُنكر الخالق ؛
وإنما تكلمنا فى المخلوقات ؛ فيوصف كل مخلوق بما يدرّكه علم الإنسان .
كواصف رجلٍ أو شجرٍ أو جبل ! «

وذكر عن حكيم أنّه رُئى بالْمُصْحَف عن يمينه . والأسطرلاب عن
شماله ؛ فسئل ما الذى أوجب جمعها لديه ؛ قال : « أتلو فى المصحف
كلام الله . واعتبر فى الأسطرلاب خلق الله ؛ وعلم الهيئة عبادة ! »
١٠ وإنه لما نُصّ على هذه المقالة ؛ كان جوابي عنها : « كل ما تقول
يشبه يكون من مواقة أهل السنة بما احتججتم به ؛ غير أنكم خالفتم
القرآن فى قولكم « يكون » و « لا يكون » ؛ والله يقول ^(١) ﴿ قُلْ
لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . ﴾ قالوا : « لَسْنَا
نقطع عن الأمر أنّه يكون ؛ ولا نقول إلا أنّه يدلّ . ونأى بحجة إلا يتم
شرحها . اللهم ! إذ قلنا : هذا مولدٌ سعيدٌ ، هل تدر على شرح تلك السعادة
١٥ والكائن فيها . مِنَّا مَنْ يَتَحَرَّى ، فيعدل ولا يتكلم على شيء . وقولنا هذا
كقول من رأى سحاباً ثقلاً ؛ فيقول : « هذه تدلّ على الماء الكثير » . هل
قائلٌ ذلك مُلحدٌ ؟ ثمّ الله يفعل ما يشاء .

وهذا أيضاً ممّا قدّمنا ذكره صدر الكتاب أن كل مفتون ملقّن
٢٠ حُجَّتَهُ ؛ والله يقول ^(٢) : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ؛ على أن الحق

عليه نورٌ لا يخبى ؛ تقول العرب : « الحقُّ أبلج ، والباطل لجلج . »
قال المأمون : « لم أعتبِ بأيام السرور مُدَّ عَلِمَتِ التجيم ، ولا استمریتُ
الطعام مُدَّ عَلِمَتِ الطَّبَّ ، ولا طابَ لى النوم مُدَّ عَلِمَتُ عبارة الرويا ! »

٩٠ - مسائل فلكية

٥. ويزعمون أَنَّ الليلَ ظِلُّ الأرض ، ولا ضياء غير الشمس ؛ فيأشراقها
على الأرض عند طلوعها ، كان النهار ؛ وبدخولها تحت الأرض ، رجع
الظِّلُّ طالما ، فأظلم الليل .
وبعضهم من قرأ أَنَّ الشمس تجري ، لا مُسْتَقَرٌّ لها ، إذ يقولون إِنَّ
الشمس لا تَسْتَقِرُّ* بمكان ، إذ لا يصحُّ أَنْ يكون المكان إِلَّا أعظم من ٧٥ (ب)
الذى تحِلُّ فيه ؛ ولا أعظم من الشمس إِلَّا الفلك ، والفلك دَوَّارٌ .
١٠ وقالوا فى الكسوف إِنَّ الكلام فيه ما يمكن إِلَّا بالوقوف على صورة
الهيئة ، ولو لا ذلك ، لم يجد القول . وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف
الذى حُدَّ أمرُهُ وَقْتَ انْجِلَالِهِ وَمَبْلَغِ الْمُنْكَسَفِ منه ؛ وإن الشمس فى
ذاتها لا يعرضها شئٌ غير أَنَّ جرم القمر يحول بينها وبين الأرض متى
قابلها ؛ وكسوف القمر من مُقابلة الأرض .
١٥ وزعموا أَنَّ ضوء الكواكب والقمر من الشمس ، وأنها أجرام شَفَافَةٌ
تكتسب النور من النِّيرِ الأعظم ؛ فيبدو ضوءها بغيرها ، ويطمس عليها
طلوعها . وهو قول الشاعر فى ذلك :
لِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكَبُ

٩١ — تحديد العلوم الطبيعية والطب

وقال أهل الطبيعة : إِنَّ لَا حَيَوَانَ إِلَّا بِالْحَرَارَةِ وَالرُّطُوبَةِ ، فَأَيْنَ مَا كَانَ
 الْمَاءُ وَالشَّمْسُ تَوَلَّدَ فِيهِ الْحَيَوَانُ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ غَيْرِ نَسْلِ . وَنَرَى حَيَوَانًا
 يَكُونُ فِي جُوفِ صَخْرَةٍ صَمَاءٍ مُلَمَمَةٍ ؛ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . قَالَ تَعَالَى (١) :
 ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا
 تَعْلَمُونَ ﴾ . وَذَكَرَ عَنْ الْحَجَّاجِ أَنَّهُ رَأَى فِي النَّامِ عَلَى حَالَةٍ حَسَنَةٍ ؛
 فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ، عَلَى مَا كَانَ مِنْ جُودِهِ ؛ فَقَالَ : « رَزَحَنِي رَبِّي بِكَلِمَةٍ
 قُلْتُهَا : مَرَزْتُ يَوْمًا عَلَى زَرْعٍ ؛ فَهَلْتُ : لَوْ شَاءَ اللَّهُ ، لَأَنْبَتَ فِي النَّارِ
 وَالْبَقَاعِ ! » (أَيِ فِي الصَّحَارَى الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا) وَقَالَ تَعَالَى (٢) : ﴿ وَيَخْلُقُ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ١٠

وَلَمْ يَبْلُغِ الْإِنْسَانُ يَعْلَمِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّبِيعَةِ : عِلَاجٌ ضَعِيفٌ لَا يَرْفَعُ
 قَدْرًا أَكْثَرَ مِنْ تَقْوِيمِ الْمَزَاجِ عِنْدَ انْحِرَافِهِ ؛ فَعَالَجُوا الْأَبْدَانَ بِمَا أَدْرَكَتْهُ ،
 عَقُولُهُمْ ، وَجَرَّبُوهُ بِأَعْمَارِهِمْ ، وَتَرَكُوهُ سَلَفًا فِي الْأَوَاخِرِ . فَكُلُّ يُمَانِيٍّ عَلَى
 مِقْدَارِ تَجَرُّبَتِهِ (٣) وَلَا يُوَافِقُ الْقِرَاءَةَ حَقًّا حَسَنًا وَمَعْرِفَةً بِهَذَا الشَّأْنِ ، هَدًى
 أَخْطَأَ وَتَكَلَّفَ . * وَقَالُوا إِنَّ الْمَوَاءَ الْمُسَهَّلَ لِلْجَسْمِ بِمَنْزِلَةِ الصَّابُونِ لِلثَّوْبِ : ٧٦ (١)
 يُنْقِيهِ وَيَحْلِقُهُ ؛ فَاسْتِعْمَلَهُ فِي زَمَانِ الْخُرَيْفِ أَوَّلَى فِي سُلْطَانِ السَّوْدَاءِ فِيهِ ،
 كَمَا أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْقَصْدِ فِي زَمَانِ الرَّبِيعِ تَخْفِيفٌ لَا يَحْطِى مِنْ أَخْرَاجِ فِيهِ الدَّمِ .
 وَإِنَّ أَشْبَهَ شَيْءٍ الْأَغْذِيَةِ بِمَزَاجِ الْإِنْسَانِ : فَالْخُبْزُ النَّقِيُّ وَاللَّحْمُ النَّقِيُّ وَالشَّرَابُ

(١) سورة الواقعة : ٦٠ - ٦١ . (٢) سورة النحل : ٨ .

(٣) بياض نحو كلمة في الأصل .

الْحَوَاشِي؛ فَمَنْ اقتصَر على هذه دون تَخْلِيْط لم يزل صَحِيحَ الجِسم ، قوَى البِنْيَةِ .
وقيل لجالينوس الحكيم ، وكان في زمان المسيح — عليه السلام — :
« إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نَبِيًّا يَبْرَأُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فقال : « وَأَنَا
أَعَالِجُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فلَمَّا قِيلَ : « يُخَيِّ الْمَوْتَى » لم يُصَدِّقْ
ذلك حتى رآه مُعَايَنَةً حَقًّا .

٩٢ — تقض قول من ينكر أن الجن تتكلم

وَتُنْكِرُ الْحُكَمَاءُ مَا يَزْعُمُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَا الْجِنِّ ، وَتُكَذِّبُ مَنْ يَقُولُ
بِسَمَاعِ نُطْقِهِمْ أَوْ كَلَامِهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَشَرِ ، وَقَوْلُ إِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا مِنْ لَه
لِسَانٍ وَآلَةٍ تُعِينُهُ ، وَإِلَّا ، فَكَيْفَ تَنْطِقُ رِيحٌ تَهْبُ؟ إِمَّا هُوَ بِرِسَامٍ
يَعْرِضُ فِي دِمَاحٍ مَن يَدَّعِي ذَلِكَ ؛ فَيَتَصَوَّرُ فِي دِمَاحِهِ أَمْرًا مَا يَخِيلُ لَهُ بَفْسَادِهِ
أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ وَيَسْمَعُ ، مَا لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى حَقِيقَةٍ ؛ فَيَهْدِي هَذَا بِنَا ، ضَرْبًا
مِنَ الرُّوحَانِيَةِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ ، مُفَكَّرًا فِي بَلَدٍ أَوْ شَخْصٍ أَوْ صُورَةٍ
مِنَ الصُّوَرِ : إِذَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِهَا ، صَارَ كَالنَّاظِرِ إِلَيْهَا ، وَإِنْ سَدَّ عَيْنَيْهِ ،
أَوْ كَالنَّاظِمِ يَرَى مَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ ، أَوْ كَالنَّاظِرِ فِي الْمِرْآةِ يَرَى مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ .
هَذَا ، لِعَمَرَى مَذْهَبٌ خُوِّلَفَ بِهِ طَرِيقُ السُّنَّةِ . وَاللَّهُ يَقُولُ ^(١) : ﴿ قَالَ
عِزْرِيَّتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ وَقَوْلُهُ ^(٢) : ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْتَهُمْ ﴾ ؛
وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ النَّطْقُ إِلَّا بِلِسَانٍ ، وَلَا الْمَرْوِيَّةُ إِلَّا بِبَصَرٍ
لَيْسَ عَلَى خِلْفَةِ الْإِنْسَانِ ، كُلُّهُ عَلَى جَبَلَةٍ ، يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْقِلُ .
وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ تَدِينْ ، وَلَا سَبَّحْتَ ، وَلَا اهْتَدَيْتَ لِمَا يُسِّرَتْ لَهُ .

(٢) سورة الأعراف : ٢٧ .

(١) سورة النمل : ٢٩ .

إِنَّ الطَّيْرَ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا لَا تَعْقِلُ وَصَفَّاهَا اللَّهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، قَالَ ^(١) : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ؛ وَقَالَ تَعَالَى ^(٢) : ﴿ وَإِنْ مِنْ مَنَى إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ . وَوَصَفَ بِالسُّجُودِ النِّجْمَ * وَالشَّجَرِ وَالنُّوَابِ ^(٣) الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا جَوَامِدُ . فَكَيْفَ أَحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَشَّرَا بِالثَّوَابِ ، وَأُنْذَرَا بِالْعِقَابِ ، وَخُوطِبَا بِمَا خُوطِبَ بِهِ الْإِنْسُ . وَقَالَ تَعَالَى ^(٤) : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ .

فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ وَيَعْقِلُونَ ، فَلَا يُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَيَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ هَذَا نَسَقًا فِي كُلِّ مَنْ لَيْسَ لَهُ لِسَانٌ وَجَوَارِحُ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِجَوَارِحِ الْإِنْسَانِ ؛ فَالْمَلَائِكَةُ لَا تَوْصَفُ بِيَدٍ وَلَا لِسَانٍ ؛ وَهُمْ الْمَنْزُورُونَ بِالْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُخَاطَبُونَ لَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ : فَلَا يُؤْمِنُ بِالرَّسَالَةِ مَنْ يَتَمَذَّهَبُ بِهَذَا .

٩٣ - حديث عن السرقة وعن هوم الهوى والشباب

وَقَالُوا إِنَّ الْجَمَاعَ مِنْ أَكْبَرِ أَدْوِيَةِ السَّوْدَاءِ لِسُرُورِ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ وَدُخُولِ الْحَمَامِ ، لَمَّا يَمْرُضُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِنْطِرَابِ فِيهِ . مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَقَرَّ عَيْنُهُ حَيَاتِهِ ، فَلْيَتَمَتَّعْ مَا وَجَدَ سَهْوَةً شَهْوَتِهِ ؛ وَمَنْ اغْتَنَمَ سَاعَةَ لَدَّتِهِ ؛ فَقَدْ عَمِيَ ؛ وَمَنْ أَخَّرَهَا ، فَقَدْ عَدِمَ ! فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ الْآنِ !

وَقَالُوا فِي الْجُلُوسِ عَلَى الْمِيَاهِ وَالرِّيَاحِينَ مِمَّا يُسَلِّي الْعَاشِقَ وَيَتَدَاوَى مِنْ أَحْزَانِهِ بِهِ . وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي تَذْكَارِهِ ؛ وَنَقِيمِ الْبُرْهَانِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَوَلِّعُ إِلَّا بِمَا اسْتَحْسَنَتْ ؛ فَكُلُّ مُسْتَحْسِنٍ تَرَاهُ

(١) سورة النور : ٤١ . (٢) سورة الإسراء : ٤٤ . (٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

يُخْرِجُهَا إِلَى ذِكْرِ الْأَشْيِ فِي خَاطِرِهَا ، وَكُلُّ حَدِيثٍ إِنَّمَا يَسُوقُهُ إِلَيْهِ ؛
وَكُلُّ مَا زِيدَ تَذْكَارًا زَادَ شَوْقًا ، فَأَعْقَبَهُ سَهْرًا وَقَلَقًا . وَالشَّيْءُ لَا يُعَانِي
إِلَّا بِضَدِّهِ : فَكَيْفَ يَشْفَى بِحُسْنٍ وَيُسَلِّهِ حُسْنٌ ؟ بَلْ يُوقِظُهُ وَيَشْفِيهِ !
أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَكْرُوبَ يَتَفَرَّجُ بِالشَّرُّورِ ، وَالشَّرُّورَ ، يَضْمَحِلُّ بِالْكَدَرِ ؟
وَلَيْسَ لِغَائِثٍ مُرَزَّيْ بِمَالٍ وَلَا أَهْلٍ ، فَيَتَسَلَّى بِمَا يُذْهِبُ غُومَهُ ؛ بَلْ
هُوَ مِنْ شَأْنِهِ فِي لَذَّةٍ حَلَاوَتِهَا مَشُوبَةٌ بِحَرَارَةٍ : وَهُوَ حُكْمُ الْحُلُوكَةِ فِي
الْمَذَاقَةِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا مَائِلًا إِلَى الْحَرَارَةِ ؟ وَكَذَلِكَ فِي الْمُسْتَهْتَاتِ : كُلُّ
مَا تَمَّتْ حَرَارَتُهُ ، طَابَ رِيحُهُ .

- وإذا قاس حالَ أزميتِهِ التي كانت تَسْرُهُ على ضروب من حالات
الصبوة ، لم يَجِدْ فِيهَا مَدَّةً كَانَتْ عِنْدَهُ أَفْضَلَ ، وَأَبْلَغَ فِي السَّرُّورِ ، وَأَهْشَّ
لِلنَّفْسِ وَاللِّبْقِ * بِالْحِسِّ وَأَذْكَى لِلْقَلْبِ ، وَأَصْفَى مَشْرَبًا ، وَأَهْنَأَ طَعْمًا ، مِنْ (١) ٧٧
تِلْكَ الْمَدَّةِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَعْضُ جَرَى ؛ فَإِنَّهُ « لَا يَدُّ بَعْدَ الشَّهْدِ
مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ » ، وَدَوَاؤُهُ ، مَا لَا يَرْضَاهُ ، وَلَا يَخْتَارُهُ بَدَلًا مِمَّا هُوَ
فِيهِ ؛ إِنْ بَشَغْلَهُ مِنْ ذَلِكَ خَطْبٌ كَبِيرٌ ، يَنْسِي بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَالَّذِي
١٥ هُوَ بِسَبِيلِهِ عِنْدَهُ أَوْلَى .

٩٤ — تأملات نظرية وأمثلة يضرها المؤلف

من قصّة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا

- وَالصَّبْوَةُ تُحَدِّثُ لِلإِنْسَانِ هَيْجَانًا وَهُمُومًا : كَالْمُهْتَمِّ بِالنَّظَرِ فِي مَالِهِ ،
أَوِ الْمُشْغَبِ بِمُحَاوَلَةِ مَا يُصْلِحُهُ ؛ فَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ ضَارًّا ، بَلْ يَوْمٌ مِنْهُ
٢٠ مُكَابَدَةُ الْأَعْدَاءِ وَمِقَاسَاةُ طَلَبِ الْعَيْشِ ، الَّذِي ، إِنْ فُتِرَ عَنْهُ شَيْءٌ ، لَا طَلَبَ

الزيادة في الرزق . فإن ذلك يسعى كالبيطري الذي هو بالخيار في الكد والراحة .

- والنفسُ تَوَاقَّةٌ : متى سَمِعَتْ إلى مَرْتَبَةٍ ، تَأَقَّتْ إلى ما فوقها ؛ فالعاقِلُ يرى أنَّ كُلَّ كَيْدٍ وَطَلَبٍ دُونَ السَّعْيِ فِي طَلَبِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ قِوَامِ الْعَيْشِ فَخْرٌ وَأَشْرٌ وَرَغْبَةٌ وَحِرْصٌ . ولذلك هو الإنسانُ عن كُلِّ شَيْءٍ مَسْئُولٌ ، إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ : طَعَامٌ يَسُدُّ جَوْعَهُ ، وَثَوْبٌ يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ؛ وَبَيْتٌ يَكُنُّهُ مِنَ الشَّمْسِ . وَلَوْ أَنَّ لَهُ الدُّنْيَا أَجْمَعُ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهَا زَانِدًا إِلَّا حِطُّ الْعَيْنِ الَّذِي يَسْتَوِي بِهِ فِيهِ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِاطِرِينَ ، فَسَلِمَ مِنْ تَعَبَاتِهِ ، وَتَوَرَّطَ هُوَ فِي حِسَابِهِ وَأُوزَارِهِ ، وَمَا كَانَ إِلَى انْقِطَاعِ وَفَادٍ . فَحَقِيقٌ عَلَى الْيُسْبِ أَنْ يَزْهَدَ فِيهِ ؛ لَوْ آكَلَتْ حَالُهُ إِلَى السَّلَامَةِ بَعْدَ ذَهَابِهِ ، لَا عَلَيْهِ وَلَا لَهُ ؛ فَكَيْفَ ، وَهُوَ قَدْ أَتَقَنَ بِالْفَنَاءِ وَبَعْدَهُ الْحِسَابُ وَالْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ ؟ وَقَالَ الْمَسِيحُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ : فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا ! » عَلَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ يَزْهَدُ فِي حَالِ كُلِّ الزَّهَادَةِ ، حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهُ أَمَلُهُ أَوْ بَعْضُهُ ؛ فَإِنَّ الزَّهَادَةَ الطَّبِيعِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِيمَا تَكْرَهُهُ النَّفْسُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَيْلِهَا إِلَى مَا فِيهِ أَذَى مُرَوِّرٍ . وَاللَّهُ يَقُولُ فِي الْإِنْسَانِ ، لِعَلِمِهِ بِهِ ^(١) : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ؛ فَكَأَنَّ الشَّيْءَ ، إِذَا أُدْرِكَ ، انْصَرَفَتْ عَنْهُ النَّفْسُ لِبُلُوغِ نَهْمَتِهَا ؛ وَمَتَى تَمَنَّعَ عَلَيْهَا ، كَانَتْ بِهِ أَشَدَّ (ب) كَلَفًا .

- وَلَقَدْ بَلَّوْتُ مِنْ نَفْسِي بَعْضَ ذَلِكَ ، إِذَا الطَّبَعُ الْبَشَرِيُّ وَاحِدٌ ، لَا يَكَادُ يَخْتَلِفُ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ ؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَحِبَّ لِأَنْبَاءِ

جنسه ما يجبُ لنفسه ، حَظًّا على العَدَلِ والإنصاف .

وأجِدُنِي في كثرة المال ، بَعْدَ تَمَلُّكِ عليه مع ذهابه ، أَرْهَدَ مِثِّي فيه قَبْلَ اكْتِسَابِهِ ، مع سُقُوفِ الحال إذ ذاك على ما هي عليه الآن . وكذلك شَأْنِي كُلُّهُ في كُلِّ ما أَدْرَكْتُهُ قَبْلُ من الأَمْرِ والنَهْيِ ؛ واكتسابِ الذخائر ، والتأنُّقِ في المَطَاعِمِ والملابسِ والمراكبِ والمباني ، وما شَاكَلَ من الأحوالِ الرفيعة التي نشأنا عليها ، حَتَّى إِنَّهُ لم يَبْقَ من ذلك ما تَتَمَنَّاهُ النفسُ ، وما لا تَظُنُّهُ ، إِلَّا وقد بَلَغْنَا منه الغاية ، وتجاوزْنَا فيه النهاية ؛ ولم يكن عند الحصولِ عليه يتقطع ويذهب وشيكًا ، فتطول عليه الحسرةُ ، ويُعَدُّ من جملة الأحلام ! بل ، تَمَادَى برهةً من عِشرين عامًا ؛ وما كان قَبْلَهُ يكاد أن يُوَازِيَهُ ؛ إذ رُبُّنَا في حِجْرِهِ .

وَوَجَدْتُني ، بعد فَقْدِ هذا كُلِّهِ ، على الْوَلَدِ أَحْرَصَ مِثِّي على ما سِوَاهُ من كُلِّ ما وَصَفْنَا ، لَمُدِّمِهِ ذلك الوقت ؛ وَقَلْتُ في نَفْسِي : « الغايةُ التي إليها يَسْعَى الناسُ من أَمْرِ دُنْيَاهُمْ ، قد أَدْرَكْنَاهَا ، وشُهِرْنَا بها في الآفاق ؛ ولا بُدَّ من فَقْدِهَا ، باكِراً كان أو مُؤَخَّراً ، بِحِيَاةٍ أو موتٍ ! فنحسب هذه العشرين عامًا هي مائة عام ، إذا تَمَّتْ ؛ سِوَاها ، وكأن لم تَعْنِ بالأَمْسِ ! وَنَحْنُ الآنَ جُدْرَاهُ بالنظر فيما تَبْتَغِيهِ . والله أن يَقْضِيَ ما شاء ! » وَقِيلَ لِرَجُلٍ حَرَاثٍ : « هَلْ زَرَعْتُمْ ؟ » فقال : حرثنا . واللهُ الزارعُ ! » وكذلك ذُكِرَ أَنَّهُ لم يَبْقَ من الْمُتَوَكِّلِينَ على الله غَيْرِ المزارعين ؛ فَإِنَّهُمْ يَدْفَنُونَ في الأرض أَقْوَاتَهُمْ وَيَطْلُبُونَ فَضْلَ الله وَبَرَكَتَهُ .

٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده

وكان تديبرنا هذا إلهاماً لينفذ القدر ، بكون من نشأ لنا من الولد .
لم يتبعه وقته ، ولا كان في غير مكانه .

(وذكر * الفلاسفة أن الوحي يتجراً على ثلاث : كلام وإلهام ، ٧٨ (١) ومنام ؛ وهو قوله تعالى ^(١) : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ . وقيل في قوله ^(٢) — عز وجل — ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ إنما كان وحي إلهام . وكان النبي — عليه السلام — يقول في بعض أقسامه : « لا ا ومقلب القلوب ! » فإنها بين يدي الرحمن يُقلبها كيف شاء لينفذ فيه أحكامه وتجري عليها أقداره .)

١٠ فما بقي لنا من الآمال غير مالٍ حلالٍ للعاش ، يفي عن السؤال ، وعملٍ صالحٍ للمعاد ، يُنجي من العقاب ويوجب الثواب .

وقد كان مشراط الحكيم يكره الوطأ مدة عمره ، يعتق بذلك أنه مهزم للجسم ومُسرع إلى الفناء ، صدق قيل إن فاعل ذلك مُقتبس من حياته ؛ فمن شاء ، فليقل ، ومن شاء فليكثر ! ولهذا أرجح الجاحظ في « كتاب الحيوان » بأن الخصى إنما طال عمره من أنه لا يجامع . ١٥

وأما أنا أقول إن تلك الساعة التي يستحيل فيها عن الإنسانيّة بقطعها إلى ^(٣) أشد استفرافاً ، وأذهب لجوهرية ، وأقطع لثروقه من أن لو جامع كل يوم في عمره عشر مرات ؛ لأن المجامع تُخرج

(٢) سورة القصص : ٧ .

(١) سورة النحل : ٦٨ .

(٣) بياض كلمة في الأصل ؛ ولعله : « الحيوانية » .

للفضول ، وهذا خُرج منه الجَوْهرُ ، وفُرِّغَتْ عروقه ، ولِيُنْتِ لحمه ،
وأَضِعَتْ عَصْبُهُ ، وأَرْخَتْ جِلْدَتُهُ .

ولمَّا كَبِرَ سِنَّ سُقْرَاطَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْكِبَرِ إِلَّا الْمَوْتُ ،
جَمَعَ مَرَّةً مِنْ عُمرِهِ ، آخِرَ زَمَانِهِ ، وتَأَوَّلَ فِي ذَلِكَ إِتْمَامًا لِحِكْمَةِ
البارئ — عزَّ وجلَّ — ؛ وقال : « لم تكن حِكْمَةُ النسل إِلَّا بهذا
العمل ؛ وإنْ أَنَا مُتُّ تَارِكًا لَهُ أَصْلًا ، كُنْتُ كَالسَاخِطِ أَوِ الْمُعْنَتِ لِمَا رَبَّيْتَهُ
الرَّبُّ ، وَعَسَى بِذَلِكَ نَسْتَوْجِبُ عِقَابَهُ ! » ثُمَّ قَالَ ، إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ :
« مَا أَظُنُّ عِيًّا عَلَى إِلَّا مُجَامَعَةَ تِلْكَ السَّاعَةِ ! »

وكان من نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى إِنْ رَزَقْنِي بِكَرٍّ أَوْلَادِي ابْنَةً ، لم يَزَلْ قَبِيلُنَا
كُلُّهُ يَتَبَرَّكُ بِهَا ، وَيَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ بِكَرُّهُ ابْنًا ذَكَرًا . وقد رأينا فِي سَيْفِ
الدولة أَيْنَا — رحمه الله — أَنْ لم تَمْ لَهُ فَرَحُهُ بِذَلِكَ ؛ عَلَى أَنَّ هَذَا* لَيْسَ ٧٨ (ب)
عَلَى الْعُموم ؛ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهُ لِلتَّأَوُّلِ ، إِذْ قَالَ نَبِيُّنَا — عَلَيْهِ السَّلَامُ — :
« تَفَاءَلُوا وَلَا تَطْيَرُوا ! » فَحَنُّ قَدْ تَفَاءَلْنَا ، لَا سِيَّامَا بِمَا شَهِرَ عِنْدَ أَهْلِنَا
وَقَالُوهُ قَدِيمًا ؛ وَلَوْ كَانَ ضِدَّهُ ، مَا ذَكَرْنَاهُ ، لِلنَّهْيِ عَنْهُ .

ثُمَّ رَزَقْنَا بَعْدَ هَذَا ابْنَيْنِ ؛ فَلَمْ تُبَشِّرْ بِالْأُنثَيْنِ ، كَتَّى لَا يَجْتَمِعَ
عَلَيْنَا حَزْنُ ذَلِكَ مَعَ مَا نَحْنُ فِي سَبِيلِهِ ، لُطْفًا مِنَ الْوَهَّابِ وَإِنْعَامًا وَإِحْسَانًا .
فَتَعَدَّادُ رِيعَمِ اللَّهِ شُكْرُهَا ، وَالْإِعْلَانُ عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ وَالتَّقْوَى ، لَا عَلَى
الْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ ، مِنْ أَوْجِبَ مَا يَأْخُذُ بِهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ . قَالَ النَّبِيُّ —
عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَلَا فَخْرُ ؛ وَأَنَا أَفْصَحُ
العَرَبِ ، وَلَا فَخْرُ ! »

٩٦ - توجه المؤلف الحديث إلى قراءته ، راضين عنه أو ساخطين عليه

ثم انصرف وجهُ اهْتِبَالِنَا إلى وَضْعِ هذا الكتاب ، وهو لَعْمَرَى بِمَنْزِلَةِ
الابْنِ الَّذِي يُبْقِي ذِكْرَ أَبِيهِ فِي الْعَالَمِ ، لِنُبَيِّنَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا مَا أَشْكَلَ عَلَى
الْجَاهِلِ مِنْ مَقَالَةٍ سَوِيَّةٍ [فِي دَوَلَّةٍ] زَعَمَ الْحَاسِدُونَ أَنَّ مِنْهَا كَانَ سَقُوطُنَا .
ولن نعدم مع هذا بَرَكَتَهَا لِمَا نَرْجُوهُ مِنْ ثَوَابِنَا ، وَحَسَنَاتِهِ لِبُعْدِنَا مِنْهَا
وَنَزَاهَتِنَا عَنْهَا . وَإِنَّمَا وَضَعْنَا هَذَا الْكِتَابَ لِمَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ مِنْ أَهْلِ
الْفَضْلِ وَالْحَقِّ ، الْمُجِبِّينَ ^(١) اللَّهُ فِينَا ، الْوَادِّينَ ^(٢) الْخَيْرَ لَنَا ؛ وَلَا يَزِيدُ
الْبَغَاءُ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَعْنِيَةً .

١٠ فَرَدُّ عَلَى أَهْلِ الْإِنْصَافِ وَضَى الْأَلْيَابِ :

« إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْخَاطَبُونَ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ! فَعَلَيْكُمْ اعْتِمَادُنَا ، وَإِنَّا كَمْ
خَاطِبُنَا ، وَلَكُمْ مَا تَكَلَّفْنَا ! فَلَا عَمَى بَكَمِ عَنِ الْمَعْرِفَةِ تَحِيدُكُمْ عَنِ الْمِنْهَاجِ ؛
وَلَا شَتَانَ لِرَبِّهِ سَلَفَتْ تُحَرِّقُكُمْ إِلَى نَفْثَاتِ الْخَافِدِينَ ! وَاللَّهُ يَجْعَلُنَا فِي الْجَنَّةِ
إِخْوَانًا ، كَمَا جَعَلَنَا عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا ! »

١٥ وَفَرَدُّ عَلَى مَنْ اعْتَرَضَ جَهْلًا أَوْ حَقْدًا :

« اخْصَأْ بِجَهْلِكَ ، وَمُتْ بِغَيْظِكَ ! فَلَيْسَتْ الْأَقْدَارُ جَارِيَةً عَلَى
اخْتِيَارِكَ ، وَلَا أَنْتَ الْمُخَاطَبُ ! بَلْ تَأْخُذُ بِأَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ — عَلَيْهِ
السَّلَام — فِي قَوْلِهِ ^(٣) : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ
السُّلُوءِ ﴾ .

(٢) أصل : « الْوَادُونَ » .

(١) أصل : « الْمُجِبُّونَ » .

(٣) سورة الْأَعْرَافِ : ١٩٩ .

الجاهِلين . وهل تنقم ، أيُّها الطاعِن لنا ، أن ورثنا مُلكاً عن آباء
 كرام ، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمرِكَ كُلِّهِ ؟ إذ قالت * العَلَماءُ إِنَّه من عاش (١) ٧٩
 ذا فَضْلٍ على نفسه وأصحابه ، فهو ، وإن قَصُرَ عُمرُهُ ، طويلُ العُمُرِ ،
 مع أَنه كان في طاعةٍ لم تُوصَفْ مقدِّماً ، بحمد الله ، بجورٍ ولا ظُفْيَانٍ ،
 ولا مَنَعَكُنَا دَماً ، ولا غَضَبُنَا مالاً . وكانت مُدَّتُنَا فيه نحو من عشرين
 عاماً خَيْراً من سِنين ، إذ كَيْلَةُ القَدَرِ خَيْرٌ من ألفِ شهرٍ . وتَمَامُ اللدِّ
 على قديم الدهر عادةٌ لا تُسْتَعْرَبُ لنا خاصَّةً . ولا بُدَّ من الفراقِ ! فَلَلهُ الحمدُ
 إذ لم نفقدها بفقد عقولنا ولا أدياننا ، ولا تَمَّتْ بِنفاذِ أعمارنا : فيَوْمٌ من عُمرِ
 الإنسانِ يذكرُ الله فيه خَيْرٌ من تمامِ عَمَلِهِ ؛ ومِيتَةٌ على بلاءٍ وتذكُّارٍ
 خَيْرٌ من مِيتَةٍ على فِتْنَةٍ غَفَلَةٍ .

٩٧ - يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه
 من أخطاء حياته الخاصة .

ثُمَّ أَضْرَبْتُ عَنْ وَصْفِ كُلِّ جَمِيلٍ قَعْلَنَاهُ ، وَحَزَمْتُ اسْتَشْعَرَنَاهُ ،
 وَخِدْمَةُ لِلدَّوْلَةِ تَكَلَّفْنَاهَا .

١٥ وَطَلَبْتُ بُنْيَاتِ الطَّرِيقِ ، وَتَدَبَّعْتُ مَا لَا عَارَ فِيهِ عَلَى الْمَلِكِ . وَلَا تَقْصَانِ
 فِي الْمَمْلَكَةِ ، مِنْ رَاحَةٍ تُخْتَلَسُ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الشَّغْلِ كِي تَعْقِبَ نَشَاطاً ،
 وَعَمَّا دُفِعْنَا إِلَيْهِ تَسْلِيَةً . فَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ : « تَرَكَ الذَّاتَ يُعْقِبُ
 الْبَرْدَةَ ، وَيُوْثِّرُ فِي الْحِلْدِ أَدْوَاءَ مُنْكَرَةٍ . وَقِيلَ : إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلرَّءِ
 عَلَى الْبَقَاءِ مَقْدُورَةٌ ، فَلْيَتَمَتَّعْ ؛ فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ لِلنَّفُوسِ .

٢٠ فَهَجَّجْنَا بِلِقْظِكَ ، وَأَخْرَجْنَا مِنْ حَيِّزِ الْمَزَلِ إِلَى الْجَدِّ ، وَكُنْتَ كَجَارِ

سَبَبَةٌ : إن رأى حسنةً ، كَتَمَهَا ؛ وإن رأى سيئةً ، أَدَاعَهَا . فَطَفَفَتْ وَأَرَبَيْتَ . إِنِ افْتَرَيْتَ ، وَمَا أَدَعْتَ هَذَا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ أَكُنْ مَخْلُوعَ الْعَذَارِ ، وَلَا أَخَذْتُ إِلَى رَاحَةِ تَوَجُّبِ الْغَفْلَةِ ، كَالَّذِي صَنَعَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنَ الْمُلُوكِ ، وَتَعَفَّفْنَا عَنِ الدَّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْحُرْمِ !

• وَلَمْ يَتَّقَ لَكَ مَا تَقُولُ : « إِنَّمَا كَانَ صَاحِبُ غَرْنَاظَةٍ حَرِيصًا عَلَى جَمْعِ الْمَالِ ، مُجِبًّا فِي الْحِسَانِ ، يُنَادِمُ الصَّيَّانَ ! » [وَإِذَا] لَمْ تُحَسِّنِ الرُّوْيَةَ ، وَلَا ظَنَنْتَهُ فِكْرًا .

- أَلَسْتُ تَعْلَمُ ، أَيُّهَا الْجَاهِلُ ، أَنَّ الْمَلِكَ لَا يَنْتَفِعُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا بِمَا كَانَ أَوْقَارًا ؟ وَهَلْ اسْتَوْجِبَ الْمَلِكُ إِلَّا بِذَلِكَ ؟ وَكَيْفَ لَا يَحْرُسُ عَلَى صِيَانَةِ عِزِّهِ وَالْعُدَّةِ عَلَى عُلُوِّهِ ؟ مَا أَنْسَاكَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّهُ مَنَعَ مِنْ حَقِّكَ أَوْ أُعْطِيَ ١٠ فِي غَيْرِ مَا يَجِبُ ؟ هَلْ مَتَى ضَاعَ مَقِيلٌ ، أَوْ رَفُضَ جُنْدًا ، وَدَخَلْتَ ٧٩ (ب) دَاخِلَةً مِنَ التَّقْتِيرِ أَوْ لِلنَّعْيِ ؟ أَوْ مَتَى شَكَاهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ أَخَذَ مَالًا بِغَيْرِ حَقٍّ ؟ لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَى تَزْوِيرِ ذَلِكَ ! فَالْأَغْلَبُ يَعْلَمُ صِحَّتَهُ . وَأَكْثَرُ مِنْ قَوْلِكَ مَتَى خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ شَاعِرٌ بِصِلَةٍ جَزَلَةٍ ، أَوْ مَتَى خَرَجَ [مَادِحٌ] ١٥ بِكُسُوفِ سَنِيَّةٍ : أَمْرٌ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اعْتِذَارٍ ، إِذِ الْقَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَذْبَارِ . وَأَمَّا مُنَادِمَةُ الصَّيَّانِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ يَدُّ مِنْ اسْتِعْمَالِ شَيْءٍ مِنَ الْخَمْرِ ، الَّتِي قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْهَا ، فَمَا لِلْمُعَارِ وَالرِّيَّارِ ؟ لَيْسَ هَذَا بِمَجْلِسِ حُكْمٍ : فَيُتَخَيَّرُ لَهُ ذَوُو الْأَسْنَانِ ، وَلَا يُضَيَّعُ لِتَدْيِيرِ رَأْيٍ ، فَيُشَاوَرُ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ ، وَلَا مَيِّدَانِ حَرْبٍ ، فَيُدْعَى إِلَيْهِ أَمْجَادُ الْقُرْسَانِ ! وَلِكُلِّ وَقْتٍ حُكْمٌ : ٢٠ مِنْ اسْتِعْمَالِ فِيهِ غَيْرِ شَاكِتَةٍ ، قَدْ جَهَلَ . وَلَمْ نَكُنْ مَعَ هَذَا نَأْخُذُ بِهِمْ فِي جِدِّ ، وَلَا نُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَمْرِ ، وَلَا نُنْهَضُهُمْ إِلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِمْ ؟

والمُسْتَعْمَلُونَ لخدمَةِ الدولة مشهورُونَ ؛ مِمَّنْ لَهُ حَفَاةٌ وَدَرَبَةٌ :
والخَدِيمُ لَا يَكُونُ نَدِيمًا : كَيْفَ تَصُولُ الْيَوْمَ عَلَى مَنْ أَطْلَعَ عَلَى عَوْرَاتِكَ
الْبَارِحَةَ ، إِذِ الشُّكْرُ عَوْرَةٌ ؟ أَمْ كَيْفَ تَأْمُرُ بِخِدْمَةِ الْجُنْدِيَّةِ وَالشَّدَقَةِ عَلَيْهِ
فِي الْخُرُوجِ مَنْ تَعَاطَى مَعَكَ الْكَأْسَ ، وَكَثُرَ مَعَكَ الْمَزَاجُ وَالْعَرَبُودَةُ ؟ ثُمَّ
تَطْلُبُهُ لخدمَتِكَ ، فَتَجِدُهُ عَشُولًا عَمَّا يَصْلُحُكَ مَشْغُولًا .

- وَبَقِيَ هَذَا كُلُّهُ ، فَإِنَّ الدُّوَلَ الْكِبَارَ لَمْ يَزَلْ فِيهَا الْعِلْمَانُ وَأَبْنَاءُ
الصَّنَائِعِ صِغَارًا وَكِبَارًا ، عَبِيدًا وَأَحْرَارًا ، وَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ الرَّئِيسِ جَمَالًا ،
وَعَلَى خِدْمَتِهِ أَعْوَانٌ ؛ وَتَصَرَّفَ الصَّغِيرُ السَّنَّ فِيمَا لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْنِ أَنْ
يَتَوَلَّاهُ . وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ وَرُتَبَةٍ . وَهَلِ الْمُلْكُ وَالْمَالُ إِلَّا لِلتَّزِينِ وَالتَّجَمُّلِ
بِهِ ، وَاتِّخَابُ الْحِسانِ مِنْهُمْ تَلِيقٌ بِهِمْ الْكِسْوَةُ السَّنِيَّةُ وَالرَّارِكِبُ الْفَارِهَةُ ؟
وَأَخُوكَ مِنْ وَاتَاكَ ، إِذْ يَتَعَبَّدُ بِمَالِكَ مِنْ شَتَّى يَتَعَبَّدُ [خِدْمَتِكَ مِنْ]
حُرٍّ أَوْ مَمْلُوكٍ . وَإِنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ ، إِذَا لَمْ يَصْلُحْ لَهُ إِنْ يَقُلْ
هَذَا ، أَيْ عَمَلٍ وَلَيْسَ لَهُ عَلَى بَلَدِهِ ، أَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ حُكْمَ رَعِيَّةٍ ؟ إِلَّا
مَا وَصَفْنَاهُ ، لَا أَدْرِي غَيْرُهُ * وَإِلَّا فَتَكُونُ مُجْرِحًا ، وَلِإِشَارَتِكَ ٨٠ (١)
- عَاضِدًا ، أَوْ تَكُونُ قَاضِيًا مُسْتَوْجِبًا (١) !

جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَنِ الشَّرِّ مُعْرِضِينَ ، وَبَطَاعَتِهِ عَامِلِينَ ! إِنَّهُ أَكْرَمُ
الْأَكْرَمِينَ ! لَا رَبَّ غَيْرَهُ ، وَلَا إِلَهَ حَقَّ حَاشَا !

كل الكتاب . والحمد لله . وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

الملحق الأول

مُتَخَبَات عن « كتاب البيان المُغْرِب »^(١)

لابن عِذَارِي المَرَّاكُشِيّ

عن دولة الأمير عبد الله بن مُبْلَقِين بن زِيرِي

(١)

وفي سنة ٤٦٥ ، كانت وفاة باديس بن حَبُوس على قول المَرَادِيّ .
والأكثرون على أَنَّ وفاته كانت ٤٦٩ ؛ هكذا ذكر ابن القَطَّان في « نَظْم
الجُمَان » .

ذكر يعة حفيد باديس بن حَبُوس

هو عبد الله بن مُبْلَقِين المالك بتدبير اليهودي للتقدم ذكره . وتسمى
١٠ بالمُظَفَّر بالله ، الناصر لدين الله . وكان غلاماً لم يبلغ الحلم ؛ فاتفق على
مبايعته ووزَّراه جدُّه ووجوه صِنْهَاجَة . وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف
بِصِمَاجَة ؛ فاستقلَّ بحاله ورياسته . وكان لباديس وَلَدٌ خلف من البنين ،
وكان قد أعطاه في حياته مدينة جَيَّان ؛ فكان ينهمك في شرب من الخمر ،
ويحدثُ أحداثاً قبيحة من القتل ؛ وكانت له كلبة سماها لُبُونَة ؛ فن أحدث
١٥ له حادثاً أو استوجب عقوبةً ، أمر به ، فرُمِيَ إلى الكلبة ، فأَكَلَتْه .

(١) من مخطوط مكتبة جامع الفرويين بفاس (رقم ١٨٥٥) لم ينشر نصه إلى الآن .

فتفرق الناس عنه وكرهوه ، واتفقوا على تقديم عبد الله بن بُلقين المذكور .
فقام بأمره سِماجةٌ خير قيام .

وطمع ابن عباد في رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس ؛ فحشد من
كان عنده ، واستكثر من الجند ، وقدم إلى إغرناطة ؛ فبرز عليها وبني
٥ بقرها حصناً على ستة فراسخ منها ، وملأه بالرماة والرجالة ، وترك الخيل
فيه مع قائده ، وأمرهم بالضرب على إغرناطة وجهاتها . فكان ذلك .
ثم لم يزل سِماجةٌ يخدم الصبي إلى أن بلغ مبلغ الرجال ؛ فأراد الانفراد
بجالة ؛ فنفى عن نفسه سِماجة ؛ فلقى بالمرية بمال كثير وحالة جسيمة ؛
ولم يزل بها إلى أن هلك . وبقى عبد الله بن بُلقين بفرنطة . وسيأتي
١٠ خبره في دولة المرابطين إن شاء الله تعالى .

(٢)

وفي سنة ٤٨٢ ، طرد عبد الله بن بُلقين من غرناطة مقاتل بن عطية
الزناتى ، وكان فارس الإسلام ، وهو مع إخوته في ثلاثمائة فارس . فكان
ذلك ابتداء نحوس عبد الله بن بُلقين .

١٥ وفيها ، قام مؤمل ، مولى باديس بن حبوس ، في قصبة لوشة ، على
حفيد موله بدعوة لمتونة ؛ فأخذه عبد الله وسجنه .

.....

فأول من شهر انخلاف على يوسف بن تاشفين صاحب إغرناطة عبد الله
ابن بُلقين ، كما ذكرنا ؛ فنظر في اختزان الأقوات ، وألحق الرماة
٢٠ والرجال ، وأعلى الأبراج ، وبني الأسوار ، ووصل بعضها ببعض ، وأقام

عليها الدِّيبَانَات ، ونصب الرِّعَادَات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدَّ في ضرب
السَّهَام ، وبذل في ذلك جهده ؛ وإذا نفدت هذه ، لم تَفْنِ المِدَّة ؛ ونقل
المال والذخيرة ، وخرَّج المتاع والآنية إلى قَصَبَةِ النُّكَب لكَوْنِهَا في غاية
المنعة وعلى ضَفَّة البحر ؛ ولم يستأصل ذلك لكثرتِه ؛ وهدم حصوناً ، توهم
٥ عليه القيام منها ، ومن مَأْمَنِهِ يوثق الحذر .

وعمد على مال كثير ، وثياب قبيسة ، وتُحَفٌ جليلة ، وأعلاق رفيعة ؛
فوجَّه بها إلى الإِذْفُونَش ، وكتب إليه مطارحاً عليه ، مستجيراً به ، وأعلمه
أنَّ البلد بلدُه ، وأَنَّه فيه فائدة . فاهتزَّ لذلك إِذْفُونَشُ ، وقبل المال
والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد مَأْمَنِهِ أن يشدَّ اليد عليه في ملكه ،
١٠ ولا يتركه لضيَمِّ ولا هضمية ، وأن ينهض إليه بنفسه ويبذل جدَّه في نصره ؛
وراجعَه بمثل ذلك من قوله . فقويت قسُّ حفيد باديس بذلك .

وفي ذلك يقول السَّمْسَارِيُّ :

صَاحِبُ غَرَنَاطَةِ سَقِيَّةٍ وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِالْأُمُورِ
صَانِعُ إِذْفُونَشٍ وَالنَّصَارِيُّ فَأَنْظَرُ إِلَى رَأْيِهِ الدَّيْرِ
وشاد بنيانه خِلَافاً لِعَاطَاةِ اللَّهِ وَالْأَمِيرِ
يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهَا كَأَنَّهُ دَوْدَةُ الْحَرِيرِ
دَعَاؤُهُ يَبْنِي فَسَوْفَ يَدْرِي إِذَا أَتَتْ قُدْرَةُ الْقَدِيرِ

١٥

وَاتَّصَلَتْ أَبْنَاؤُهُ بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَقِيقَتِهَا ؛ فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ؛ وَاسْتَزَادَ

جزعه .

٢٠ وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ الْقُلَيْبِيُّ مِنْ أَهْلِ إِغْرَنَاطَةِ فَرِيدَ عَصَرِهِ فِي الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ

وَالْعِلَاقَةِ ، وَالْمُشَارِ إِلَيْهِ

الملحق الثاني

متنجات عن « كتاب الإحاطة في تأريخ غرناطة »
للسان الدين ابن الخطيب السَّلمانيّ

(١)

ترجمة عبد الله بن مُبَلِّقٍ^(١)

٥ عبد الله بن مُبَلِّقٍ بن باديس بن حَبُوس بن ما كَسَن بن زِيْرِي بن
مَنَاد الصَّنْهَاجِيّ أمير غرناطة .

أَوَّلَتْهُ : قد مرَّ ذلك في اسم جدّه ما فيه كفاية^(٢) .

حاله : لقبه المظفر بالله ، الناصر لدين الله . ولى بعد جدّه الحاجب

المظفر بالله في شوال سنة ٤٦٥ . وصحبه سِمْجَاة الصَّنْهَاجِيّ تسع سنين .

١٠ ﴿ قال الغافقيّ : ﴾ وكان قد حاز حظاً وافراً من البلاغة والعرفه ،

شاعراً جيّداً الشعر ، مطبوعه ، حسن الخط ؛ كانت بفرناطة ربعة مُصَحَّف

بخطّه في نهاية الصنعة والإتقان .

﴿ ووصفه ابنُ الصَّيْرَفِيّ ؛ فقال : ﴾ كان جباناً ، مغمداً السيف ،

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ٢١٤ .

(٢) راجع « مركز الإحاطة » (ط القاهرة) ج ١ ، ص ٢٣٨ : ترجمة الأمير باديس بن

حبوس الصَّنْهَاجِيّ .

قلعاً ، لا يثبت على الظهر ، عزهاة ، لا أرب له في النساء ، هيابة ،
مفرط الجزع ، يخلد إلى الراحة ، ويستوزر الأغمار .

خلعه : ﴿ قال : ﴾ وفي عام ٤٨٣ ، تحرك أمير المسلمين يوسف بن
تاشفين لخلع رؤساء الأندلس ؛ فأجاز البحر وييم قرطبة . وتواترت الأنباء
على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يعيظه ويحتمه ، حسباً تقدم^(١) في
اسم مؤمل مولى باديس . وقدم إلى غرناطة أربع محلات ؛ فنزلت بمقربة
منها ، ولم تمتد يده إلى شيء بوجه ؛ فسر الناس واستبشروا ، وأمنت
البادية ، وتسايك أهل الحاضرة إلى القرى . وأسرع حفيد باديس في
المال ، وألحق السوق والحاقة ، واستكثر من الليف ، وألح بالكتب
على إذفونش بما يطعمه .

وتحقق يوسف بن تاشفين استشراف الحضرة إلى مقدمه ؛ فتحرك .
وفي ليلة الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب ، اجتمع إلى حفيد باديس
صنائه ؛ فخوفوه من عاقبة التربص ، وحاولوه على الخروج إليه . فركب ،
وركبت أمه ، وخرجا ؛ وتركا القصر على حاله ؛ ولقي أمير المسلمين على
فرسخين من المدينة ، فترجل وسأله العفو ؛ فعفا عنه ووقف عليه ، وأمره
بالركوب ؛ فركب وأقبل حتى نزل بالمشيخة^(٢) من خارج الحضرة .
واضطربت المحلات ، وأمر مؤملاً بثقاف القصر ، فتولى ذلك .
وخرج الجي من أهل المدينة ؛ فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ؛

(١) راجع أسفله ، ص ٢١٢ .

(٢) اسم مكان من خارج غرناطة لم نعره عليه . وإنما ثبتناه عن النسخة الثانية الاسكوريالية من
« الإحاطة » . وفي النسخة الأولى : « بالمشيخة » .

قبلهم وأنسهم وسكن جانبهم ؛ فاطمأنوا . وسهل مؤمل إليه دخول
الأعيان ؛ فأمر بكتب الصكوك ورفع أنواع القبالات والخراج ، إلا زكاة
العين وصدقة الماشية وعشر الزرع . واستقصى ما كان بالقصر ؛ فظهر على
ما يحول الناظر ، ويروع الخاطر ، من الأغلاق والذخيرة والحلى ، ونفيس
الجواهر ، وأحجار الياقوت ، وقصب الزمرّد ، وآنية الذهب والفضة ،
وأطباق البلّور الحكم ، والجُرّانيات ، والعراقيات ، والثياب الرقيقة ،
والأنماط ، والكال ، والستائر ، وأوطنة الديباج ، ممّا كان في ادخار
باديس واكتسابه . وأقبلت دوابّ الظهر من المنكب بأحمال السيّك
والمسبوك . واختلفت أمّ عبد الله لاستخراج ما أودع بطن الأرض ،
حتى لم يبق إلا الخردى والنقل والسقط ، وزرع تلك الأمير على قواده ، ولم
يستأثر منه بشيء .

﴿ قال ﴾ : ورغب إليه مؤمل في دخول القصر ؛ فركب إليه ، وكثر
استحسانه إيّاه ، وأمر بحفظه وتقدّم أوضاعه وأفنيته .

ونقل عبد الله إلى حراكش ، وسنه يوم خلع خمس وثلاثون سنة وسبعة
أشهر ؛ فاستقرّ بها هو وأخوه تميم ؛ وحلّ اعتقألهما ، ورؤفّة عنهما ؛
وأجروا المرتّب والمساهمة عليهما . وأحسن عبد الله أداء الطاعة ، مع لين
الكلمة ؛ فضيّبت مآربّه ، وأسعفت رغباته ، وخفّ كلّ الدولة ؛ فاستراح
واستريح معه . ورزق الولد في الخمول ؛ فعاش له ابنان وبنت جمع لهم
للال ، فلما توفّي ترك لهم مالا جماً .

مولده : وُلد عبد الله سنة ٤٤٧ .

(٢)

ترجمة مقاتل بن عطيّة (١)

مُقاتِل بن عَطِيَّة البرزالي ، يكنى أبا حَرْب . عُرِىَ قال فيه أبو القاسم العافقي : من أهل غرناطة ، ويُلقَّب بذي الوزارتين ؛ وتعرف بالرُّبِّية المحرقة كانت في وجهه .

حَالُهُ : كان من الفرسان الشجعان ، لا يصطلي نباره ؛ وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بني برزّال . ولأه الأمير عبدالله بن بُلقين ابن باديس مدينة اليُسّانة ، والتقى به ابن عبّاد وأخذ بمخنقتها . وكان عبدالله يحزره . وعندما تحقق حركة اللمتونيين إليه ، صرفه عن جهته ؛ فقلّ لذلك قاصره ، وأسرع ذهاب أمره :

شجاعته : ﴿ قال ﴾ : وحضر مُقاتل مع عبدالله بن بُلقين أمير غرناطة وقبة النّيبيل في صدر سنة ٤٧٨ ؛ فأبلى فيها بلاءً عظيماً ، وجرح وجهه وخرق درعه بالطن والضرب . وذكر من حضرها ونجا منها ، قال : كنت قد سقط الرمح من يدي ولم أشعر ، وحملت الترس ولم أعلم به ، وحلني الله إلى طريق منجاة ، فركبتها مرةً أقعُ ومرةً أقوم ؛ فأدركتُ فارساً على فرس أدم ، ورمحه على عاتقه ، ودرقته على فخذه ، ودرعه مهتكةً بالطن ، وبه جرحٌ في وجهه يشعب دماً تحت منفره ، وهو مع ذلك ينهض على رسله ، فرجعتُ إلى نفسي ؛ فوجدتُ قتلاً ؛ فتذكرتُ الترس ؛ فأخرجتُ حماته عن عاتقي

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٢) ، ص ١٨٨ .

وَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي ؛ فَوَجَدْتُ خَفَّةً وَعُدْتُ إِلَى الْمَدْوِّ ؛ فَصَاحَ ذَلِكَ الْفَارَسُ : خُذِ
 الترس ! « قلتُ : « لاحتاجة لي به ! » فقال : « خُذْهُ ! » فتركته ووايتُ
 مسرعاً ؛ فبهز فرسه ووضع سنانَ رمحِه بين كَتِفَيَّ وقال : « خُذِ الترس ،
 وإلاَّ أخرجُته بين كَتِفَيْكَ في صدرك ! » فرأيتُ الموت الذي قَرَرْتُ منه ،
 ورجعت إلى الترس ؛ فَأَخَذْتُهُ ، وَأَنَا أَدْعُو عَلَيْهِ ، وَأَسْرَعْتُ عَدْوًا . فقال
 لي : « على ما كنتَ فليكن عدوك ! » فاستعذتُ وقلتُ : « ما بعثه الله
 إلاَّ لهلاكِي ! » وإذا قطعة من خيل الروم قد بصرت به ؛ فوقع في نفسه أنه
 يسرع الجَرَى فيسلم وأُقْتِلَ ، فلما ضاق الطلق ما بينه وبين أقربهم منه ، عطف
 عليه كاللقاب وطعنه ووطره ، وتخلص الرمح منه ، ثمَّ حمل على آخر ، فطعنه
 ومال على الثالث ، فانهزم منه ، فرجع إلىَّ ، وقد هبتُ من فعله ، ورشاش
 دم الجرح يتطاير من قِنَاعِ الْمِفْغَرِ لشدَّةِ نفسه ، وقال لي : « يا فاعل ! يا صانع !
 أتلقى الرمح ، ومعك مُقَاتِلُ الرُّيَّةِ ؟ »

(٣)

ترجمة مُؤَمَّل^(١)

مُؤَمَّل ، مَوْلَى بَادِيسَ بْنِ حَبُوس .
 حاله وَحِجَّتُهُ : ﴿ قَالَ ابْنُ الصَّبْرِ ﴾ وقد ذكر عبد الله بن بُلْقَيْن
 حفيدَ بَادِيسَ ، واستشارته في أمره لما بلغه حركة يوسف بن تَاشْفِين إلى
 خَلْعِهِ : وكان في الجملة من أحبابه رجلٌ من عبيد جدِّه اسمه مُؤَمَّل ، وله
 سنٌّ ، وعنده دهلاء وفطنة ورأى ونظرٌ .

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

﴿ قال في موضع آخر ﴾ : ولم يكن في وزراء مملكته وأجباء دولته أصيلُ الرأي جَزَلُ الكلمة إلا ابن أبي خَيْثَمَة من كتبه ، ومؤمل من عبيد جدّه ، وجعفر من فتيانه .

﴿ رجع . قال ﴾ : فألطف له مؤمل في القول ، وأعلمه برفقٍ وحُسن أدبٍ أن ذلك غير صواب . وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين ، إذا قَرُبَ ، والتطارح عليه ؛ فإنه لا يمكنه مدافعة ولا إطلاق حربته ، والاستخذاء له أحد عاقبة وأيمنُ مغبة . وتابعه على ذلك نظراؤه من أهل السنِّ والحكمة ، ودافع في صدر رأيه الغلة الأعمار ؛ فاستشاط غيظاً على مؤمل ومن نحا نحوه ، وهمّ بهم . فخرجوا ، وقد سبل بهم فرقاً منه . فلما جنّهم الليلُ ، فرّوا إلى كوشة ، وبها من أبناء عبيد باديس فائدها ؛ فلكوها وثاروا فيها بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

وبادر مؤمل بخطاب يوسف المذكور ؛ وقد كان سفر إليه عن سلطانه ؛ فأعجبه عقلاً ونبلاً ؛ فاهتزّ إليه ؛ وكان أقوى الأسباب على حركته . وبادر حفيد باديس لأمره ؛ فأشخص الجيش لنظر صهره ؛ فتغلب عليهم . وسبق مؤمل ومن كان معه شرّ سوق في الحديد ، قد أركبوا على دوابّ هجن ، وكُشفت رؤوسهم ؛ وأردف وراء كل رجل من يصفعه . وتقدّم الأمر في نصب الجنود وإحضار الرماة . ونلطف جعفر في أمرهم وقال للأمير عبد الله : « إن قتلتهم الآن ، أطقأت غضبك وأذهبت مالك ! فاستخرج المال ، وأنت من وراء الانتقام ! » فتفقهم . وأطعموا في أنفسهم ريثما شغله الهول . وأنفذ يوسف بن تاشفين في حلّ اعتقالهم ؛ فلم تسعه مخالفته . فأطلقهم . ولما ملك غرناطة على تغية تلك الحال ، قدّم مؤملاً على

مُسْتَخْلَصَه ، وجعل بيده مفاتيح قصره ؛ فقال ما شاء من مال وحظوة ، واقتنى ما أراد من صاميتٍ وذخيرةٍ . ونُسبت إليه بغرناطة آثار ، منها السقاية بباب الفخارين ، والخور للعروقة بخور مؤمل . أدركتها ، وهي بحالها .

وفاته : ﴿ قال ابن الصيرفي ﴾ : وفي ربيع الأول من هذا العام ، وهو عام ٤٩٢ ، توفي بغرناطة مؤمل ، مولى باديس بن حبوس ، عبد أمير المسلمين وجابي مُسْتَخْلَصَه . وكان له دهاء وصبر ؛ ولم يكن بقارىء ولا كاتب ؛ رزقه الله عند أمير المسلمين أيام حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً . ولما أشرف على النية ، أحضر ما كان عنده من مال المُسْتَخْلَص ، وأشهد الحاضرين على دفعه إلى من استوثقه على حمله ؛ ثم أبرأ جميع عماله وكتّابه ، وأنفذ رجالاً من صناعته إلى أمير المسلمين بحملةٍ من مال نفسه ، يُريه أن ذلك جميع ما اكتسبه في دولته أيام خدمته ، وأن بيت المال أولى به ؛ وورغب في ستر أهله وولده . فلما وصل ذلك إليه ، أظهر الأسف عليه ، وأمضى تقديم صنيعته .

ثم ذكر ما كشف البحث عنه من محتججه ، وشقاء من خلفه بسببه ، وعدد ماله وذخيرة .

فهرس أسماء الرجال

- أ -

أبو إبراهيم اليهودي (أبن نغالة) ٣٠ ،
٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ .
ولد أبي إبراهيم اليهودي ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ،
٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ،
٨٨ ، ١٣٣ ، ٢٠٥ .
أبن الأحسن السجلماسي ١٧٢ ،
أبن الأحمر ١٤٥
أبو الأحوص بن صاحب (صاحب المرية)
٤٥ ، ٤٤
أختا عبد الله المؤلف ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤
الإذقونش ٢٠٧ ، ٢٠٩ . وانظر « الفوتش »
أبن أرقم ٥١ ، ٥٢
أبن الأصبحي ٩٧
أبن أضحى الكاتب ٦٣ ، ٦٠
إفلاطون ٨
أبرهانش ١٢٣ ، ١٢٤

ألفوتش السادس ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،
٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،
٨٤ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ،
١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣

- ب -

باديس بن حبوس المظفر (عبد عبد الله) ١١ ،
١٢ ، ١٣ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٨

٧١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١١٧ ،
١١٨ ، ١٣٠ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
٢١٠
باديس بن المنصور (أمير إفريقية) ٢٤
باديس بن وادي ١٤٦
باطر (بطره) شولش ٦٩ ، ٧٤
أبن البراء ١٣٧
بزلف (والي السوس) ١٦٣
بقراط ١٨٥
أبن بكر ١٧٠
أبو بكر بن مسكن ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
١٥٧
بليار الصهاجي ٨٧
بلقين بن باديس سيف الدولة (والد عبد الله
المؤلف) ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ،
٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
١٩٩
بلقين بن حبوس ٢٣ ، ٣٥
بلقين بن زادي بن زيري ٢٤

- ث -

أبن ياقنوت ٩٦ ، ٩٧
تيم بن بلقين بن باديس الممر (آخر عبد الله
المؤلف) ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٠ ،
٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ،
١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١٦٢ ، ١٦٣

- ج -

الجاحظ ١٩٨

جالينوس ١٨٦ ، ١٩٣

جعفر الحصى ١٥١ ، ٢١٣

ابن أبي جوش ٨٦

- ح -

حبوب بن ماكسن (أمير غرناطة) ١٧ ،

١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،

٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٦٧

الحجاج ١٩٢

ابن الحديدي ٧٧

ابن الحسن النباهي (قاضي مالقة) ٦٤

الحكم المستنصر بالله ١٥

- خ -

ابن الخياط المنجم ٧٨

ابن أبي خيشمة ١٥٨ ، ٢١٣

- د -

داود بن عائشة ١٠٣

- ذ -

ابن ذي النون ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ،

٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

- ر -

الرازي (ابن المعتمد بن عباد) ١٠٣ ، ١٠٨

١١٢ ، ١٧١

أبو الربيع بن الماطوف ٤٨ ، ١٣٠

أبو الربيع النصراني ٦٦ ، ٦٨

الرشيدي (هارون) ١٨٤

الرشيدي (ابن المعتمد بن عباد) ٨١

ابن رشيق ٨٠ ، ٨١ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٢

١٤٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤

الرومي أو النصراني = ألفونس السادس

الريه (لقب مقاتل بن عطية البرزالي) ٢١١ ،

٢١٢

ابن الريولة ٧٧ ، ٧٨

- ز -

زاري بن زيري ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ،

٢٤ ، ٢٥

زاري الصنهاجي ٨٧

زهير (صاحب المرية) ٣٤ ، ٣٥

ابن الزيتوني القروي ١٥٨

- س -

سراج الدولة ٨١

ابن سعدون ١٤٩ ، ١٥٥

ابن السقاء ٤٥

سقراط ٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩

ابن سلمون ١١٧

سماجة الصنهاجي ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،

٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

١٤١ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨

السمساري ٢٠٧

ابن سهل (القاضي) ١١٥ ، ١١٨ ، ١٤٦

السيد للزريق ١٧٥

سير (الأمير المرابطي) ١١٠ ، ١٦٠ ،

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤

سيف الدولة = بلقين بن باديس ولقد عبد الله

ابن سبيق ١٣٢

- ش -

شغلانده ٧٣

- ص -

الصحراري (أبو بكر محمد يوسف بن تاشفين)

١٧١

-ق-

القادر (حفيد ابن ذى النون) ٧٧ ، ٨٠ ،
 ١٥٣ ، ١٧٣ .
 ولد القاضي (صاحب باغنه) ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦
 قروور ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
 ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ،
 ١٧١ ، ١٧٣
 ابن القطان ٢٠٥
 ابن القليعي أبو جعفر ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٧

-ك-

كباب بن تميم ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠

-ل-

لييب الخصى ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 ١٥١
 لغة الخادم ١٥٨
 ابن أبي لولا ١٣١

-م-

ابن ماشاء الله ١٤٧
 ماكسن بن باديس بن حبيون ٤٠ ، ٤٨ ،
 ٤٩ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
 ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٩٤ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠٦
 المأمون بن المعتد ١٧٠
 المتوكل بن الأقطس ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٤ ، ١٧٦
 مجاهد (صاحب دائية) ٤٤ ، ٤٥

ابن صاوح = أبو الأحوص والمعتصم صاحب
 المرية .

أبو الصمصام ١٧١

ابن الصيرفي ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤

-ح-

عباد (المعتضد بن عباد) ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ،
 ٥٩
 عباد بن المعتد ٧١
 العباس بن المتوكل بن الأقطس ١٧٤
 أبو العباس الحكيم ١٢٢
 أبو العباس (كاتب حبيون) ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٣٠

ولد أبو العباس ٣٠ ، ٣١

ولد عباس (كاتب زهير) ٣٤ ، ٣٥

عبد الله بن القروي ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
 ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٩

عبد الملك (القاضي) ١٠٢

أم العلوي (بنت عم ماكسن) ٦٧ ، ٦٨

علي بن أبي طالب ١٨٣

علي بن القروي ٢٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢

ابن عمار ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ،

٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،

٩٦

عمر بن عبد العزيز ١١

-غ-

الغافقي (أبو القاسم) ٢٠٨ ، ٢١١

-ف-

فرقان ٢٨ ، ٣٢

الفضل بن المتوكل بن الأقطس ١٧٤

٤٥ ، ٤٤
 المنصور بن المتوكل بن الأنطس ١٧٢ ،
 ١٧٤ ، ١٧٣
 المؤمن بن هود ٧٨ ، ٧٩
 موسى ٨
 مؤفق (صاحب المدينة) ٣٧
 مؤيل ١١٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
 ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ،
 ١٥٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ،
 ٢١٤ ، ٢١٣
 ابن ميمون (أمين عهد اليسانة) ١٣٠ ، ١٣١ ،
 ١٣٢

— ن —

الناية ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
 ٦٥ ، ٧٠ ، ١٣٣
 نعمان ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٨

— ه —

هشام المؤيد ١٥

— و —

واصل الطنج ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨
 والدة المؤلف ٩٤ ، ٩٥ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٠

— ي —

يحيى بن يفران ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
 يدوير بن حسانة بن ماكش ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤
 ابن يعيش ٦٤
 ابن يكون ١٤٥
 يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ١٠٢ ، ١٠٣ ،

ولد مجاهد ٦٢ ، ٧٨
 مخلوف بن ملوك ٥٨
 المرادى ٢٠٥
 المرتضى ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٥
 ابن مرتين ٧١
 ابن المرة ١٣٠ ، ١٣٢
 المستعين بن هود ٧٨
 مسكن بن حبوس المغرالي ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٦٢
 المنظر (جد عبد الله) = باديس بن حبوس -
 المعصم بن صادق (صاحب المرية) ٤٥ ،
 ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
 ٥٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،
 ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ١٦٤ ،
 ١٦٥ ، ١٦٧
 المعتضد = صباد
 المعتضد بن عباد ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ،
 ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ،
 ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ،
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
 ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
 ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٠٦

معد بن يعلى ١٣٩
 المعز بن باديس (أمير إفريقية) ٢٤ ، ٢٥ ،
 ٤٣

المعز = نجم بن بلقين بن باديس -
 معز النولة بن المعصم بن صادق ١٦٧
 مقاتل بن عطية البرزالي ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
 مقاتل بن يحيى ٤٧
 المقتدر بن هود ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،
 ابن ملحان ٧١
 منلو بن هود ٧٩
 المنصور بن أبي عامر ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،
 المنصور بن أبي عامر (صاحب شرق الأندلس)

۱۷۶ ء ۱۷۴ ء ۱۷۲ - ۱۴۳ ء ۱۳۸	۱۰۸ ء ۱۰۷ ء ۱۰۶ ء ۱۰۵ ء ۱۰۴
۲۱۳ ء ۲۱۲ ء ۲۱۰ ء ۲۰۹ ء ۲۰۶	۱۱۴ ء ۱۱۳ ء ۱۱۲ ء ۱۱۱ ء ۱۱۰
۲۱۴	۱۲۰ ء ۱۱۹ ء ۱۱۸ ء ۱۱۷ ء ۱۱۵
یوسف بن حجاج ۱۳۸ ء ۱۴۰ ء ۱۴۱ ء ۱۴۷	۱۲۹ ء ۱۲۸ ء ۱۲۷ ء ۱۲۲ ء ۱۲۱

فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

صنهاجة ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	الإفريقيج ٤٤ ، ٤٥ ، ٨١
٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٤ ،	البربر ١٦ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٥ ،
٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ،	١٥٠ ، ٩٣ ، ٦٤
٨٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ٢٠٥ ،	بنو برزال ٦٢ ، ٦٣
بنو عباد ٤٧ ، ٧٩ ، ١٦٤	بنو تافناوت ٩٧ ، ٩٨
بنو الوارثي ٧٧	تلكاتة ٢٤ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ١٤٦
لمتونة ٢٠٦	بنو حمود ٤٤
المرايطون ٤٥ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،	الروم أو النصرى ١٥ ، ١٦ ، ٧٠ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	٧٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،	١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٨ ،
١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،	١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ،
١٦٨ ، ١٧٥	١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٢
المغاربية ٦٠ ، ٦١ ، ١١٩ ، ١٥٠ ،	زناقة ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
بنو مغيث ٧٧	١٣٧
اليهود ٣٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،	بنو زيري ١٢٨

فهرس الأعلام الجغرافية

١٦٠٤ ١٥٢٤ ١٠٨٤ ١٠٤	أرجلونة (Archidona) ٩٥٤ ٩١
جطرون (Jotrón) ٩٤٤ ٩٢	إسطة (Estepe) ٧٥
جليقية (Galice) ٧٢	إشبيلية (Sevilla) ١٠٣٤ ١٠٢٤ ٧٥
جيان (Jaén) ١٩٤ ٥٣٤ ٥٥٤ ٦٠٤	١٧٥٤ ١٧٠٤ ١٦٨٤ ١٢٨٤ ١٠٥
٢٠٥٤ ٩٤٤ ٧٦٤ ٦٣٤ ٦١	أشتير ٩١
محارث ٩٤	حصن آشر (Iznajar) ١٩
الحمرام (Alhambra) ١٣٠٤ ٥٤	إغرناطة = غرناطة
الحمة (Alhama) ٩١	آغمات ١٧١
حور مؤيل (بغرناطة) ٢١٤	إلبيرة (Elvira) ٢٠٤ ١٩٤ ١٨٤
دانية (Denia) ٧٩٤ ٧٨٤ ٧٧٤ ٤٥	٢٢٤ ٢١
الرملة (La Rambla) ٣٢	أنقيرة (Antequera) ٩٥
رندة (Ronda) ١٧١	أبرش ٩٢
ريه ٩١	باب الفخارين (بغرناطة) ٢١٢
ريشة ٩٤٤ ٩٢	باب فتنالة (بمالقة) ٩٢
الزاوية (La Zubia) ٢٢	باغه (Priego) ٦٩٤ ٦٦٤ ٦٤٤ ٤٤
الزلاقة (Sagrajas) ١٠٦٤ ١٠٥٤ ١٠٤	بسطة (Baza) ٧١٤ ٥٧
سبنة (Ceuta) ١٢٩٤ ١٠٣٤ ١٠٢٤	بطليوس (Badajoz) ١٠٥٤ ١٠٤٤ ٤٥
١٦٠٤ ١٤٦٤ ١٤٥	١٧٣٤ ١٧٢٤ ١١٥٤ ١١٤٤ ١١٣
سرقسطة (Saragossa) ١٢٢٤ ٨١٤ ٨٠٤ ٧٨٤	١٧٤
السطح (عمل) ٣٢٤ ٢٢	بلنسية (Valence) ١٥٣٤ ٧٨٤ ٧٧٤
الموس ١٦٣	١٧٥٤ ١٧٣
شاط (Jete) ٩٠	بليش (Velillos) ٧٢٤ ٧١٤ ٧٠٤
شربة ١١٣	١٤٨٤ ٧٤
شرق الأندلس ١٢٢٤ ٨٠٤ ٦٠	بياسة (Bacza) ٩٦٤ ٦٣٤ ٦٢٤
شقورة (Segura) ٨١٤ ٨٠	تدلى (Dellys) ١٦٨
شليز (Sierra Nevada) ٢٢	تسير ٧٩
شنت أتلج ٧٢	الجليل (نظر) ١١٣٤ ٢٢
شنت مرية (Santa Maria) ٨٠	جريشة ٩٦٤ ٩٧٤ ٩٨٤ ١٠٤
شنيل (Genil) ٢٠	الجزائر (Alger) ١٦٨
شيلش ٧٢٤ ٧١	جزيرة الأندلس ١٠٧٤ ١٠١
صالحه (Zalia) ٩١	الجزيرة الخضراء (Algeciras) ١٠٣٤ ١٠٢

الصحراء (Sahara) ١٥٨

حصنة حبيب ٩٢

حصنة دوس ٩١

طرابلس ٨٩

طليطلة (Tolède) ٧٣ ، ٦٥ ، ٦٢ ، ٥٦

١٠١ ، ٨٠

المدونة (Maroc) ١١٨ ، ١٨ ، ١٦

١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٣٩ ، ١١٩

النزيرة ٩٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٨

غرناطة (Grenade) ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٤

٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٢٤ ، ٢٥

٢٥ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣

٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥

٨٦ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١٢٠

١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٧

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣

١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨

١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

٢١٣ ، ٢١٤

فحص غرناطة ٢٢ ، ٤٤ ، ٧٠ ، ١٥٢

فنيانة (Fifiana) ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٨ ، ٨٩

الفونت (Alfiente) ٣٤

قاشعره ٧٦

قاهرة ٩٤

قبرية ٥٣

قبرة (Cabra) ٤٤ ، ٦٤ ، ٦٦

قرطبة (Gordono) ٤٣ ، ٤٥ ، ٧١

٧٧ ، ٧٨ ، ١٣١ ، ١٤٦ ، ١٤٧

١٥٢ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٩

قرطمة (Cartama) ٩٤

قرمولة (Carmona) ١٧٠

القصر (حصن) ٩١

قلعة أسطير (Alcala la Real) ٧٠ ، ٧٥

قلعة حماد ١٦٧ ، ١٦٨

قو لحر ٣٢

القبروان ٢٤ ، ٢٥

لرقة (Lorca) ٤٤

لوشة (Loja) ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٤

١٥١ ، ٢٠٦ ، ٢١٣

ليبط (Aledo) ٨١ ، ١٠٧ ، ١٠٨

١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٢

١٢٤ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٦٥ ، ١٧٣

مارتش (Martos) ٧٦

مالقة (Malaga) ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧

٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣

٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧

١١٣ ، ١١٥ ، ١٣٨

المدينة ٢١

مراكش ٢١٠ (وانظر مراكش)

مرسية (Murcie) ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١

١٠٨ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥

١٤٦

مروكش ١٢٥ ، ١٧١

المرية (Almeria) ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٤

٤٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠

١١٣ ، ١٢٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧

١٦٨ ، ٢٠٦

مرية بلش (Velex Malaga) ٩١

المشيحة ٢٠٩

المطمر ٧٦

مكناسة الزيتون ١١٥ ، ١٦٠ ، ١٦١

١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧١

منت ماس ٩٢

المتورى ٨٨ ، ٨٩

النكب (Almuficars) ٤٤ ، ٥٣

٨٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٢٠ ، ١٢١

١٥٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٠

ميشش (Mijas) ٩٤

٢٢٣

١١٣ ٠ ٨٧ ٠ ٨٦ ٠ ٨٥ ٠ ٦٤ ٠ ٥٩

١٢٣ ٠ ١١٤

٠ ١٣١ ٠ ١٣٠ (Lucca) اليمانة

١٤٨ ٠ ١٤٥

٢١١ ٠ ١٢٩ (Nivar) النيل

٩٦ نيمش

١١٨ الحنة

٠٤١ ٠ ٣٩ ٠ ٣٨ (Guadix) وادي آش

٠٥٨ ٠ ٥٧ ٠ ٥٦ ٠ ٥٥ ٠ ٥٣ ٠ ٤٤

فهرس الفصول

صفحة

١	مقدمة الناشر
١	الفصل الأول : نظرات عامة للمؤلف
١	١ - القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها
٣	٢ - حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به
٦	٣ - قصور القياس دون عون من الوحي
١٠	٤ - ضرورة التعلم والتجربة
١١	٥ - التكوين السياسي للمؤلف
١٣	٦ - صعوبة الإنصاف التاريخي
١٤	٧ - المصادقة وأثرها في التأريخ - مثل المنصور
	الفصل الثاني : الأحداث المهمة لقيام دولة بني زيري وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن
١٦	زيري وجبوس بن ماكسن
	٨ - الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور . قنوم بني زيري إلى الأندلس وقيام
١٦	دول الطوائف
١٨	٩ - استقرار بني زيري في البيرة بناء على طلب أهلها
٢٠	١٠ - رد الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري - اختطاط غرناطة
٢٢	١١ - خروج المرتضى لحرب بني زيري وهزمته
٢٤	١٢ - رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً
٢٥	١٣ - إمارة جبوس بن ماكسن
٢٧	١٤ - المؤامرات التي دبرت لإسناد الإمارة إلى يدير بن حياصة . موت جبوس
٣٠	الفصل الثالث : إمارة باديس بن جبوس (١) من أوليتها إلى موت ابن نقرالة
٣٠	١٥ - أولية إمارة باديس بن جبوس وتعاظم الوزير اليهودي أبي إبراهيم
٣٢	١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يدير بن حياصة ضد باديس
٣٤	١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية
٣٦	١٨ - شخصية الأمير بلقين سيف الدولة والد المؤلف
٣٦	١٩ - نشاط يوسف بن نقرالة اليهودي ومؤامراته

صفحة

- ٢٠ - موت الأمير بلقين مسموماً ٣٩
- ٢١ - ما بلغ ابن نقرالة من المكان الأرفع ٤٢
- ٢٢ - استيلاء باديس على مالقة ٤٣
- ٢٣ - علاقات باديس ببنى صمادح أصحاب المرية ٤٤
- ٢٤ - وصول الناية إلى غرناطة . حظوته ومناقضته اليهودى ٤٦
- ٢٥ - إجللاء الأمير ماكسن بن باديس ٤٨
- الفصل الرابع : إمارة باديس بن حبوس . (٢) من موت ابن نقرالة إلى نهايتها ٥٠
- ٢٦ - مؤامرة للوزير اليهودى ابن نقرالة . ثورة صنهاجة عليه وقتله ٥٠
- ٢٧ - الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادي آش من أيدي ابن صمادح ٥٥
- ٢٨ - الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع مالقة من يد ابن عباد ٥٧
- ٢٩ - الكشف عن أمر فتيانة وقتلتها ٥٩
- ٣٠ - استيلاء باديس على مدينة جيان ٦٠
- ٣١ - استيلاء الناية على يباسة ٦٢
- ٣٢ - مؤامرة ضد الناية ومقتله ٦٣
- ٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحاضرة ٦٦
- الفصل الخامس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (١) مشاكل
- الاندلس الخارجية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله ٦٩
- ٣٤ - رفض مطالب ألفونس السادس واشتراكه مع بن عمار ٦٩
- ٣٥ - المهادنة بين عبد الله وابن صمادح صاحب المرية ٧١
- ٣٦ - مهاجمة ألفونس السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه ٧٢
- ٣٧ - استيلاء ألفونس السادس على طليطلة ٧٦
- ٣٨ - استيلاء ابن هود على ذاتية . بعض أخبار بني هود ٧٧
- ٣٩ - ثورة ابن عمار على المعتمد بمروية إلى أنه أخرجه منها ابن رشيق . أعماله بعد ذلك ومهلكه الشيع ٧٩
- ٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشيلية ٨٢
- ٤١ - المؤلف يتحدث من منهجه في كتابة مذكراته ٨٢

الفصل السادس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٢) مشاكل

- غرناطة الداخلية إلى قنوم المرابطين ٨٤
- ٤٢ - عزل الوزير صنهاجة ، ثم إجلأؤه واستقلال عبد الله في الأمر ٨٤

صفحة

- ٤٣ - النزاع على الحدود بين ملكة غرناطة وملكة المرية . تعاقب أحداثه وحله ٨٨
 ٤٤ - توجيه عسكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخى المؤلف ، ونصره إياه ٩٠
 ٤٥ - ذكر ثورة كباب بن تميم وثورة بلى تاقنوت ونهايتهما ٩٥

الفصل السابع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٣) قدوم

- المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيب ١٠١
 ٤٦ - مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس ١٠١
 ٤٧ - إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء ١٠٢
 ٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد ١٠٤
 ٤٩ - موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونس السادس ١٠٤
 ٥٠ - يوسف بن تاشفين يحقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة . بدء الخلاف بين المتحالفين ١٠٦
 ٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس . حصار حصن لبيب ١٠٨
 ٥٢ - محاصرة لبيب . تصور فرضى ملوك الطوائف في ذلك الحين ١٠٩
 ٥٣ - النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيقي ١١٠
 ٥٤ - رفع الحصار عن لبيب . تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم ١١٢

الفصل الثامن : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٤) سياسة

- عبد الله بعد عودته من لبيب . إجراءات دفاعية وسياسية ١١٤
 ٥٥ - تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيب . مسلك قروور ١١٤
 ٥٦ - بعض المؤامرات وتحاذل القليعي ١١٦
 ٥٧ - سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون ١١٩
 ٥٨ - معاقبة عبد الله مع البرهانش وكبلى ألفونس السادس ١٢٢
 ٥٩ - التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونس السادس وعقد اتفاق جديد معه ١٢٤
 ٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله . عبد الله يبرر مسلكه ١٢٧

الفصل التاسع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٥) الحوادث

- الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة ١٣٠
 ٦١ - ثورة يهود مدينة البسطة ١٣٠
 ٦٢ - قضية زناة ١٣٣
 ٦٣ - انقلاب مؤمل وثورته في لوشة ١٣٦

صفحة

- ٦٤ - وصف الناصر نعمان وسيرته ضد عبد الله ١٣٩
 ٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أختي عبد الله ١٣٩
 ٦٦ - حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله ١٤١
 ٦٧ - رجوع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف ١٤٣
 ٦٨ - تدخل الأمير عبد الله في مسألة مرسية ونصيب المعتد ١٤٤
 ٦٩ - إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسببه من قبل عبد الله وإيقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها ١٤٥

الفصل العاشر : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٦) استسلامه

- السلطان المرابطي . يحبه . إخراج من الأندلس ونفيه ١٤٧
 ٧٠ - عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبه مقاتلته إياه ١٤٧
 ٧١ - وصول الجيش المرابطي قبالة غرناطة ١٤٩
 ٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة ١٥٠
 ٧٣ - لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم ١٥١
 ٧٤ - تسام الأمير عبد الله ونهب أمواله ١٥٤
 ٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى ١٦٠
 ٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأختي عبد الله . نفيه ١٦٢

الفصل الحادي عشر : عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك ١٦٤

- ٧٧ - موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة ١٦٤
 ٧٨ - حركات المرابطين على المرية ١٦٧
 ٧٩ - توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتد ١٦٨
 ٨٠ - الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفي ابن عباد ١٦٩
 ٨١ - قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكن ١٧١
 ٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس ومهلكه ١٧٢
 ٨٣ - نشاط المرابطين ضد النصارى . استيلاء السيد و لذريق على بلنسية ١٧٥
 ٨٤ - تأملات في قلب الأقدار ١٧٦

الفصل الثاني عشر : تأملات أخيرة بعد النفي ١٧٨

- ٨٥ - المؤلف والشعر ١٧٨
 ٨٦ - استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره ١٧٩
 ٨٧ - آراء المؤلف في التنجيم ١٨١

١٨٢	٨٨ - آراء طيبة في الأغذية والتبيل
١٨٨	٨٩ - رجع الكلام عن التنجيم
١٩١	٩٠ - مسائل فلكية
١٩٢	٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والقلب
١٩٣	٩٢ - نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم
١٩٤	٩٣ - حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب
١٩٥	٩٤ - تأملات نظرية وأمثلة يضر بها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيراته الدنيا
١٩٨	٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده
٢٠٠	٩٦ - توجه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه
٢٠١	٩٧ - ينفخ المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة

٢٠٥	الملحق الأول : منتخبات من «كتاب البيان المغرب» لابن عمارى المراكشى عن دولة الأمير عبد الله
-----	--

	الملحق الثاني : منتخبات من «كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة» للسان الدين ابن الخطيب :
--	--

٢٠٨	(١) ترجمة عبد الله بن بلقين
٢١١	(٢) ترجمة مقاتل بن عطية
٢١٢	(٣) ترجمة مؤمل

٢١٥	فهارس الكتاب
-----	------------------------

en préparation, sera en grande partie éclairée sous un nouveau jour grâce à cet appoint d'une documentation fort riche et non suspecte.

* * *

Le manuscrit des "Mémoires" de 'Abd Allâh contient au total 80 feuilles d'épais papier de grand format [29 × 31 centimètres], inventoriées à la bibliothèque d'al-Qarawiyyîn à Fès sous le No. 1886. L'écriture est du genre *mabrûṭ* andalou; la copie est en général en bon état de conservation; seuls deux feuillets sont fort mutilés. Nous avons adjoint au texte deux appendices comportant des passages inédits du *Kitâb al-Bayân al-mughrib* d'Ibn 'Idhârî et de l'*Iḥâṭa* de Ibn al-Khaṭîb sur 'Abd Allah et deux personnages importants de son règne. Enfin une carte permettra au lecteur de retrouver les plus importantes localités du Sud de l'Espagne qui sont citées dans le texte.

Je voudrais, pour terminer, signaler à ceux de mes lecteurs qui s'étonneront de certaines acceptions ou de certaines tournures des "Mémoires" que la langue de 'Abd Allâh, bien qu'en général correcte, a subi dans une certaine mesure l'influence de l'arabe vulgaire hispanique et qu'il faut pour comprendre certains mots qui peuvent paraître erronés, faire appel principalement au *Supplément aux Dictionnaires arabes* de Dozy.

Je n'ai pas besoin de signaler d'autre part au lecteur que les titres qui ont été introduits pour séparer les diverses sections des "Mémoires" et en annoncer le contenu n'existent pas dans le texte original.

Paris, 26 juin 1955

R. L.-P.

sinhâjienne des Banû Zîrî. Né en 447 [1056], il fut désigné à la mort de son père Buluggîn Sayf al-dawla, en 456 [1064] comme l'héritier présomptif de son grand père Bādîs ibn Ḥabûs, et il lui succéda sur le trône de Grenade en 469 [1077], tandis que son frère Tamîm al-Mu'izz devenait prince indépendant de Malaga. Son règne ne fut qu'une longue suite de troubles à l'intérieur de son royaume, de conflits armés avec ses voisins musulmans et de compromissions avec le roi de Castille Alphonse VI. Au moment de l'intervention des Almoravides en Espagne, il participa aux campagnes d'al-Zallâqa et d'Aledo. Mais ses tractations avec le roi chrétien finirent par lui coûter son trône. En 489 [1090], Yûsuf ibn Tâshufîn vint le bloquer dans Grenade et il dut se rendre à sa merci. Il fut déchu de son trône et envoyé en exil dans le Sud du Maroc, à Aghmât, où il finit ses jours.

Ce fut au cours de son séjour forcé à Aghmât que 'Abd Allâh composa ses "Mémoires". Cette autobiographie — on pourra s'en rendre facilement compte — constitue la somme documentaire la plus considérable et la moins déformée que l'on possède sur l'histoire des *mulûk al-ṭawâ'if*. Malgré de longues digressions dans lesquelles l'auteur tente de justifier sa position politique devant les périls qui menaçaient son royaume, le *Kitâb al-Tibyân* fournit une chronique extrêmement détaillée de tous les événements qui aboutirent en 478 [1085] à la prise de Tolède par Alphonse VI, et, l'année suivante, à l'intervention des Almoravides dans la Péninsule ibérique.

C'est en même temps un document psychologique de premier ordre, qui permet, beaucoup mieux que les chroniques postérieures, de juger de l'état de décomposition sociale et politique de l'Espagne musulmane avant et après la bataille d'al-Zallâqa et des progrès accomplis à cette époque par les champions de la Reconquête chrétienne. Le récit des événements antérieurs au propre règne de l'émir 'Abd Allâh est également fort nouveau et fort important. Les "Mémoires" du prince de Grenade doivent être considérées, à partir de l'époque où prend fin la chronique d'Ibn Ḥayyân, comme un fil conducteur à travers l'histoire confuse des *ṭawâ'if*. Cette période, qui sera décrite au quatrième tome de mon *Histoire de l'Espagne musulmane*, actuellement

cahiers manuscrits jetés au rebut dans une dépendance de la mosquée d'al-Qarawiyîn à Fès depuis au moins six siècles.

On savait, grâce à une indication fournie par la chronique anonyme intitulée *al-Hulal al-mawshaya*, que l'émir 'Abd Allâh avait composé un livre sur la dynastie fondée en Espagne par sa famille et dont il fut le dernier représentant. Quand, en 1934, je donnai une première édition de la partie relative à al-Andalus du *Kitâb A'mâl al-a'lâm* d'Ibn al-Khaṭīb, le passage suivant [p. 269] retint mon attention. "J'ai vu un *diwân*, écrit de sa propre main, que 'Abd Allâh ibn Buluggîn composa, après sa déposition, dans la ville d'Aghmât; il y relate son histoire et les événements qui concoururent à sa chute, et cette œuvre est fort curieuse. Le prédicateur de la mosquée d'Aghmât me fit cadeau de ce document". Nous savons, grâce à une précision fournie par le même ouvrage, qu'Ibn al-Khaṭīb visita Aghmât et le tombeau d'al-Mu'tamid Ibn 'Abbâd en 781 [1360]. Et l'on peut se demander si le manuscrit que nous avons utilisé n'est pas, sinon cette copie elle-même, du moins une seconde copie faite sur l'original et confrontée avec lui, comme le prouve la mention fréquente: *ṣahha; aṣl^m*.

Enfin, un autre hasard de lecture devait me révéler le titre exact des "Mémoires" de 'Abd Allâh: en effet, d'un passage du *Kitâb al-Marqaba al-'ulyâ*, [p. 97], ouvrage sur la judicature andalouse que j'ai publié au Caire en 1948 et dont l'auteur fut le célèbre Ibn al-Ḥasan al-Nubâḥī, il ressort que le livre s'intitulait *al-Tibyân 'an al-ḥāditha al-kā'ina bi-dawlat Banī Z̧ḩr fi Gharnāṭa*.

Ce titre dit bien ce qu'il veut dire: l'auteur, détrôné et exilé, s'est proposé de relater l'histoire de son règne et les circonstances de sa chute.

Qui était cet émir 'Abd Allâh et quelle valeur faut-il attribuer à son livre ? Qu'il me suffise de résumer ici ce que j'en ai écrit récemment dans la nouvelle édition de *l'Encyclopédie de l'Islam* [p. 45].

'Abd Allâh ibn Buluggîn ibn Bâdis ibn Ḥabûs ibn Zirî fut le troisième et dernier souverain du royaume de Grenade fondé après la chute du califat de Cordoue par une branche collatérale de la famille berbère

AVANT - PROPOS

L'ouvrage dont on va trouver ici la plus grande partie du texte — tout ce qui en a été jusqu'ici retrouvé — est déjà connu de tous ceux qui ont étudié quelque peu l'histoire de l'Espagne musulmane et plus spécialement la période de cette histoire dite des *mulūk al-īawd'īf*, correspondant en gros au Ve siècle de l'hégire [XI^e siècle de J.-C.]. En effet, au fur et à mesure de leur découverte et à deux reprises, j'en ai publié d'abord trois puis deux fragments étendus dans la revue "al-Andalus" de Madrid, en 1935-36 et en 1941. De l'ensemble aujourd'hui reconstitué, à part la première page et une longue et regrettable lacune centrale, une traduction en espagnol paraîtra à bref délai sous la signature de mon collègue et ami le Prof. E. García Gómez et la mienne. Cette traduction sera accompagnée d'une introduction détaillée et d'un appareil de notes historiques et géographiques auxquelles je renvoie d'ores et déjà le lecteur désireux d'être renseigné en détail sur l'ouvrage que je publie aujourd'hui et sur sa valeur documentaire et littéraire.

Je me bornerai donc ici à quelques indications essentielles. Il n'est pas fréquent de rencontrer, dans l'histoire du monde arabe, des souverains ou des personnages haut placés qui aient pris soin de retracer leur carrière en rédigeant leurs "Mémoires" à l'intention de leurs contemporains ou des générations futures. Cette constatation est encore plus vraie pour l'Occident de l'Islam que pour l'Orient; si on y trouve quelques autobiographies de personnages importants, tels qu'Ibn Khaldûn et Ibn al-Khaṭīb au VIII^e siècle [XIV^e siècle J.-C.], on ne connaît, dans ce genre historique, qu'une œuvre à citer: celle d'al-Baydhaq, le compagnon du Mahdī Ibn Tūmart, le fondateur de l'almoḥadisme, dont j'eus la chance, il y a plus de vingt-cinq ans, de retrouver en Espagne, à l'Escorial, un manuscrit jusque-là demeuré ignoré. C'est une autre chance, non moins heureuse, qui m'a valu de mettre la main, à plusieurs années d'intervalle et morceau par morceau, sur un ouvrage autobiographique non moins précieux: celui de l'émir 'Abd Allāh, dont les feuillets s'entassaient pêle-mêle dans un fouillis de

LES « MÉMOIRES » DE ʿABD ALLAH

DERNIER ROI ZIRIDE DE GRENADE

[Ve-XIe siècle]

TEXTE ARABE

publié d'après l'unicum de Fès

par

E. LEVI - PROVENÇAL

Professeur à la Sorbonne,

Directeur de l'Institut d'Études Islamiques

de l'Université de Paris

LE CAIRE

ÉDITIONS AL-MAAREF

1955





